
سلمى الحفار الكزبري
عنبر
ورماد
دار بيروت

سلمى الحفار الكزبري

عنبر ورماد

المرحلة الأولى
١٩٢٢ - ١٩٥٥

دار بيروت للطباعة والنشر

الطبعة الأولى

١٩٧٠

عنبر ورماد

المقدّمة

يتضمن هذا الكتاب فصولاً من طفولتي وحياتي وبيئتي ، تصوّر أهم الأحداث التي أثرت في تكويني الخلقي والفكري وطبعتني بطابعها . لقد عانيت الحياة بما فيها من حلو ومرّ فأدركت انه لا بـــد للانسان ، اذ يعاني الحياة ، من التزود بالصبر والحكمة والمرونة لأن الصراع مدّ وجزر ، نجاح واخفاق ، ولأنه اختبار لشجاعتنا وايماننا كما هو امتحان لأخلاقنا ومبادئنا .

والانسان لا يدرك معاني الحياة وقيمها قبل ان ينضج ويصبح قادراً على تمييز الوجوه من الأقنعة ، فحين تطرح الحياة قناعها البراق وتضعنا أمام الواقع ، أمام الخيبة مثلاً أو المرض أو الموت ، وأمام الوحدة الأبدية التي فُرضت علينا في وجودنا ولو عشنا محاطين بالعديد من الناس ، فانها تفرض علينـــا مواجهتها ومواجهة انفسنا بشجاعة ، وتلقننا دروساً لم تكن بالحسبان . فالحياة ليست أحلاماً ذهبية كما نتخيلها في طفولتنا ، والسعيد ليس ذلك الأناني الذي يجنّد امكاناته لخدمة ذاته والترفيه عنها ، إنما السعيد هو الانسان السويّ الذي يتّسع قلبه للوجود في معناه الشامل ، وهو الذي يشارك الناس بمعضلاتهم ويتحسّس بها ويسهم في معالجتها . فلقد وُهبنا الحياة لنحياها بعمق ، لنأخذ قليلاً ونعطي كثيراً ، لنفرح ونتألم ونكافح وحدنا ومع الجماعة ، ولنستنبط منها القيم حتى يصبح لوجودنا معنى نبيل سواء أأخفقنا في بلوغ الهدف أم

نجحنا . لذا أقول اني لا أغبط هؤلاء الذين يمرّون بالحياة مرور الغافل عن الأخطار ، أو مرور الأناني على جسر الأمان والناس من حوله يغالبون الزمان. ويتقاسمون الهموم ، ويواجهون الأنواء .

وعندما يكتب الانسان سيرته الذاتية ويقدمها للقراء انما يفعل ذلك بدافع حبه لهم لا بدافع الأثرة والغرور لأنه يأمل ان يجدوا فيها مشاطرة انسانية لأفكار ومشاعر قد تعزّيهم ، وقد تمتعهم ، وقد تفيد . وليس عمله هذا بالأمر اليسير لما يكلف من جهد، وما يتطلب من شجاعة، فان من أدلة شجاعته الصراحة أولاً ثم اقدامه على تدوين الحوادث المؤلمة التي عاناها مما يجعله يعيشها ويتأثر بها مرتين . ثم ان الكاتب الذي يهب عصارة فكره وفيض مشاعره للقراء في أبحاثه وقصصه ورواياته، الكاتب المخلص لرسالته والمؤمن بهـــا الذي عارك الحياة واغتنى بالتجارب هو انسان مدين للحياة بموهبة التعبير التي أغدقتها عليه ، وللمجتمع بما علمه، وللناس بمعطياتهم الروحية ، ولهذا يتوجّب عليه ان يسدّد الدين بتقديم ما جناه من خبرة وثمار .

ونحن بني الانسان كثيراً ما نعلل النفس بالأوهام اذ نقول : « ان حياتنا ملك لنا » وما كنا لنقول هذا لولا غريزة التملك المتأصلة فينا، ولكن الحقيقة تدفعنا ، اذا فكرنا ملياً بالأمر ، الى الاقرار بأن حياتنا ملك لنا الى حدّ ما ... فهل يستطيع أحد ان يثبت انه يملك نفسه حقاً ؛ أو انه يملك في حياته ولداً أو حبيباً أو أي شيء على الاطلاق ؟ لا أحسب ذلك ممكناً أبداً ، غير اني اعتقد ان غريزة التملك تجعل الكاتب الذي يعرض سيرته مادةً للاختبار والاعتبار ضنيناً ببعض المواقف التي عاشها ، وبعض الأحاسيس التي عرفها لأنه يعتبرها شؤوناً ذاتية ويرغب في الاحتفاظ بها لنفسه . فإذا استعرضنا الكتّاب الذين نشروا سيرهم في القديم من العصور وفي الحديث منها لا نجد واحداً قد ذكر

عن نفسه كـــل شيء لانه يودّ ان ينعـــم بقسط من الملكية الموهومة . والحرية المرجوّة ، ولو كان ضئيلاً

لقد حرصت على تسجيل فصول (عنبر ورماد) بغاية الصدق والاخلاص اللذين لا قيمة لأثر يتجاوزهما ، ولا لانسان يتجرّد منهما، وأعترف بأن الشجون هاجتني ، والحماسة ألهبتني في بعض المواقف العائلية والقومية ، وذلك لأني استجبت الى نداء الطبع ، ونداء المبادىء التي لُقنتها طفلةً ، واحترمتها شابةً وكهلة . كما أني أرغب بالاعتذار اذا كنت قد أطلت الحديث عن نفسي وعن اللائذين بي ، وأولهم أبي المغفور له لطفي الحفار الذي رباني وعلمني ، وطوّق عنقي بأفضاله ومآثره، فقد كان رجلاً كبيراً ونبيلاً أحببته حباً جماً ، وربما يشفع لي أني وجدت من واجب برّي به ان أوفيه بعض حقه في هذا الكتاب .

ويتضمن كتابي وصفاً للرحلات التي قمت بها في حياتي ، وللبلاد التي زرتها أو أقمت فيها اذ أتيح لي خلال السنين الخالية ان أتعرف على بـــلاد شرقية وغربية متعددة ، دانية وقاصية . فقد جلت في بعضها جولة السائح المتروّي ، وزرت بعضها الآخر وحاضرت فيه تلبية لدعوات خاصة ، كمـــا أني أقمت في كل من الأرجنتين واسبانيا بضع سنوات حيث كان زوجي سفيراً لسورية في كل منهما ، فعرفتهما عن كثب بعد ان تعلمت اللغة الاسبانية . والسفر ، كما كتب أبي في مذكرته الشخصية، قد سُمّي سفراً لأنه يسفر عن عظمة الكون ، وقدرة الخالق ، وحضارة الانسان وخلقه وطبعه، ولا ريب في ان الآثار التاريخية والتيارات الفكرية التي نطلع عليها في أسفارنا، والمنجزات العلمية والفنية التي ننتشي بروعتهـــا وعبيرها تضفي علينا قوة روحية ، وتشحذ فكرنا ، وتبهج نفسنا . وختاماً أود ان اشير الى ان الرحلات ترشدنا

لتحرّي حقيقة ذواتنا وحقيقة الوجود بما تتيح لنا من مشاهدات ومقابلات تدفعنا الى المقارنة والتأمل . والأفراد في هذا الصدد كالأمم تماماً لا تستطيع ان تعرف نفسها وأن تقيّمها الا اذا وازنتها بغيرها ، وهذا ما يهديها الى سبل التقدم لتحقيق المزيد من الرقيّ والنجاح .

وعسى ان أكون قد وُفّقت الى بلوغ الغاية المرجوّة من سرد هذه الذكريات التي أهديها الى مدينتي الأثيرة دمشق آملة من الذين سيقرؤونها أن يجدوا فيها لوحة واضحة لأشخاص أحببتهم وأحداث عشتها . فالأشخاص الذين نحبّهم بعمق وكذلك الأحداث التي نعيشها بعمق يبقى أثرها حيّاً في ذواتنا ما دامت الحياة ، كالشعلة التي تنير الدرب وتدفىء القلب حتى بعد انطفائها ، وكثيراً كثيراً ما تفوح من رمادها رائحة العنبر !

سلمى الحفار الكزبري

دمشق ــ كانون الثاني ١٩٧٠

طفولة منفيّة

ولدت فجر الاثنين في غرّة ايار سنة ١٩٢٢ م . وفق الرابع من رمضان سنة ١٣٤٠ ه ، فابتهج ابواي وجدتاي والمقربون من الاهل الذين حضروا ولادتي مستبشرين بها بينما دوّى صوتي الحادّ بالصراخ، أو بما يشبه البكاء ، تعبيراً عن الخوف والاستغراب . ولا عجب ان كان الوليد يستقبل الحياة بخوف واستغراب لأن أول جرح ينتظره قصّ المشيمة ، وأول قيد يفرض عليه ربط السرّة، والأسر بالاحزمة واللباس ، ألم يقل أحد الحكماء: « يأتي الانسان الى الدنيا باكياً في موكب من الابتسامات، ويغادرها باسماً في موكب من الدموع » ؟

لقد فرحت اسرتي بقدومي فرحاً كبيراً اذ كانت قد وُلدت لأبويّ بنتان قبلي لم تُكتب لهما الحياة، ولهذا أسمياني (سلمى) تيمناً بالسلامة وتفاؤلاً بطول العمر، ولكن أنّى لي ان اسلم من المكاره أو ان أسلم من الألم وأنا مخلوق كسائر المخلوقات التي ُقدّر لها ان تتألم وتحزن أكثر مما قُدّر لها ان تسعد وتفرح خلال ضيافتها على وجه الأرض ! كانت جدتي لأمي ، رحمها الله ، أحرص من في الاسرة ، بعد ابويّ ، على سلامتي، فلم تدع وسيلة لحمايتي منذ أن كنت جنيناً يتكوّن الا ولجأت اليها ، حتى إنها آمنت بصحة خرافات كانت متفشية في مجتمعنا آنئذ واهتمّت بتطبيقها اهتماماً بالغاً استنفد اوقاتها ، وشغل فكرها ، وكلّفها الجهد والعناء . لم تدع جدتي تميمة الا

وسعت للحصول عليها ، ولم تسمع بتقليد شعبي يهدف الى حفظ الجنين ثم الطفل الا وتذرعت به وبادرت الى تنفيذه ، من نذور وصلوات الى رُقى وصدقات ، كما انها طافت على متاجر دمشق يوماً اثر يوم تستجدي الأقمشة لصنع ثياني الاولى ، وكلّفت سبع عوانس بخياطتها جميعاً ، ولا يغيب عنك مدى المشقة التي تكبدتها للعثور على العوانس السبع ، لا لقلتهن في المجتمع بل لأن التقليد كان يتطلب ان يكون اسم كل واحدة منهن فاطمة ! ثم جالت جدتي على أربعين تاجراً اسم كل واحد منهم (محمد) تستجدي النقود الفضية ، فلما فرغت من مهمتها الشاقة ختمت جولاتها باللجوء الى تاجر اسمه محمود للغرض ذاته ، وأخيراً كلّفت صائغاً بصنع ما يسمّونه (المحمّدية) ودفعت مبلغ المال الذي تجمّع لديها ثمناً لها . والمحمدية هذه قطعة من الفضة بيضاوية نُقشت الاسماء الحسنى على وجهها الأول ، وآية الكرسيّ على وجهها الثاني ، أي انها تميمة علقتها جدتي على كتفي اليمنى منذ ان رأت عيناي النور . كما انهـا هيأت قضيب الميس (والميس شجر كبير له حب أسود حلو كانوا يتخذون خشبه للرحال) اذ ارسلت رجلاً صالحاً لقطعه وربطت طرفيه وهو طري فجعلت منه دائرة أرسلتها الى مسجد الشيخ محيي الدين العربي حيث ظلت محفوظة على منبر الخطيب ثلاثة اسابيع . تباركت حلقة الميس في المسجد بمـا ألقي فيه من صلوات وأدعية قبل ولادتي ، ثم حملتها الجدة وقت المخاض وسلمتها للقابلة ساعة استقبالي وأوصتها ان تنفذ التعليمات... كان ضرورياً ان اجتاز حلقة الميس قبل ان امسّ الارض وألبس الثياب وأدخل معترك الحياة تيمّناً وتبرّكاً ! وهكذا نرى ان قصة ولادتي وطفولتي الاولى قصة طريفة تعكس صور حياة اجتماعية قديمة ، تبدّدت اليوم أكثر تقاليدها ومعالمها ، غير اني سجلت بعضها في قصة (غرام الجدة) المنشورة في كتابي (زوايا) .

يبدو اني تكلمت في سن مبكرة ، واني كنت احفظ ما أُلقَّنه بسرعة واتقان ، شأني في ذلك شأن الابكار الذين يكسبون مزيداً من العناية بفضل قدومهم قبل اخوتهم . وعندما بلغت السنة الثالثة رزق أبواي بنتاً ثانية اسمياها أميمة ، وكانت حسب صورة لها محفوظة لدينا ، آية في الجمال ، غير ان المنيّة اختطفتها وهي في مطلع عامها الثاني . كان أبي منفياً يومئذ ، ولنفيه ورفاقه اعضاء وزارة الداماد قصة قومية لا بد لي من ذكرها لارتباطها الوثيق بتاريخ النضال الوطني في سورية من جهة، وبطفولتي ونشأتي من جهة ثانية .
اشتهرت أسرة أبي بتعاطي التجارة منذ زمن بعيد، وكان جدّي لأبي معروفاً في الاوساط التجارية بالتوفيق والاستقامة وحب الخير ، ولكن والدي ابتعد عن ميدان عمل أبيه واخوته الستّة لانصرافه الى العمل السياسي والنضال الوطني فشبّ على التفاني بخدمة القضية العربية . كان أبي واسع الاطلاع على أمور الدين والتاريخ والاقتصاد واللغة ، وعلماً من أعلام الحرية والاستقلال مما جعله عرضة في حياته كلها لمخاطر وصعاب كثيرة بسبب مناوأة الحكم العثماني ثم سلطات الانتداب الفرنسي لرواد النهضة العربية . تألفت في سورية عام ١٩٢٦ حكومة برئاسة الداماد بعد انقضاء عام على الثورة السورية اشترك فيها الوطنيون امثال : فارس الخوري، حسني البرازي وأبي ؛ ولكنهم اصطدموا مع سلطات الانتداب بعد شهرين من توليهم الحكم اصطداماً عنيفاً استقالوا في اثره فكان ردّ سلطات الانتداب اعتقالهم فجأة وسوقهم في الليل الى مكان مجهول . وبعد أيام عصيبة قضتها اسرتنا والمدينة بأسرها في غاية القلق على الوطنيين وكان منهم بالاضافة الى أعضاء الحكومة بعض المجاهدين الاحرار أمثال السادة : سعدالله الجابري وفوزي الغزي واديب الصفدي وبدر الدين الصفدي ، انتشر نبأ وجودهم في (الحسجة) في شمال سورية . وقد صدر يومئذ امر عسكري بنفيهم من العاصمة لشلّ نضالهم وارهاب

السوريين لكي يكفوا عن المقاومة والمطالبة بحقوق البلاد ... جرى كل ذلك في فصل الصيف فعانوا ما عانوه من وطأة الحر وأذى الحشرات وضنك العيش في الصحراء الملتهبة ، في ظرف من أشد الظروف توتّراً ، وفي مكان ناءٍ لا ظلّ فيه ولا ماء . وبانتهاء الصيف آثر الفرنسيون نقلهم الى احدى قرى لبنان الشمالي بغية ابعادهم عن زعماء العشائر الذين كانوا يفدون عليهم في الحسجة باستمرار لتقديم الخدمات وللوقوف على ارشاداتهم الحكيمة ضماناً لتنظيم العمل الوطني في البلاد . وبعد وصول أبي ورفاقه الى (أميون) القرية الوادعة في منطقة الكورة (في شمالي لبنان) التي استقبلتهم بالتكريم والترحاب ، صدرت الأوامر العليا بالسماح لعائلاتهم بالانضمام اليهم ، وهكذا عرفتُ لبنان في طفولتي ، وقضيت في هضابه الجميلة بالقرب من طرابلس أكثر من عام . كنت آنئذ شغل المنفيين الشاغل وسلواهم الكبرى لكوني الطفلة الوحيدة معهم ، فعلموني القراءة والكتابة والاناشيد الأولى، ثم القصائد الوطنية ، على صغر سني ، اذ كنت في الخامسة من العمر . كنت طفلة جريئة منطلقة اللسان ، لا أهاب مجلس الكبار بل أبحث عنه وأستمتع به لحرماني يومئذ من اخوة أو رفاق ألهو معهم وآنس بصحبتهم . أذكر ، أو يخيّل لي أني أذكر ، كيف كنت ألقي القصائد التي تعلمتها بحماسة على الوفود التي كانت تأتي الى أميون باستمرار لتحية الزعماء المنفيين ، فكنت أقف على مائـــدة وسط الجموع وأنشد بعض الأبيات من رائعة شوقي التي لقنني اياها كل من والدي وصديقه الزعيم العلامة فارس الخوري :

سلام من صَبا بردى ارقّ ... ودمع لا يكفكف يا دمشـــق
وذكرى عن خواطرها لقلبي ... اليك تلفّت ابداً وخفق
وبي ممـــا رمتك به الليـــالي ... جراحات لها في القلب عمق

وللأوطان في دم كل حــرّ يد سلفت ودين مستحق
وللحريــة الحمــراء باب بكل يد مضرّجــة يدق
جزاكم ذو الجلال بني دمشق وعز الشرق أوله دمشق !

فكم حادثة من أحــداث طفولتنا تراود خاطرنا وأحلامنا بصورة مبهمة غير اننا نذكرها بوضوح عندما نتقدم في السن لكثرة ما يرددها أهلنا عــلى مسامعنا ! وأذكر كذلك مسابقات العدو التي كنت أفوز فيها دائماً وأنتصر على والدي واخوانه الذين كانوا يعجزون ، بل يتعاجزون ، عن بلوغ الهدف المعيّن، لكي أظفر بالفاكهة والحلوى، فكنت ألتهمهما بنهم أيقظه السرور ، ورنين ضحكاتي البريئة وقهقهاتهم يتعالى في الفضاء فيرجِّع الوادي صداه بعيداً ، عميقاً ... وما زلت أذكر ليلةً سمعت فيها أهلي وأصدقاءهم يسمرون ويضحكون ، فتمارضت وشكوت من ألمٍ في معدتي تهرّباً من النوم المبكر الذي عودتني اياه أمي ... لقد حملتهم على الاهتمام بي واخراجي من السرير ، واسرعت أمي في تهيئة فنجانٍ من البابونج الذي كنت أكرهه ، بيد أني شربته على مضض تخلصاً من النوم وطمعاً في مشاركتهم السهر . وعندما أرقت في الليلة التالية لجأت الى الحيلة ذاتهــا ولكن السر كان قد انكشف فنلت نصيباً وافراً من التأنيب على هذا المكر والخداع ...

* * *

كل فتاة بأبيها معجبة

ظلّ معشر من هم أكبر مني سناً يستهويني ويلذ لي في مختلف مراحل عمري ، وقد ساعدت ظروف حياتي في تنمية ميل فطري للنضج المبكّر ، وأتاحت لي الفرصة تلو الفرصة للعيش مع الناضجين والاستمتاع بصحبتهم ، حتّى انه ندر حقاً ان صاحبت رفيقة في مثل سني طوال عهد الطفولة . فالبيئة التي نشأت فيها وترعرعت طفلةً ثم مراهقةً ثم شابة فرضت عليّ وعياً خاصاً . وتفتحاً مبكراً ، لعدة عوامل منها كوني الفتاة المنطلقة التي تزجّ بنفسها في مجالس المسنين ، ومنها تعلق جدتي لأمي بي وصحبتنا المتواصلة تقريباً . كما ان بيتنا كان بيت رجل سياسي تُعقد فيه اجتماعات الوطنيين ، مما جعلني ألتقي بهم واحضر جلساتهم واحظى باهتمامهم بي الى ان اصبحت شابة ، فأنّى لي بعد ذلك أن أحيا حياة الأطفال الطبيعية التي تدعوهم للهو ، وتجنّبهم التنبه للمشكلات التي لا يعانيها الا الآباء ؟

بعد انقضاء اربعة عشر شهراً على نفي أبي وزملائه في أميون صدر أمر بتركهم أحراراً في لبنان ، فاستأجروا دوراً متواضعة لسكناهم في بيروت ، ورجعنا أمي وأنا الى دمشق لأنها كانت حاملاً على وشك الولادة . وضعت أمي بنتاً في تشرين الأول سنة ١٩٢٧ هي أختي لميس . وبعد حين قفلت عائدة الى المنفى الجديد في بيروت بصحبة ثلاث بنات هن أختي الكبيرة الهام التي بلغت عامها التاسع وانضمّت الينا ، والوليدة الجديدة لميس وأنا . أما اختي

الهام فقد رُزق بها أبي من زوجٍ له غير أمي ولكنهما تفارقا بعد ولادتها . وبانتهاء سني الحضانة التي قضتها مع والدتها انضمت الينا حيث ربينا كالاخوة الأشقاء على مدى الايام .

وفي أوائل سنة ١٩٢٨ صدر أمر عسكري بالافراج عن المنفيين فعدنا الى دمشق حيث أُعدّت لأبي ورفاقه استقبالات شعبية كبيرة استأنفوا بعدها الكفاح من اجل استقلال سورية ، ثم جرت في دمشق انتخابات الجمعية التأسيسية فانتُخب عضواً فيها ، وكان في الوقت ذاته منصرفاً للعمل على تنفيذ مشروع حيويّ هام باشر به منذ سنة ١٩٢٢ وهومشروع جرّ مياه عين الفيجة الى دمشق . ان هذا المشروع أعظم عمل قام به أبي بمساعدة بعض الوطنيين وعدد من الخبراء الفنيين لأنه استطاع ان يجعله مشروعاً وطنياً صرفاً على الرغم من العقبات التي واجهته من قبل سلطات الانتداب وبعض الشركات الفرنسية التي بذلت جهداً كبيراً لحمله على التخلي عنه ، ولأنه انقذ سكان دمشق من الأمراض السارية التي كانت تنجم عن شرب مياه الأنهر الموبوءة بالجراثيم . لقد ناضل أبي في سبيل تحقيق مشروعه بصبر وشجاعة فتخطى العقبات جميعاً وقدّم لمدينة دمشق التي كان يتعشقها ولأبنائها خدمة جليلة ، لا سيما وان اسالة مياه الفيجة فيها كانت السبب الرئيسي في توسيعها ، وازدهار عمرانها ، وحمايتها من الأمراض . وتجميلها . ان أكبر مزية لهذا العمل الجبار الذي تحقق سنة ١٩٣٢ اثر سنوات طويلة من العمل المتواصل انه ارتكز آنئذ على افضل الأسس فنياً واقتصادياً وذلك لحرص القائمين عليه (وهم نخبة من أهالي دمشق بينهم ممثلون عن غرفة التجارة والبلدية ووزارة المالية أمثال السادة عارف الحلبوني وفارس الخوري ويحي الصواف وعطا العظمة وانطون السيوفي) على جعل مياه الفيجة ملكاً لسكان دمشق انفسهم ، أي لقطع الطريق على كل استثمار

واستغلال لدى تحقيق أول مشروع وطني تعاوني في سورية . وقد ظل أبي مراقباً عامّاً له حتى سنة ١٩٥٨ فشيّد لمكاتب المؤسسة بناء جميلاً على الطراز العربي سنة ١٩٤٠ ، وكان عازماً على بناء دار للكتب (مكتبة وطنية) بالوفر الذي تجمع في خزينة الشركة سنة ١٩٥٨ وذلك خدمة للعلم وانقاذاً للمكتبة الظاهرية ، ولكنه اضطُر الى الاستقالة في ذلك العام لأسباب سياسية . فقد كان نظام المشروع ينصّ على ان تُنفق أرباحه على خدمة العاصمة وتجميلها . وهل من خدمة أجل شأناً من انقاذ كنوز المكتبة الظاهرية (مخطوطاتها وكتبها النفيسة) من الرطوبة في مبناها العتيق ونقلها الى بناء حديث لحمايتها ووضعها في متناول القراء ؟

ولا ريب في أن من أهم صفات أبي ، رحمه الله ، حبه للعلم ، وحرصه على انتشاره، وتقديره للعلماء، فقد كان الحافز على صدور مؤلفات قيمة عديدة في سورية ، تاريخية واقتصادية واجتماعية ، أذكر منها كتاب (رحلة الى آثار آفاميا) للاستاذ وصفي زكريا ، وكتاب (خطط الشام) النفيس للعلامة محمد كرد علي في أجزائه الستة . فلقد ترأس أبي لجنة عملت على طبع (خطط الشام) كانت مؤلفة من السادة فوزي الغزي ، والشاعر خليل مردم بك ، وفخري البارودي ، وسامي العظم ، وبدر الداغستاني ، وتولى بنفسه تنظيم الطباعة والتوزيع وبيع الأجزاء بجمع الاشتراكات في البلاد العربية اعتباراً من صدور الجزء الأول سنة ١٩٢٥ ، حتى ان جميع أجزاء الطبعة الأولى من (خطط الشام) تحمل على غلافها بيانات من تلك اللجنة موقعة بأسماء أعضائها .

أراني مدفوعة ، وأنا في معرض التحدث عن ذكريات طفولتي ، الى ذكر مآثر أبي التي عرفها بعض الناس وسجلوها له باعجاب ، تلك المآثر من خدمات وطنية وثقافية فتحت عيني عليها وبصيرتي مذ وعيت الحياة ، فكيف

يمكنني التغاضي عن ذكرها وقد أثرت في نفسي وفي تكويني أبلغ تأثير ؟ وهل يجوز لفرع ان ينكر أصله ، أو ان يهتدي بغير هديه اذا كان ذلك الاصل معين خير ومشعل نور ؟ يقول المثل العربي القديم : (كل فتاة بأبيها معجبة) فانه قول صحيح ينطبق على الكثيرات وعليّ كذلك لأني شببت على الاعجاب العميق بأبي والاعتزاز به ، بوطنيته المتجردة عن كل غاية ، وبخلقه الرفيع في البيت وفي المجتمع ، وبعلمه وانسانيته ، اذ كان رجلاً شجاعاً كما ينبغي ان تكون الرجال في عمله ومواقفه الوطنية ، وكان أباً رقيق القلب ، يهيم ببيته وذويه ، ويخلص لأصدقائه ويغار عليهم . عشت في كنفه فتألمت منذ طفولتي لآلامه وفرحت لمسراته ، وشاطرني أفراحي وأحزاني ومشاعري حتى ان شدة تعلّقه بي وولعي به كانت أمراً معروفاً في محيطنا يسترعي الانتباه ، فهل أكون مغالية اذا ذكرت مناقبه التي آنست فيها الوحي والهداية ، واتخذتها مثلاً أعلى للأب العطوف الواعي ، والمربّي الفاضل ، والعربي الأبيّ ؟

ولنعد الآن الى البيت الذي ولدت فيه ونشأت ، الى دارنا القديمة الحلوة في حيّ الشاغور ، فقد عدنا اليها من المنفى وعشنا مع عدّة أعمام تزوّجوا فيها وانجبوا ، وذلك بجوار سبع عمات طيبات كان لهن فضل كبير في رعايتنا دائماً أبداً . فأرسلني أبواي الى دار حاجتّين من حيّنا (دار آل مدور) هما الحاجة عائشة والحاجة فاطمة ، رحمهمـــا الله ، لكي نتعلم القراءة والكتابة والقرآن . فقد كانتا تستقبلان الفتيات لتعليمهن اللغة وأمور الدين ومن ثم لتحفيظهن القرآن ، لذا ترددت عليهما بانتظام خلال عامين كاملين حيث حفظت سوراً عديدة منه عن ظهر قلب وختمته بانتهاء السنة الثانية . عندئذ نقلني أبي الى مدرسة حكومية صغيرة (مدرسة الشنباشية) التي كانت تقع في منطقة (سبع طوالع) . وكانت أمي قد رُزقت بنتاً جديدة سُمّيت

سهلة واستُقبلت في الأسرة بالبشر والترحاب مع انها كانت السادسة بين اللواتي ولدتهن أمي ... صحيح ان عدد البنات أخذ يتزايد غير اني بقيت المفضلة لدى جدتي لأمي اذ كنت أول حفيدة لها ، والرفيقة الصغيرة التي تبادلها حباً بحب ، وهياماً بهيام ، فقد كانت جدتي تنتحل مختلف الأعذار لزيارتنا حتى تراني ، منها قولها لأهل أبي انها نزلت من حي الصالحية الى السوق فوجدت نفسها قريبة من بيتنا ومدفوعة لقرع بابه قرع أولاد الحلال ... كانت جدتي متعلمة تقرأ وتكتب وتحفظ الشعر وهذا أمر غريب يستحق التسجيل نسبة الى حرمان معاصراتها يومئذ من التعليم ، غير ان السبب في ذلك يعود الى كونها سليلة بيت علم وفضل . فهي ابنة الشيخ أديب العطار وحفيدة العالم الكبير الشيخ بكري العطار . وكانت أفضل جدة في نظري لا لما غمرتنا به من حدب وحسن رعاية فحسب ، بل لما فُطرت عليه من مزايا خلقية وروحية كبيرة جعلتها مدار اعجاب الذين عرفوها وسعوا دائماً للتقرب منها واتفقوا على حبها واحترامها . رافقتنا الجدة إلى المنفى وبعض الرحلات ، ومكثت في دارنا إبان المحن والهزات التي عكرت صفو حياتنا العائلية أكثر من مرة بسبب اضطهاد سلطات الانتداب لأبي ولكل مناضل سياسي في ذلك العهد . ولجدتي فضل كبير ، بعد أبي ، في تشجيعي على العلم وغرس بذور الطموح في نفسي لأنها غذّت فكري وخيالي بأجمل الحكايات وأبلغ العبر وأطرف الأحاديث ، فاستلهمت منها ، وهي الراوية الفنانة ، بعض قصصي ، وأهديت إليها كتاب (زوايا) ، وافتقدت بفقدها سنة ١٩٥٧ انساناً أثيراً لديّ ، وعزيزاً لا عوض له في حياتي . كانت جدتي قوية الايمان ، مطبوعة على التفاؤل ، مرحة ، طليّة الحديث ، خبيرة بالنفس الانسانية ، وقد حنكتها التجارب وحبتها الطبيعة ذكاء عظيماً ، وكانت طويلة القامة ، ممتلئة الجسم ، جميلة الوجه ، كريمةً الى أبعد حدود الكرم ، تشعر مع البائس والفقير ، وتحيط إكرامها

لهما بالكتمان الشديد . أحبّها الكبار والصغار ، الشيوخ والشباب ، وكنت أجد في مجلسها صحبة حلوة منذ سني طفولتي الأولى ، وسعادة كبرى لعل من أهم أسبابها ان الجدة كانت شديدة الاهتمام بي ، وحريصة على تلبية رغباتي جميعاً ، وهذا ما يرضي أنانية كل طفل ويدخل السرور على قلبه . كنت أقضي في حماها أياماً وأسابيع بعد رجوعنا من المنفى ، في دارها ذات الطراز الشامي الجميل في حيّ الصالحية ، فألقى منها ومن أخوالي وخالاتي الدلال والحفاوة مما كان ينسيني أبويّ واخوتي ، ويدعوني الى الكدر اذا ما انتهت الزيارة واضطُررت للعودة الى الشاغور .

قبل الانتقال الى الحديث عن مرحلة المراهقة أودّ ان أسجل حادثتين طريفتين أثرتا في نفسي وما زلت أحفظ لهما ذكرى جميلة . كنت في طفولتي أحب امرأة قروية ذكية جداً من (دير عطية) في قضاء القلمون تُدعى (مريم الحلبية) ولم أعلم حتى اليوم لماذا تُلقب بالحلبية وجّه الله لها الخير أينما كانت ، ومريم هذه كانت تتردّد على بيتنا باستمرار لمساعدة أمي والاسرة في الأعمال المنزلية ، ولتفقّد قريبة لها كانت تعيش معنا للغرض ذاته . تعلّقت بها ذات مساء عندما همّت بالانصراف الى بيتها فسمحت لي أمي بمرافقتها على ان تعيدني الى الدار وقت العشاء ، فأمسكت بيدها جذلة ، وكنت أقفز على الارض قفزاً من شدة فرحي ، وبعد قليل دخلنا داراً واسعة في أواخر حيّنا ، ذات فناء رحب يعجّ بالنساء والاطفال . حيّت مريم النساء المنتشرات في فسحة الدار ثم اتجهت الى غرفتها الكبيرة النظيفة وهي تضغط على يدي الصغيرة وأعطتني من صندوقها ملء قبضة يديّ « ملبساً » و « قضامة » . فملأت الجيوب والفم بالحلو والمالح معاً ... كنت يومئذ في السابعة من العمر فخرجت الى الفناء حيث لعبت مع الأطفال الى ان جذبتني رائحة ذكية عبق

بها الجوّ وكانت تنبعث من حلّة كبيرة وضعتها مريم على الموقدة بعد وصولنا. وكانت قد اشعلت النار في الهواء الطلق قريبة لمريم تقطن في تلك الدار مع القاطنين فيها الذين اختص كل منهم بغرفة من عديد غرفها. سألت مريم عمّا يوجد في الحلّة فأجابتني وقد أدنتني منها وكشفت عنها الغطاء:

– انظري ما فيها يا سلومة، فيها عشاؤنا الطيب وسوف تأكلين معنا «المجدّرة» بعد ان تنضج، هل تحبين «المجدّرة»؟

وأذكر ان لعابي قد سال ساعة شممت رائحة العدس التي فاحت من البخار المتصاعد من الحلة، وأني جلست بالقرب منها على كرسي صغير مسرورة أراقب حركات مريم السريعة الخفيفة وهي تضيف الى الاعواد المشتعلة أعواداً جديدة، أو تدخل الى غرفتها وتخرج منها منهمكة باعداد صينية العشاء والطبخة الشهية التي كانت تحركها احياناً بملعقة خشبية ذات يد طويلة جداً. وكأني الآن وأنا أكتب هذه السطور أشم رائحة العدس والبرغل والبصل المقلي بالزيت، تلك الرائحة الطيبة للون من الطعام الشعبي اللذيذ الذي ما زلت أوثره على كثير من ألوان طعامنا الشرقي الدسم. أذكر أني أكلت من طبق مريم الفاخر يومئذ ضعف ما كنت أتناول عادةً من الطعام، واني رجعت الى بيتنا سعيدة لأخبر أمي بأني لن أتعشى بعد ذلك في الدار أبداً لأني اتفقت مع العزيزة مريم على تبادل وجبة الطعام معها مرة في اليوم، اي على ان تتناول عشائي وأتناول عشاءها وكثيراً ما كنت أتعلق بثيابها وأحنّ الى العودة الى بيتها في الامسيات لأنها امرأة كريمة ومحبة، وقد رُزقت عدة بنات وأسمت احداهن (سلمى) لشدة ولعها بي

أما الحادثة الثانية فانها على اختلافها عن الأولى ما زالت ماثلة في مخيلتي

لانها غمرتني بالسعادة وتركت في نفسي نكهة ذكية . كان رفاق أبي أعضاء الكتلة الوطنية في ضيافته على وليمة غداء اعدّها تكريماً للزعيم الكبير ابراهيم هنانو في يوم من ايام سنة ١٩٢٩ ، وكنت كالعادة اتجوّل بين المدعوين ، وأجيب على أسئلتهم ، ثم أركن الى حجر أحدهم لأصغي الى خطاب بليغ او حديث هام باعجاب واهتمام مع اني لم أكن أقدّر يومئذ بلاغة الخطب ولا فحوى الأحاديث . وكان ضيوف ابي مدعوين في ذلك اليوم لتناول الشاي في دار المجاهد الكبير الزعيم فخري البارودي ، ولا أدري لماذا فكر ، رحمه الله ، باصطحابي الى داره ، غير اني أذكر اني امتطيت معه عربة خيل جميلة كانت تنتظر المدعوين مع عربات كثيرة في سوق الصوف ، واني فرحت كثيراً بتلك النزهة . وما ان التأم شملهم في دارة آل البارودي الكبيرة حتى نهض صاحبها ورحّب بالزعيم هنانو ، فصفقتُ مع المُصفقين ، وبعد ان ردّ المحتفى به بخطاب طويل (او بالأحرى بكلمة بدت لي طويلة) همس الزعيم البارودي في أذني بضع كلمات دعاني فيها لالقاء بيتين من الشعر كان قد سمعهما مني في السابق ، فاستجبت ونهضت ثم أنشدت بما عُرفت به من جرأة وحماسة :

لو تعلم الدار من قد زارها فرحت ... واستبشرت ثم باست موطىء القدم
وأنشدت بلسان الحـــال قائــلة ... أهلاً وسهلاً بأهل الفضل والكرم !

فوجىء أبي بوجودي في مكان لا مكان لي فيه ، وخشي ان تكون أمي قد افتقدتني وانشغل بالها ، فأوعز الى احدهم بمرافقتي الى البيت في الحال حيث كانت أمي المسكينة في غاية القلق تبحث عني ولا تجدني ، وبديهي انه لم يخطر على بالها اني حضرت اجتماعاً سياسياً تاريخياً وكنت في عداد خطبائه ... لقد استقبلتني بدموع الفرح ثم لقنتني درساً قاسياً علمني ألا أرافق أحداً خارج الدار الا بعد الاستئذان منها ، وقليلاً ما كانت تأذن لي بذلك !

التلميذة المشاغبة

عشت في سنّ المراهقة مرحلة من العمر مليئة بالذكريات الصاخبة سيطر فيها القلق على الهدوء ، والتمرّد على الخضوع ، وهذا ما يحدث عادة للكثيرين من المراهقين في مرحلة دقيقة وهامة من العمر يعتبرها علماء النفس حجر الزاوية في تكوين الشخصية . شببت على الاستقلال بالرأي ، والجنوح الى التحرّر من القيود ، لا التحرّر من القيم ، وكنت أشكو من قسوة أمي في معاملتي ، مع ان تلك القسوة التي كنت أضيق بها وأتذمّر منها ما كانت في الواقع سوى حرص شديد منها على سلامتي من كل سوء ، لا سيما وان أبي كان ليّناً ، مسايراً ولطيفاً معنا ، ان لم أقل ضعيفاً تجاهنا ، وهذا ما جعلني أطمع بتفهّمه لمشكلاتي وأجد لديه العطف والانصاف كلما أرهق روحي ضغط ، أو لحقت بي ظلامة في البيت أو في المدرسة . واعتقد اليوم انه كان لا بدّ لأمي ، والحالة هذه ، من حفظ التوازن ، أي من اتخاذ موقف الصارم الساهر على تقويم كل اعوجاج ، فكانت ، حفظها الله ، تقلّم أظفاري حيناً ، وتقصّ الزائد من أجنحتي أحياناً ... ولا ريب في ان تحسّس الامهات الواعيات بالمسؤولية يرغمهن على التقنّع بالقسوة لمصلحة أولادهن ، ويحرمهن بالتالي من اظهار عاطفة الأمومة الجياشة عندما يتجاوز الأولاد أول سني الطفولة ، وهذا ما يدعوني لغبطة الآباء الذين تجنّبهم أعمالهم خارج المنزل مشقة التربية والتوجيه والاصلاح كل يوم وكل ساعة ، فان وجودهم مع الأولاد لفترات قصيرة يمنحهم الفرصة للاستمتاع بهم ولاغداق عواطفهم عليهم كما يشتهون .

انتقلنا من محيط الشاغور الضيق الى محيط واسع جديد في الصالحية حيث سكنّا شارع نوري باشا عدة سنين ، فانتقلت من مدرسة السبع طوالع الابتدائية الصغيرة الى مدرسة دوحة الأدب أولاً ، ثم انتسبت الى معهد راهبات الفرنسيسكان . درست في هذا المعهد تسع سنوات ، فتعرفت بالعديد من الفتيات والمدرّسات ، من سوريات وفرنسيات ، وبت أميل الى التمثّل بهن وعلى الأصح باللواتي سبقنني الى التحرر والانطلاق ، ومن هنا نشب الصراع بين أمي وبيني إذ أضحت مطالبي الجديدة كثيرة ولاقت لديها معارضة شديدة أكثر الأحيان . كنت أوثر مصاحبة رفيقات يتقدّمنني في السن وفي الدراسة وأشتهي مثلاً مرافقتهن الى النزهة ، أو السينما ، وارغب في تلبية دعواتهن الى حفلات كن يقمنها في دورهن ، أو في اقتباس زيّ جديد عنهن أعجبني ، ولكن أمي كانت تجد لكلّ طلب أو رغبة علّة ، وتقول لي بشدّة :

– نحن لا نقلد أحداً يا بنتي ، ولا نستطيع ان نفعل ما يفعل الآخرون . اعلمي جيداً اننا من اسرة محافظة وان بناتنا يتعلمن في المدرسة ويصاحبن الزميلات ضمن جدرانها فحسب ، أما الحفلات المنزلية ، والنزهات المنفردة ، وارتياد دور السينما ، وارتداء الأزياء الغربية المستهجنة فانها أمور تتنافى مع تقاليدنا ومبادئنا ، لذا لن نتهاون بالسماح لك ولأخواتك بها ...

وكان عليّ ان أفهم وان أطيع ، والا أحاول تكرار الطلب أو المناقشة في موضوعه ! وعلى الرغم من حبي الكبير لأمي التي ألهمتني أول قصيدة كتبتها بالفرنسية وأهديتها اليها ، كنت أشكو تصلّبها بالرأي وحدّة طبعها لكل من جدتي وأبي ، ومع ذلك كانت كلمتها هي النافذة ، ولم أكن اجد مندوحة من الطاعة لقد لجأت الى الوسائل الديبلوماسية أكثر من مرة وذلك بانتهاز ساعة صفاء للتمهيد لمطلب جديد أملاً بالفوز بالموافقة عليه ،

فرجوتها ذات يوم ان تسمح لي بالذهاب الى السينما لمشاهدة شريط موسيقي عن شوبان سمعت عنه من رفيقاتي وصفاً مغرياً ، وقلت لها إني أرغب كثيراً في مشاهدته يوم العطلة مع من تختار لمرافقتي ، فرفضت رفضاً باتاً ، وبعد أخذ ورد ، وبكاء واستعطاف ، وعدت ان تسمح لي بالذهاب الى السينما بشرط ان أصبح الأولى في الصف . كان عرض الشريط عن حياة شوبان قد أوشك على الانتهاء ، ولكني ضاعفت اجتهادي لكي أحقق امنيتي بالذهاب الى السينما ولو مرة واحدة ، وفرضتُ على نفسي نظاماً قاسياً في الصف لأني كنت ثرثارة أعلق على الكبيرة والصغيرة ، وأضحك كثيراً وأُضحك زميلاتي مما كان يغيظ المعلمات ويدفعهن لاعطائي أسوأ العلامات في (الأدب) و (السلوك) وهذا ما كان يخفض معدلي العام كثيراً ويصنفني الثانية أو الثالثة في صفي لأني كنت مجتهدة في الدروس جميعاً . اذكر اني ضغطت على لساني في ذلك الشهر وفزت بالمرتبة الأولى فطرت الى أمي وأبي أبشرهما بالنتائج الطيبة ، ولكنهما ارتأيا (بعد المذاكرة) تأجيل الوفاء بالوعد ريثما يُعرض شريط لائق في موضوعه واخراجه يصحّ ان أشاهده بصحبة احدى القريبات المسنات ... وتوالت الأشهر وتعاقبت السنون قبل ان تتحقق امنيتي ، فأنا من اللواتي لم يعرفن ما هي السينما إلا بعد تجاوز سن السادسة عشرة ! وعندما أفكر الآن في سبب مشاغبتي في المدرسة أرجّح ان خضوعي في البيت لرقابة صارمة ، واضطراري بالتالي لكبح جماح الروح فيه قد دفعاني لاطلاق العنان لنفسي في المدرسة ، مما صنفني بين الفتيات الطائشات أو بالاحرى المشاغبات ... ولا بد من الاعتراف بأني كنت حادة الطبع ، كثيرة الحركة ، دقيقة الملاحظة ، مستعدة للاجابة على كل سؤال تقريباً ، ومزوّدة بأسئلة كثيرة متنوعة ، منها المعقول ومنها المحرج ، وهذا ما جعل مدرساتي متفقات على معاقبتي بشدة لردعي عن المشاغبة ، مع انهن كن يعطفن عليّ ويهتممن بي اذ عبّرن لي عن ذلك

في أكثر من مناسبة ، فجزاهن الله عني كل خير ، وأجزل لهن الثواب لشدة ماكنت متعبة !

طردتني الأديبة ماري عجمي من الصف ذات مرة للأسباب التي ذكرتها ، فقد كانت استاذتنا في الأدب واللغة ، ثم رضيتْ عني بعد ان تدخل والدي بالأمر فقدمت لها اعتذاري واستأنفت معها الدروس . لقد شجعتني يومئذ على ارواء ظمأي للعلم بأرق العبارات ، وأثنت على اجتهادي وولعي بالأدب العربي ، ولكنها لم تنس التركيز على ضرورة تعقلي في الصف ونبذ الطيش ، فتأثرت بكلامها وأصبحت التلميذة المثالية لفترة جد قصيرة ... لأن الطبع قد غلب التطبع أي لأني عدت الى سابق عهدي في إشاعة الشغب ، والافراط من الكلام والسؤال اثناء الدروس ، وهذا ما أدى الى حرماني من متابعتها مع الأديبة الكبيرة ، رحمها الله ، خلال عام بأكمله ! كنت متمكنة من اللغة العربية أكثر من زميلاتي آنئذ ، لا بفضل عبقريتي ، وانما بفضل الأساس المتين الذي نلته في دراستها قبل الانتماء الى مدرسة الفرنسيسكان ، لذا أقول ان ذلك الحرمان لم يضرني كثيراً بل أفادني بشكل غير مباشر بأن هيأ لي فرصة دراسة اللغة الايطالية . كانت الراهبة (الأم كارلا) تدرس الايطالية للفرنسيات من طالبات الثانوي في مدرستنا ، فالتحقت بصفها عوضاً عن صف اللغة العربية ، وانسجمت مع اللغة الايطالية الجميلة السهلة ، مما جعلني أنال جائزة في نهاية العام الدراسي هي كتاب ايطالي جميل ما زلت أحتفظ به ، وذلك لفوزي بالدرجة الأولى في الفحص النهائي . ولا ريب في ان تأقلمي مع اللغة الايطالية قد ساعدني كثيراً فيما بعد حين تعلمت الاسبانية لأن كلتا اللغتين متقاربتان ومن أصل لاتيني واحد .

فاتني ان أذكر ان افراد اسرتنا اخذوا بالازدياد ، فقد رزقت أمي بنتاً

سابعة سنة ١٩٣٣ بعد انتقالنا من الشاغور الى الصالحية هي اختي رباب ، وبعد ثلاث سنوات انعم الله علينا بأخ طال انتظارنا لقدومه فأسماه والدي « بشراً » واستُقبل بالفرح العارم من قبل اسرتنا واصدقائها الكثيرين . كنت قد اتفقت مع جارة لنا على اعلامها بجنس المولود الجديد بأن اغني (يا عشرة الماضي) اذا كان بنتاً ، و (شرّف حبيب القلب بعد الغياب) اذا كان صبياً ، فقرعت بابها بعد ان تمّت الولادة وبشّرتها قائلة : (شرّف حبيب القلب بعد الغياب) ... بسرعة البرق وبدون غناء لكي ارجع الى دارنا التي ارتدت حلة العيد عدة أيام . لقد اشتهر ابي بحبه للبنات وبابتهاجه بولادتهن جميعاً ، ولكننا ، مهما قلنا عن استبشار بعض الآباء بولادة البنات ، لا بد لنا من الاقرار بأن فرحهم بالذكور ، في شرقنا خاصة ، يفوق ابتهاجهم بالبنات بمراحل ...

قبل ولادة أخي بشر ببضعة اشهر جرت لأبي حادثة مؤلمة تركت أثراً بليغاً في نفسي ، يوم عدت من مدرستي في أوائل سنة ٣٦ لأجده طريح الفراش يعالجه الاطباء وقد غصّت الدار بالوافدين عليها للاطمئنان عليه وتهنئته بالسلامة . كان أبي بين الذين قادوا يومئذ مظاهرة كبرى نظمتها الكتلة الوطنية احتجاجاً على الفرنسيين الذين أغلقوا مكاتبها واعتقلوا الزعيم فخري البارودي ، وكان ذلك إبان الاضراب الستيني العام الذي أوصل سورية الى المفاوضات مع فرنسا . وبينما كان المتظاهرون يجتازون ساحة محطة الحجاز تصدّت لهم قوات الأمن وفرّقتهم بعنف بعد ان تغلغل أفرادها بين صفوفهم فأصيب أبي إصابة خطيرة اذ هجم مفوّض من الشرطة على الصف الأول الذي كان يسير فيه القادة الوطنيون ورفع عصا غليظة (هراوة) كان يحملها وانهال فيها بالضرب فأصابت كتفه اليسرى ورمته على الأرض مغمى عليه . كان زملاؤه قد تفرقوا عندما شاهدوا قوات الأمن مقبلة عليهم فلم يروه على هذه الحال ، ولكن

الصديقين السيدين عادل وفوزي الحلبوني انقذاه في الوقت المناسب اذ اتفق ان كانا مارّين بسيارتهما في شارع الحجاز ساعتئذ ، فحملاه الى البيت وأتيـا بالاطباء الذين اشرفوا على معالجته مدة طويلة . لقد نجا أبي بأعجوبة من تلك الحادثة ، وبرهن عن شجاعة كبيرة لدى هجوم الشرطة لأنه ظل صامداً ، فلولا لطف الله به لأصابته الضربة في رأسه وقضت عليه ، ثم برهن فيما بعد عن كرم خلقه عندما تولى وزارة الداخلية سنة ١٩٤٣ ، ووجد المفوّض الذي ضربه في عداد موظفي الأمن فرفّعه بدلاً من ان يسرحه من الخدمة . فاحتار المسكين كيف يعتذر عما فعل وكيف يشكر ! ولكن أبي أجابه بأن لا داعي للاعتذار لأنه كان مأموراً ينفذ ما يُطلب اليه ، كما انه لا داعي للشكر على ترفيعه لأنه موظف نظامي يؤدي عمله بأمانة ويستحقّ عليه حسن التقدير .

زادتني حادثة المظاهرة التي قادها وقاد عشرات من امثالها أبي والمجاهدون من اخوانه اعجاباً بهم ، وايقنت ان على القادة ان يُعطوا المثل الأعلى في العمل المخلص ، والتضحية حتى بالنفس لكي يكونوا أهلاً للقيادة وقدوة طيبة . ان هؤلاء الرجال الذين عملوا بشجاعة وأمانة من اجل استقلال وطنهم وسهروا على مصالحه وصبروا على المكاره وثبتوا في ساحة النضال لا تلين لهم قناة خلال نصف قرن ، ان هؤلاء وامثالهم في كل مكان قد رفعوا للأجيال مشاعل الحرية والكرامة التي لا تستطيع الرياح إطفاءها مهما كانت عاتية .

* * *

صداقة مع الطبيعة والكتاب

قضينا صيف ١٩٣٧ في « ضهور الشوير » وهي بلدة جبلية من اجمل مصايف لبنان، فتعودت أن اقضي ساعتين كل صباح في حرج الصنوبر المجاور لدارنا أرقب أخي الصغير الذي كان ينام في ارجوحة معلقة بين الاشجار، دون ان اشعر بمرور الوقت لاستغراقي في القراءات الممتعة. قمنا في ذلك الصيف بجولات عديدة في مختلف مراكز الاصطياف اللبنانية، وتعرفنا بعدة اسر لبنانية ومصرية كانت تؤم تلك المنطقة الرائعة، فكنا نزور ونُزار، ونقوم برحلات قريبة ونزهات مع الوالدين والجدة ومن كان يأتي من دمشق من الأقرباء لقضاء فترة استجمام عندنا. غير ان فصل الصيف ينقضي بسرعة مذهلة في الجبال ويترك في نفوس الأولاد ذكريات جميلة لما فيه من مفاجآت سارة ونشاط اجتماعي يخرج عن المألوف، ولعل أهم ما كسبته في ذلك العام التنبّه الى الجمال في الطبيعة، والتحسّس به اينما تجلّى بفضل تعرفي على آفاق جديدة ومعاشرتي لوالديّ وأصدقائهما الذين كانوا يتحدثون باعجاب عن كل فاتن يشاهدونه من سماء تتماوج بالألوان وقت الغروب، وأحراج نضرة، الى ينبوع ماء رقراق، وقمة شامخة كصنين مكلّلة بالثلوج؛ حتى الضباب الشفاف الذي كان يجلّل القرى والجبال أحياناً أصبحت أرى فيه روعةً وسحراً.

دخلت المدرسة في نهاية الصيف مزوّدةً بنشاط كبير، وبتّ أشعر اني

أصبحت أملك شخصية متكاملة ، مع أني كنت فتاة غريرة في سن النموّ ، بينها وبين اكتمال الشخصية مراحل دونها مراحل ... كان عليّ في ذلك العام ان اتقدّم لفحص الشهادة الابتدائية فاجتهدت في الدراسة باللغة الفرنسية ولم يكن في بيتنا من يستطيع مساعدتي فيها لجهل ابويّ لها ، واني لأعجب من أولاد اليوم اذ يقصّرون في دروسهم على الرغم من العناية الفائقة التي يجدونها في البيت لمساعدتهم على فهمها واتقانها ، فهل كان ابناء جيلنا اكثر اتكالاً على انفسهم في الدراسة ؟ تأخرت في نيل (السرتفيكا) لتأخر دخولي الى مدرسة الفرنسيسكان ، ولقضاء العام الأول بعد الانتماء اليها في صف خاص تعلمت فيه مع مثيلاتي اللغة الفرنسية لنستطيع متابعة الدراسة الابتدائية باللغتين ، ولكني كنت الأولى بين الناجحات في سورية ، مما جعلني أفرح فرحاً كبيراً لا سيما عندما قرأت اسمي يتصدّر القوائم في جميع الصحف ، حتى ان الغرور دفعني الى الاعتقاد بأني حصلت على درجة علمية رفيعة بحصولي على شهادة التعليم الابتدائي ... ولكن ألا يشفع لي ان الغرور ملازم للاحداث وأني كنت أجهل قول مونتيسكيو المأثور : «يجب على الانسان ان يتعلّم كثيراً لكي يعرف قليلاً» ؟

قضينا صيف ١٩٣٨ في الزبداني لقربها من دمشق اذ كان أبي وزيراً للمالية ، وهي مصيف هادىء جميل ماؤه عذب وهواؤه عليل ، وفاكهته زكية ، ولا سيما التفاح المعروف بالسُّكّري والذي لا ينجح في تربة غير تربة منطقة الزبداني . خُطبت أختي الكبرى الهام في ذلك الصيف وأخذ خطيبها يتردّد علينا من أجلها ، وأما أنا فقد كنت انتظر زيارات اخوان ابي بفارغ الصبر لما كنت أجد في احاديثهم من متعة فائقة ، ولا سيما أحاديث الزعيم الاستاذ فارس الخوري الذي كان يصطاف في بلودان ، ويتفقدنا كثيراً ،

وفارس الخوري ليس زعيماً وطنياً أو أستاذاً علامة فحسب ، بل هو شخصية فذة نسيج وحدها في العلم الغزير والحديث الأخاذ ، والنكتة الحاضرة . أذكر انه فاجأنا بزيارته صباح يوم جمعة فجلسنا في الحديقة نستمع الى حديثه الطليّ ونكاته الحلوة ، ومداعباته الرشيقة التي كان يخصّني بها لكوني (رفيقة المنفى) كما كان يقول . ولهذا كانت لي دالّة عليه ظلت على مدى الأيام من دواعي اعتزازي وسروري . وقد أعلمنا يومئذ أن أسرته وبعض الأصدقاء اتفقوا على قضاء النهار في وادي زحلة ، وانهم سيمرّون عليه بعد ساعة لاصطحابه معهم ، غير انه يفضل البقاء عندنا حتى المساء ، ثم نظر الي وقال لأبويّ اللذين رحبا بفكرته ترحيباً حاراً

ـ حسناً ، سأتغدّى معكم وأنتدب سلمى للذهاب الى زحلة نيابة عني ، فما هو رأيكما ؟

فأجابته أمي مسرعة :

ـ ولم لا تبقى سلمى هنا وهي المغرمة بعمو فارس بك وبأحاديثه ؟

فأدرك قصد أمي وابتسم وقال :

ـ ونعم الرأي يا أم بشر ، سنبقى جميعاً هنا ونستمتع بالهواء البليل والطعام الشهي دون حاجة لركوب المشقة وقطع الأميال .

وهكذا لم تطل فرحتي باقتراح العم فارس بك ، ولم أعلّل النفس بالآمال العذبة ، لأن جواب أمي السريع قطع الآمال جميعاً ، ولكنني أسفت لحرماني من الذهاب الى زحلة كل الأسف عندما رأيت في السيارة المغنية اسمهان وأخاها فريد الاطرش قادمين مع أسرة الزعيم الخوري . لقد أُخذت بجمال اسمهان وأناقتها وسحرها خلال الدقائق القليلة التي شاهدتها فيها ، وكنت وما زلت اهتزّ لغنائها وأعتبر صوتها من أجمل الاصوات وأكثرها حناناً وتأثيراً

في النفس ، وفي المساء أفلتت مني عبارة تحسّر على ضياع فرصة نادرة كان بوسعي ان أتعرف فيها على الأميرة الفنانة ، وربما أن أسمع صوتها في السيارة ، فعلّقت أمي على كلامي بنظرات حادة رافقت قولها الجازم الصارم :

– ما كان ينقصنا والله الا معاشرة الفنانين ومرافقتهم في الرحلات ! يجب ان تعلمي يا بنتي ان الانسان حيث يضع نفسه ، وأنك ما زلت صغيرة لا تميزين الخبيث من الطيب ، فكفى هراءً واياك ان تفكري بشيء من هذا القبيل بعد اليوم .

فسكتُّ طبعاً ، ولكني لم أدع واحدة من الصديقات الا وأخبرتها بأني رأيت اسمهان وفريد الاطرش وأنهما أتيا الى دارنا ، ودعواني الى زحلة ، وان اهلي لم يسمحوا لي بالذهاب معهما ... ونسجت مخيلتي قصة محبوكة الأطراف رحت أرويها متباهية إما لاخفاء مركب نقص كنت أشكو منه ، أو بدافع مركب تسامٍ كنت أرزح تحت وطأته ، وهذا هو الأرجح ، فقد كنت ، في حداثتي ، أميل الى المبالغـــة في الحديث ، وأجنح الى التخيل والابتكار بدافع خيال خصب ، وأحلام خارقة ، وآمال جسام ، وبدافع التمثل بالشخصيات الكبيرة التي كنت اعجب بها وأتمنى محاكاتها. ولكن الطموح صفة محمودة في الشباب ، ان لم أقل صفة ملازمة للمراهقين التواقين للنضج ، ولا بدّ من الاعتراف بأني كثيراً ما كنت أخلو بنفسي في تلك الآونة وأطرح عليها سؤالاً لم يتغير : « ماذا ينبغي ان أفعل حتى أحظى بشخصية قوية ؟ كيف يمكنني ان أجيد الكلام في المجتمع ، أن اروي قصة جيدة أمام الناس تعجبهم ؟ » وكانت الأجوبة على سؤالي تأتي غامضة ومتعددة ، فتنقلني من واد الى واد ، ومن

قمة الى قمة ، دون ان تشفي غليلي ، أو تمكنني من الاستقرار الى رأي ، أو الرضا بفكرة معينة . ولقد تبلور الجواب ذات يوم من أيام سنة ١٩٣٩ في باحة المدرسة وأمام ثلاث من الرفيقات ، يوم كنا متحلّقات فيها نتحدث مع راهبة ايرلندية كانت تعلمنا اللغة الانكليزية . سألتنا الأم (دونهالم) عما نود عمله في المستقبل ، وبعد ان أجابت زميلاتي على سؤالها متحمسات . واختارت كل واحدة منهن بدورها الطبابة والمحاماة والتمريض ، قلت للأم دونهالم ، بعد لحظة تفكير بكل ايمان وبساطة :

ـ الحق أني أحلم بأن أصبح شخصاً مرموقاً في المقبل من الأيام يقوم بعمل نافع ، فإني تواقة لأن أصبح كاتبة مثلاً وخطيبة .

فضحكت الأم (دونهالم) وقالت لي بلكنتها الفرنسية الجميلة :

ـ أرى انك ستصبحين كذلك لأنك مصممة على بلوغ هدفك بعناد ...

وتوالت السنون وشاءت الظروف ان أُدعى سنة ١٩٦٠ مع الخريجات القديمات الى حفلة كبيرة في مدرسة الفرنسيسكان بمناسبة إقامة معرض فيها للكتاب العربي السوري ، وكنت قد نشرت بضعة مؤلفات وأهديتها الى مكتبة مدرستي فألقيت كلمة في ذلك الاحتفال عن دور المرأة في الأدب العربي ، وكانت الأم دونهالم أول المهنئات اذ أقبلت علي باشة وهي تقول :

ـ لقد حققت ما كنت تصبين اليه وصدقت نبوءتي فيك يا سلمى ، هل تذكرين جوابك على سؤالي عن آمالك في الحياة سنة ٣٩ ، في هذه الباحة بالذات ؟

ثم أضافت تقول بلغتها الانكليزية ما معناه :

ـ (حيث توجد الارادة توجد الوسيلة) .

والحقيقة التي يجدر بي ان أذكرها هي أني ، على الرغم من الطيش والمشاغبة اللذين عُرفت بهما في سني الدراسة الأولى، كنت أعشق الدرس والمطالعة وأهتز للعبارة الحلوة وأطرب للكلمة الانيقة البليغة ، وأجد في صحبة الكتاب أعظم متعة في كل حين . هذا الكلف بالمطالعة ، وهذا الولع بالكتب ، وهذه الحرمة للكلمة من الامور التي لازمتني في جميع مراحل العمر لسببين رئيسيين الفطرة اولاً ثم التوجيه . أما التوجيه فاني مدينة به لوالدي ومكتبته الواسعة ، ولعنايته الخاصة بتدريسي الأدب العربي والتاريخ اذ وجد لديّ ميلاً قوياً للدرس والمطالعة فارشدني الى أفضل المصادر منذ اول عهدي بالقراءة وشجعني على الاستمرار وحثني على التعمق . وكثيراً ما كنت أختلي بأختي الكبيرة إلهام (قبل زواجها) وأقص عليها أجمل القصص الأدبية والتاريخية التي قرأتها وأُعجبت بها ، فأجد بالمشاركة متعة فائقة وكأني اغتنيت وأغنيت ، وما زلنا نحفظ لتلك الخلوات الهانئة التي سعدنا بها معاً أجمل الذكرى حتى اليوم . وكنت منذ ذلك الحين كبيرة الاعجاب بأحاديث أبي وعلمه وذوقه السليم ، شديدة الميل الى التشبّه به، شأني في ذلك شأن الأولاد الذين يهيمون بآبائهم، ويحذون حذوهم، مع اني خلقت فتاة لا صبياً لهذا باشرت شراء كتب خاصة لي، بعضها بالعربية وأكثرها بالفرنسية ، منذ انتسابي الى معهد الفرنسيسكان لكي أحصل على مكتبة شخصية مثل مكتبة أبي ، فكنت أدخر مصروفي الاسبوعي لاقتناء كتاب أو كتابين في الشهر ، وأحرم نفسي من البحبوحة التي تسعد الأحداث عند امتلاء جيوبهم بالنقود ، وتخوّلهم حق شراء ما يشتهون . وكثيراً ما كانت رفيقاتي يستغربن احجامي عن شراء ألواح الشوكولاة اللذيذة فيضيّفنني وأنا أتظاهر باللامبالاة ، بينما كنت في الواقع أتمنى التهام لوح كامل منها ... كنت أعزي نفسي وأقول ان قطعة الحلوى تمنحني لذة دقيقة بينما الكتاب الذي أشتريه وأتملكه يمنحني لذة تدوم أياماً وليالي ، فأُعرض

عن اغراء المأكولات ، وازداد هياماً بالكتب ، ومفاخرة باقتنائها . وقد ظلت هدية الكتاب افضل هدية تقدم الي ، وما زلت أذكر الفرح الذي كان يتملكني يوم توزيع جوائز نهاية العام الدراسي على الناجحات لأن تلك الجوائز كانت كتباً قيمة متقنة الطباعة والتجليد ، ولأني نلت منها عدداً لا بأس به خلال سني الدراسة كلها . أما فرحي بحفلات نهاية العام الدراسي التي كانت تعقب توزيع الجوائز فلم يكن أقل من فرحي بالجوائز نفسها لأن تلك الحفلات الجميلة كانت تقوم على سواعدنا نحن بنات الفرنسيسكان ، وتتيح لنا فرصة الظهور على المسرح أمام جمهور كبير من الأهالي وبعض الرسميين ، والخريجات اللواتي سبقننا كنا نستعد لتمثيل لوحات مسرحية بالعربية والفرنسية أو لتقديم بعض الرقصات ، أو لعزف المقطوعات على البيانو ، استعداداً منظماً طويل الأمد ، ونجد فيه متعة كبيرة ، ونعقد على النجاح فيما نقدم آمالاً تصاحبها أحلام الشباب الزاهية . اشتركت بتقديم رقصة الدبكة مع زميلات لي ، ومثلت دوراً رئيسياً في فصل من مسرحية (استير) لراسين ، كما قمت ذات مرة بدور الطبيب في تمثيلية من اعداد استاذتنا الأديبة ماري عجمي ، وابتهجت في تقمص دور « الدهر » في مسرحية شعرية لها ، أما الأدوار الهزلية فلم أكن من الموهوبات فيها مع أني كنت أعجب بها وبرفيقاتي اللواتي كن يبرعن في تمثيلها . ولاريب في ان هذا التدرّب على دراسة الأدوار التمثيلية على أيدي راهبات مثقفات ومدرسات مرموقات قد نمّى في نفسي حب المسرح وتذوّقه مما جعلني أوثره على السينما أو غيرها من ألوان التسلية والتعليم .

* * *

بين الرياضة والموسيقى والشعر

عاشرت خلال السنوات التسع التي قضيتها في مدرسة الراهبات عدداً كبيراً من الفتيات الفرنسيات، وصادقت بعضهن فجنيت من تلك المعاشرة فائدة كبيرة في انطلاق لساني باللغة الفرنسية وفي اقتباس اللفظ السليم عنهن. وكانت لي زميلات في رياضة التنس وكرة السلة ولكنا كنا نؤثر لعب التنس ونمارسه كل يوم في ملعب كان معداً له في باحة المدرسة آنذاك ، فأولعت بكلتا الهوايتين وأصبحت أعدّ من أجود اللاعبات بسبب اندفاعي للرياضة بكل ما أوتيت من قوة جسمية وطاقة نفسية حسب الأصول التي تدربت عليها . واذا كان طبعي يفرض عليّ ان أمنح جميع امكاناتي لأيّ عمل أقوم به فلأني فُطرت على الشغف بما أُحب ، وعلى رفض أنصاف الحلول، لذا تراني إن أحببت شيئاً أحبه بكل جوارحي ، وأثابر على الاهتمام به ، وأستعذب في سبيله المشقة ، وإلا فأُعرض عنه ولا أكترث به ! وهذا ما حدث لي مع الموسيقى، فقد حرص أبواي على تعليمنا العزف على البيانو ايماناً منهما بفوائد الموسيقى في صقل الذوق والروح ، وفي تهذيب الطبع وملء الفراغ ، فتعلمت العزف وأنا في سن صغيرة وثابرت عليه بعد انتهاء مرحلة الدراسة حتى أصبحت ساعة الخلوة بالبيانو مقدسة وأثيرة لشدة انسجامي مع الألحان. ولا ريب في انه كان لتشجيع أهلي ولتشجيع معلمتي الأولى (الأم ايمانويل) ومن ثم أُستاذي الفنان (البارون بيلينغ) أكبر الأثر في حثي على متابعة الدرس، فأحببت البيانو الى درجة جعلتني أفكر بالتخصص فيه . ولا أغالي اذ أقول اني أجد في صحبة

الموسيقى متعة لا توازيها متعة سواء في اوقات السرور أو في حالات الحزن ، أو الشعور بالوحدة أو بالحنين الى ما لا ندرك كنهه فيما ينتابنا أحياناً من حالات نفسية غريبة ، لأن الذين يشاطرونني هذا الاستمتاع كثيرون ، فالموسيقى وسيلة ترفيه وتثقيف وتعزية . والهام وتغذية ، واداة ترويض للروح وتعريف بالجمال وتقريب من الله ، سواء أأصغينا الى ألحانها الحية والمسجلة أم استنبطنا تلك الألحان بأصابعنا .

أما ذكرياتي مع الشعر . والشعر الفرنسي خاصة . فانها ملازمة للمرحلة التي أتحدث عنها حيث اكتشفت سحره وجماله عن طريق ما كنا ندرس من الشعر الرومنطيقي والغنائي ممثلاً بالشعراء أمثال (لامارتين) و (موسه) و (ڤيكتور هوغو) في القسم الاعدادي ، ومن ثم ما درسناه من نماذج الشعر الوجداني والرمزي ممثلاً بالشعراء (ڤيرلين) و (رامبو) و (مالارميه) في القسم الثانوي . أحببت الشعر الفرنسي منذ بداية عهدي بمعرفته لعدة اسباب منها سهولة بيانه ، وعذوبة ألفاظه ، ورقة موسيقاه التي تنبعث من جرس اللغة ذاتها ، كما أننا ، رفيقاتي وأنا ، شُغفنا به لبساطة معانيه العاطفية ، التي كانت تؤثر فينا وتنفذ الى أعماقنا فتهزنا وتنشينا ، وتحفزنا على حفظه ومحاكاته احياناً . وهذا ما أقدمت عليه مع بعض أترابي من السوريات فكنا ننظم الاشعار في اوقات الفراغ ، ونتبادلها خلسةً في اوقات الفرص مزهوات بأنفسنا ، معجبات بموهبتنا ، وكأننا أصبحنا شاعرات حقاً ، بل من كبار الشعراء ... يا لغرور الشباب ... ويا لقدرته على التزيين والتضليل ! كنا ، صونيا شلهوب وميمي ألوف وأنا ، نقدس الشعراء ونجلّهم ونضعهم فوق الملوك والأباطرة ، ولشدة تأثرنا بقصائد لآمارتين أمسينا نكتب القصائد في الحب وفي الحرمان في الألم وفي الحنين ، وكأننا خبرنا الحياة

وعركنا الدهر ، وكأن التجارب حنكتنا والآلام صقلتنا . ان الميل الى المحاولات الشعرية أمر مألوف لدى الفتيان والفتيات في سن المراهقة على الأغلب ، وقد قال ناقد أدبي في هذا المعنى : « ليس غريباً الا يكتب الانسان الشعر بين الخامسة عشرة والعشرين من عمره حيث يكون أكثر الشباب شعراء في تلك المرحلة ، أما الذي يكتب الشعر وقد تجاوز الأربعين فانه حقاً لشاعر » .

كنا نخضع لمراقبة شديدة من قبل الراهبات آنئذ فكان محظوراً على الفتاة مثلاً ان تسير في الباحة مع رفيقة واحدة كي لا تتحدثا على انفراد ، خشية ان تفسد الواحدة الأخرى ، أو أن تتولد بينهما عشرة مريبة ، لذا كنا نتحلّق جماعات تتألف من ثلاث فتيات أو اكثر ، وقد ألفنا مراقبة الراهبات واقبالهن علينا للاشتراك بأحاديثنا . ويبدو ان احداهن شاهدت عن بعد ورقة تنتقل من يد الى يد في حلقتنا ذات يوم ، ورقة استأثرت باهتمام رفيقتيّ ، فاستغرقتا بقراءتها ، وعلقتا على القصيدة التي كانت تتضمنها تعليقاً كله اعجاب ، وجلّه اطراء ، دغدغ كبريائي لأني كنت صاحبة القصيدة ... وبينما كنا منهمكات بالشعر ، محلّقات في عالمه السحري ، مثلت أمامنا الراهبة فجأة ، فارتعشنا للمباغتة المحرجة ، وكنت أكثر الرفيقات خوفاً ، وقالت :

– هل لي ان أطلع على ما في الورقة من ممتع أثار فيكن كل هذا الاهتمام ؟

فارتعدت أوصالي ، وتسمّرت في مكاني لا أقوى على الكلام ، غير ان صونيا التي كانت تمسك الورقة تشجعت وقالت :

– بكل سرور يا أماه ، انها قصيدة جميلة عن الربيع لشاعر مجهول ، تفضلي .

وناولتها الورقة ، فانتظمت نبضات قلبي ، وعاد الهدوء الى نفسي ،

وامتلأت اعجاباً بسرعة خاطرها ، وبثقتها بنفسها ، ولكن الراهبة كانت أذكى منا جميعاً واوسع دراية بالشعر والشعراء ، وأخبر بحيل الفتيات . فما ان القت نظرة مستفيضة على القصيدة حتى تفرست في كل واحدة منا على انفراد وقالت بلهجة جازمة لا تقبل الاعتراض :

– يجب ان تعلمني من منكن المؤلفة ... الأفضل لكن ان تعترفن حالاً تجنباً لمشكلة كبيرة .

فانبريت اقول ، وأنا متعجبة من جرأتي بعد الخوف الذي تملكني قبل لحظات :

– أنا المؤلفة يا أمي ، فكيف وجدت اشعاري ؟

فامتعضت وأجابت وقد تورّد وجهها ، وكان حرياً بي أن اخجل أنا منها :

– ستعلمين رأيي فيها قريباً ، غير اني انصحك أن تكفّي عن هدر الوقت الثمين بكتابة أمثال هذه الترهات !

وغادرتنا تسير بخطى منفعلة ، فأيقنت ان الرئيسة ستستدعيني لتحقّق معي ، وأني سأواجه مشكلة مزعجة ، ولكنني صمّمت في الحال ان ادافع عن نفسي وألا أقف موقف المذنب النادم على اثم اقترفه . فما هو الضرر في التغني بالربيع وبتأجج العواطف فيه ، وبتجاوب النفس مع الطبيعة النضرة المتفتحة للحياة والحب ؟ هل أنا مجرمة اذا شعرت بتدفق دم جديد في عروقي مع تألق أكمام الزهر ، واذا عبّرت عن مشاعري بأبيات موزونة رقيقة يشبه ايقاعها تغريد الطيور ؟ هل حرام ان احس بأني تحولت مع الربيع الى قلب

يعشق الطبيعة والحياة والناس ، ويعبّر عن هيامه بالزهور والطيور والاشجار والأنهار ، والارض والسماء ؟ ألأني شابة صغيرة في ربيعها السابع عشر يجب ان أعاقَب ؟ حدث ذلك في فرصة العاشرة صباحاً ، وكنت في ذلك العام اتناول وجبة الغداء في المدرسة مع اختي لميس ، وبانتهاء الحادية عشرة انتهى درس الادب الفرنسي الذي كانت تلقيه علينا راهبة عالية الثقافة هي الام كلاري . فخرجت من الصف وأومأت اليّ ان أتبعها ففعلت ، واذا بها ترمقني بنظرات غاضبة ثم تقول بنبرات حادة معبّرة عن الاستياء والتهكم ، وقد أخرجت من جيبها الورقة المعلومة :

– برافو سلمى ! لم اكن على علم بأنك شاعرة مجيدة ... هل استطيع ان اعلم كم ساعة أضعت في صفّ هذه الكلمات الكبيرة ؟

فأحسست بدمي يفور في عروقي ثورة على جرح كبريائي لأني كنت مزهوة بما كتبت ، ونظرت في عينيها نظرة عتاب وقلت بوضوح واعتزاز

– كتابة القصائد لا تأخذ من وقتي الا القليل اذا شعرت بحاجة الى كتابة الشعر ، كما اني لا أستعمل كلمات كبيرة ابداً ، ولا أتعمّد ذلك لأني أعبر عن افكاري ومشاعري ببساطة .

فلاحظت ، وهي الذكية المحنكة ، أني تأذيت من استخفافها ، لذا اضافت تقول :

– حسناً ! إذا كنت حقاً كاتبة هذه القصيدة فإني اكلفك بكتابة مقطوعة للترحيب بالمديرة العامة التي ستزورنا في الغد ، وسوف تجدين متسعاً من الوقت للتفكير فيها ولكتابتها في فرصة الغداء ما دمت تقولين الشعر في مثل هذه

السهولة ، وبوسعك ان تجلسي في قاعة الدرس بعد الغداء مباشرة اذا رغبت في الهدوء .

وابتسمت لي ابتسامة تحدٍّ وانصرفت ، فتنفست بارتياح لسببين : الأول لأني لم أوبَّخ على القصيدة المصادرة لما تضمنت من انطلاق فكري وعاطفي خلته داعياً للتأنيب ، والثاني لأن الأم كلاري التي كنت احبها كثيراً وأحترمها اتاحت لي فرصة طيبة لاقامة الدليل على أني صادقة وموهوبة وقادرة على الخروج من المأزق بسلام، ولاسيما بعد ان اعربت عن شكوكها في اني مؤلفة القصيدة . تغديت يومئذ على عجل وأنا شاردة الذهن . أفكر بما يليق ان اقول ترحيباً بالمديرة العامة ، ضيفة الغد المهمة ، التي تتفقد معاهد الفرنسيسكان في مختلف البلاد بين حين وآخر . وبانتهاء الطعام الذي حرمني من التلذّذ به التفكير الخطير بتنظيم هيكل القصيدة ، صعدت الى قاعة الصف لأخلو بنفسي وأفكاري وببضع ورقات بيضاء عزمت على تسجيل قطعة رائعة عليها . تصورت نفسي واقفة امام الضيفة المحترمة ، ذات الأفضال الكبيرة على المعهد الذي يعلّم ويهذب أفواج فتيات اليوم ، امهات الغد ، أعبّر عن مشاعرهن الخالصة بالتقدير لسهرها وسهر مربياتنا على تزويدنا بالعلم والاخلاق والأمل والتفاؤل ، وتصورت كذلك فرحة الطالبات المجتمعات لتكريمها وأنا واقفة امامها وامام رئيستنا والمعلمات أُعرب لها عن ابتهاجنا بقدومها وعن عرفاننا بالجميل ، أوَلست فتاة عربية جُبلت على الوفاء ، ونشأت على إكبار العلم ، واحترام المعلم واجلاله ؟ فانهالت على خاطري العبارات ، وتدفقت المعاني ، وتزاحمت القوافي، وعندما أُعلن انتهاء فرصة الغداء في الواحدة والنصف طويتُ وريقاتي مغتبطة بما احتوته وسلّمتها الى الأم كلاري بيد مرتجفة وقلب نابض بالسرور . نادتني الأم كلاري قبل الانصراف في الرابعة وقالت لي وهي

تنظر اليّ نظرة الزميل الى زميله ، أو الندّ الى ندّه ، شتان بينها وبين نظرة التحدّي والاستهزاء السابقة ، قالت بلهجتها الصارمة وبسرعة ألفناها في كلامها

-- اعجبتني قصيدتك ، ستلقينها غداً باسم المدرسة في قاعة الاحتفال في الثالثة والنصف ، واني لواثقة من انك موهوبة سيكون لها شأنها لأنك تكتبين بلا تكلّف . ولكني انصحك بالقراءة كثيراً لكي تتمكني من اللغة وتحصلي على ثقافة وافية .

ففرحت لما سمعت من الأعماق ، وازددت ثقة بنفسي وانصرفت . دخلت الدار أتهلل حبوراً فأخبرت أبويّ بما حدث ثم اهتممت بحفظ القصيدة وبالتمرن على القائها لأن تأثير الشعر في الناس منوط بجودة الالقاء بقدر ما هو منوط بروعة البيان ، ولم انس بالطبع تدوين الحادثة في مذكرتي لأني جريت على كتابة يومياتي في ذلك العام ، اسجل فيها ما يستحق التسجيل بدون انقطاع ، ولا بد من القول اني مدينـــة لتلك الصفحات العفوية الساذجة في تأليف أول كتاب نشرته (يوميات هالة) لأنها كانت نواته الأصلية .

أخذت المدرسات منذ ذلك اليوم ينظرن اليّ نظرة جديدة دغدغت طموحي وحفزتني على الجد والاجتهاد ، كما لاحظت اهتمام رفيقاتي بي وتقدير اهلي لي اكثر من ذي قبل مما أدخل السرور على قلبي . اصبحت أُعامَل في البيت معاملة وديّة ، سمحة ، أحسست إثرها أني صديقة صغيرة لأمي وأبي ، لا فتـــاة ثائرة متمردة متعبـــة وصرت في المدرسة شبه زعيمة للصف تولّت مركز الوجاهة سواء في الحفلات او في المناقشات او في الرحلات المدرسية . ولم أكن افتقر لا الى الحماسة ، ولا الى الافكار الجديدة التي

من شأنها ان تولّد النشاط في الجوّ ، وان ترضي الآخرين وتسرّهم . اقترحت ان نقوم برحلة جماعية الى بعلبك فوافقت الادارة وقضينا نهاراً هانئاً مع الراهبات في آثار بعلبك ما زال في متعته يفوق جميع الرحلات القصيرة التي قمت بها فيما بعد . تهيأنا للرحلة قبل ايام وكنا قرابة ثلاثين فتاة وثلاث راهبات . فأخذنا زادنا وآلات للتصوير وقطعنا الطريق من دمشق الى بعلبك بالغناء والتفكّه والضحك ، فلم نشعر بانقضاء الساعات بل ، على العكس ، وجدنا المسافة قصيرة ، والسيارة المهترّئة وثيرة . ومما زاد في سرورنا لين الراهبات يومئذ ، واشتراكهن معنا في الانشاد والحديث والتندّر ، ولم نكن نعرف منهن فيما سبق الا الصرامة والجدّ . غير انهن انزوين في مكان ناءٍ وقت الغداء ، فاحترمنا رغبتهن آسفات ، وشتان بين تشددهن مع جيلنا وبين التطور المحسوس الذي طرأ على تقاليدهن في السنوات الاخيرة وجعلهن اكثر اندماجاً بالمجتمع وأقل تزمتاً . وقمنا كذلك برحلة ثانية الى نبع الفيجة القريب من دمشق فقضينا يوماً جميلاً في حدائق المشروع بعد ان اخبر والدي الموظف المسؤول بقدومنا ، بوصفه المؤسس للمشروع والمراقب العام له ، وهكذا وجدنا من يستقبلنا ويؤمن راحتنا ، ويفتح لنا ابواب الخزّانات الرئيسية الضخمة ، ويشرح لنا تفاصيل جر المياه الى العاصمة ، وتاريخ النبع القديم حيث شاهدنا آثار معبد روماني كان قد بُني في جواره . ومهما تتقلب الايام يظل لأمثال هذه الرحلات طعمها الحلو وذكراها الأثيرة ، كما تظل صداقات الدراسة ، وان انقطعت أواصرها ، مورد هناء وحنين لصلتها الوثيقة بمرحلة التفتّح والتألق في حياة كل واحد منا .

* * *

لبنــان وسورية

اتى صيف ٣٩ يحمل لنا بشائر ومباهج ، تزوجت اختي الهام فيه بعد خطبة دامت عاماً . وبقيتُ الصبيّة الوحيدة في البيت لأن أختي الثانية لميس كانت تصغرني بخمس سنوات ونصف . قضينا ذلك الصيف في (رويسات صوفر) في دارة جميلة استأجرها أبي لنا ، وكان قد استقال من رئاسة الوزارة وتفرغ لعمله في الفيجة وللنيابة مما كان يسمح له بقضاء آخر الاسبوع معنا في المصيف . اصبحت رفيقة ابويّ في استقبال الاصدقاء وفي زيارتهم فتعرفت بوجوه لبنانية مرموقة . لقد اعجبت كثيراً بسيدة اديبة جميلة زارتنا مع اسرتها وزرناها وسمعت عنها الكثير من آيات الثناء ، هي الاديبة الرائدة جوليا طعمة دمشقية . سرني كثيراً ، على سذاجتي يومئذ ، ان تكون تلك السيدة النشيطة في حقل الادب والخدمة الاجتماعية زوجاً واماً مثالية ، فاطمأننت على مستقبلي اذ ثبت لي ان الخدمة العامة ، ومتابعة العلم وحرفة الادب ، اعمال تتوافق مع حياة المرأة حياةً عائليةً سعيدة . كان اعجاب اهلي ومن لقيت من اصدقائهم بالسيدة جوليا شاملاً ، وكان اسمها يُقرن بالاحترام والتقدير في كل مجلس ، وقد خصتني يوماً بعبارات مشجعة اذ علمت بميــلي الى الادب ، فتشجعت وقلت لها إنها مثال حي للمرأة العربية الناهضة ، وانني راغبة في ان تتحرّر الفتيات والنساء من ظلمات (الحريم) وأقفاص التخلف الثقافي والاجتماعي لمجاراة المرأة الغربية الراقية ، لنعيد سيرة جداتنا العربيات اللواتي اشتهرن كأديبات وعُرفن بقوة الشخصية . ولا شك في ان معرفة سيدة عظيمة راقية

مثل الاديبة جوليا طعمة دمشقية أثرت في نفسي التواقة الى العلم اعمق الاثر ، ولا شك في ان حبي لها واعجابي بها سيدةً ومحدثة ومفكرة جعلني أعقد النية في سريرتي على محاكاتها ، والتشبّه بها في المستقبل .

اما عن ميلي للتشبّه باللواتي كن يتقدمنني بالسنّ يومئذ فانه جلب لي متاعب كثيرة ... فلقد كنت متسرعة في اللحاق بهن ، عجولاً في تقليدهن ، مما جعلني ارتكب خطيئات أعترف بها ، وأذكر منها حادثة طريفة كانت السبب في أوبتي الى الصواب ، وفي اقناعي بأن البساطة في الزينة واللباس وجميع التصرفات هي اساس في الاناقة والجمال . قبيل زواج اختي الهام بأيام دعينا الى غداء في بلودان في مقهى شلالات « ابو زاد » وكانت الهام عروساً تتزين وترتدي الثياب الجديدة الجميلة ، كما كانت خالتي « اسعاف » زائرة عندنا وصديقة حميمة لأختي وفي مثل سنها . لقد اشتهيت تقليدهما فرجوتهما بالحاح ليلة النزهة ان تساعداني في تزجيج حاجبيّ خلسة عن اعين ابويّ ، ففعلتا ... حدث ذلك قبل النوم ، فلم يرني احد ، غير انه يبدو من صورة التُقطت لنا في ذلك اليوم المشؤوم ان حاجبيّ العريضين في الاصل قد رقّا كثيراً مما جعلهما خيطاً كالهلال ، ومما شوهني بلا ريب ... ولا تسل عن غضب امي ساعة لاحظت هيأتي الغريبة بحاجبين ممسوخين ، فقد حرمتني متعة النوم اثر العودة الى الدار لكثرة ما انبتني على فعلتي الشنيعة بتقليد شابات اكبر مني سناً بأربعة اعوام تقليداً مستهجناً ، لا يحتمل ، ولا يليق ... لقد قمت بجولات متعددة في مختلف مناطق لبنان في السنوات التي كنا نتخذه فيها مصيفاً بسبب حب ابي له وشغفه بجباله الخضراء ، وشواطئه الجميلة ، ومناخه المعتدل ، ولوجود اقرباء واصدقاء لنا فيه كنا نتبادل واياهم الزيارات اذ كانوا يأتون الينا في الربيع للاستمتاع بغوطتنا الرائعة ، وكنا نذهب اليهم في باقي

الفصول اما هرباً من حرّ شديد او برد قارس ، او طلباً لإمتاع النفس بآفاقه الطبيعية والفكرية الرحبة . وما كان لبنان يوماً الا الامتداد الطبيعي المتمّم لسورية ، وما كانت سورية الا الامتداد الداخلي المتمم للبنان ، ومورد الخيرات بالنسبة اليه ، والاخت الكبرى الرائدة ، معقل العروبة ، وموئل الانتصار للحق والحريات ، فلقد صور شعراء سورية ولبنان الروابط الازلية بين بلدينا بأجمل بيان وأرق اسلوب ، وهذا « الاخطل الصغير » أمير الوصف والغزل يقول في رائعته (ضفاف بردى)

بردى هل الخلد الذي وعدوا به
إلاك بين شوادنٍ وشوادي
قالوا : تحبّ الشام؟ قلت جوانحي
مقصوصة فيها ، وقلت فؤادي !

وأما سعيد عقل فان قصائده العصماء في دمشق كافية لتخليده أميراً من امراء الشعر الجزل الساحر ، وكلنا يعلم تأثير هذه القصائد في الجماهير ، ولا سيما (سائليني يا شآم) التي لحنها الاخوان رحباني اجمل تلحين ، وغنتها فيروز بصوتها الرائع في ظروف عصيبة من تاريخنا الحديث وفيها يقول :

ظمىء الشرق فيا شام اسكبي واملأي الكأس له حتّى الجمام
اهلك التاريخ من فضلتهم ذكرهم في عروة الدهر وسام
أمويون فإن ضقتِ بهم ألحقوا الدنيا ببستان هشام .

عرفت سائر مدن لبنان ومراكز الاصطياف فيه وأرزه الخالد ، وكنت اجد في قممه وأوديته وسواحله جمالاً أخاذاً ، وطابعاً مميّزاً ، واصدقاء لأهلي يحبونهم ويكرمونهم ، ولا يضنّون عليّ بالتودّد والترحيب ، مما زاد

في حبي له بلا ريب . فالانسان يُعجب بالبلد الجميل والمنظر الخلاب اذا كان سليم الذوق ، مولعاً بالطبيعة ، ولكن اعجابه سرعان ما يتحوّل الى حب وتعلّق اذا ما حظي بصداقات في ذلك البلد ، واذا ما اقترنت ذكرياته بلقاءات انسانية تُضفي عليها سحراً وجاذبية . الطبيعة في لبنان فاتنة بتنوع مناظرها . ونضرة خضرتها ، وطراوة مناخها لقرب البحر منها ، واهلي وانا من عشاق الطبيعة ومن الذين يستسهلون كل مشقة في سبيل التمتع بمطلّ جميل ، او واد رهيب ، او نبع عذب ، او شلال هادىء ، أو غيضة وارفة . وهذا لا يعني اني لم اتعرف، في مطلع شبابي ، على جبال سورية ، وسواحلها الوادعة، وآثارها الهامة ، ومدنها الكبيرة والصغيرة ، فلقد زرت مع اهلي جزءاً كبيراً منها لحرص ابي على اطلاعنا عليها ، وهو الذي يقول : « اذا شئت ان تعرف العالم والناس اعرف بلادك واعرف نفسك جيداً » .

احببت في وطني كل ما عرفت من غربه وشماله وجنوبه وشرقه ، احببت من اللاذقية بيوتها وسماءها وبحرها وضواحيها الرائعة الحسن ، فان جبالها المحرّجة ومنها صلنفة وكسب والفرنلق هي اجمل بقعة في سورية بلا منازع واحببت من حلب قلعتها واسواقها واشراقها ، ومن حماة بساتينها ونواعيرها ، ومن حمص مسجدها وعاصيها وبحيرتها ، وأحببت من الجنوب جبل العرب وسهل حوران في الربيع ، وشلالات تل شهاب وبحيرة مزيريب ، كما سحرني مدرج بصرى بفخامته واتساعه، واحببت من الجنوب الغربي جبل الشيخ الاشم ، وبلدة عرنة الزاهية وينابيعها السخية . أما تدمر عروس الصحراء في شرقنا فلقد همت بها ، وسحرتني طلولها ، وفتنتني صحراؤها وسماؤها في الليالي المقمرة والمظلمة على حد سواء ، وبهرني غسقها وشفقها ، ولا اغالي اذ اقول انها ظلت تبهج احلامي مذ عرفتها ، فتدمر مسرح مجد ، وعاصمة ملك ،

ومنبت زنوبيا ، ومجمرة بخور في الغابر من العصور ، وقارورة عطر على مرّ الدهور . شوقتني تدمر الى دراسة التاريخ ، وحبّبت الي السهر والكدّ لمعرفة المزيد عنها وعن بلادي والعالم القديم ، وسوف اعود اليها كلما سنحت الفرصة لتسعدَ عيني بموقعها الساحر . ولترتوي نفسي من موارد جمالهـــا حيث تتناقض هياكلها الانيقة واروقتها الشامخة مع وداعة الرمال الملتهبة الوهاجة نهاراً على الرغم من برودتها ليلاً

كان لي خال عزيز هو القاضي سرّي السقطي ، رحمه الله ، وقد سكن حمص مدة من الزمن بحكم عمله، لذا كنا نذهب لزيارته فيها ، جدتي وامي واخوتي وانا ، وننتهز الفرصة للقيام بجولات في تلك المناطق المتنوعة الاهمية والجمال ، لا سيما واننا كنا نوقّت تلك الرحلات إما في الربيع او في مطلع الخريف . عقد خالي في حمص صداقات متينة واصبح اصدقاؤه فيها اصدقاءنا ، واما في حماة وحلب واللاذقية فكنا نجد اصدقاء اعزاء لوالديّ ، يحتفلون بقدومنا ، ويدعوننا الى دورهم ومزارعهم فنقضي اوقاتاً طيبة نسرح مـــع اولادهم ، ونبتهج بسهراتهم المرحة التي كان يتخللها الطرب . وما زلت اعود بالذاكرة الى تلك الليالي المبهجة التي كانت تصدح فيها الاوتار ، وتنطلق الحناجر بالغناء ، فنساؤنا مغرمات بالموسيقى والغناء ، واللاتي يتقنّ العزف على العود ويحسنّ الغناء في مجالس الحريم كثيرات في سائر مدن سورية ، وفي حمص وحماة وحلب خاصة لأن طبيعة عيشهن في عزلة عن الحياة العامة وعن عالم الرجال كانت تقتضي منهن اللجوء الى مختلف انواع التسلية واللهو هروباً من السأم ، وطلباً لارواء الروح ، وامتاع النفس ، وحمداً لله ان زمن عزلة النساء اخذ بالزوال شيئاً فشيئاً ... كثيراً ما تمنيت آنئذ ان يكون لي حنجرة جميلة تمكّنني من أسر الافئدة، واحتلال مركز مرموق في امثال تلك المجتمعات

حيث كانت العازفة او المغنية تلقى من المجتمع الذي تعيش فيه تكريماً كبيراً . فتتدلّل وتتيه بسبب فنّها وموهبتها ؛ غير ان الدلال والتمنّع والتحجج بالزكام احياناً ، وبالبحّة احياناً اخرى ، عادات ملازمة لاكثر المطربين والمطربات . تغيظ قليلات الصبر امثالي ، وتدفع المتشوّقين للسماع الى المبالغة بتقريــظ الموهوبين ومداراتهم والتحبب اليهم . كنت مستعدة لملء دنياي شدواً لو كنت املك صوتاً جميلاً ، ومع ذلك ، وبدون ان يكون لي صوت رائع الجمال . كثيراً ما كنت اغني لنفسي ولصديقاتي بعض الاحيان . فأستسيغ مغناي وأجده عذباً شجيّاً ...

أما في دمشق فقد كانت لأمي وصاحباتها ولجدتي جلسات وسهرات مخصصة للطرب حضرت الكثير منها منذ طفولتي ، فشببت على تذوق الموسيقى والغناء لشدة تأثري بهما سواء في تلك الجلسات النسائية ، او في السهرات العائلية التي كنا نقضيها مع ابي والمقربين حول الراديو مصغين الى قصيدة لام كلثوم ، او مقطوعة لعبد الوهاب . او اغنية لاسمهان ، او موشح او دور قديم لصالح عبد الحي . فحتى ادوار عبد الحي نشأتُ على استساغتها والطرب لها بدافع العدوى من ابي وصحبه من الذين كانوا يحسنون الاستماع ، ويهتزّون للحن الجميل والنغم الاصيل . ان للشغف بالموسيقى والغناء عاملين اساسيين احدهما فطري والثاني مكتسب . فالولع بالالحان والغناء كالولع بالعلم والادب والسياسة يولد مع الأفراد وينمو بنموّهم ، متأثراً بالبيئة التي ينشأون فيها ، ولكن لا بد من الاستدراك بأن لهذه القاعدة شذوذاً اذ كثيراً ما برز في التاريخ نابغون في العلوم والفنون دون التأثر بالبيئات التي نشأوا فيها ، كما انه كثيراً ما تدرّب اولاد على أيدي علماء وعباقرة ولكنهم لم يشبهوهم بشيء ، وكأنهم حجر جلمد لا علم ينفذ اليه ولا فن !

وبعد ان أصبحت أتذوّق موسيقانا الشرقية رحت احاول استنباط الحانها على البيانو فكنت أفلح مرة واخفق مرات ، ثم تبين لي ان البيانو يفتقر الى ما يسمّى «ربع النغم» وهذا ما يجعله عاجزاً عن اداء بعض الحاننا كلحن «الصبا» مثلاً ، لذا رغبت في تعلم العزف على آلة شرقية ، «القانون» مثلاً أو العود ، مع متابعة دراسة الموسيقى الغربية على البيانو ، ولكن ضيق الوقت اثناء مرحلة الدراسة حال بيني وبين تحقيق تلك الامنية فبقيت عازمة على تحقيقها الى ان سنحت الفرصة وتمّ لي ما اردت عام ١٩٤٦ حيث تعلمت العزف على العود بارشاد فنان أعمى لان اهلي أرادوا ذلك زيادة في الغيرة علي ... ولو وُجد ضرير يعلمني «القانون» لآثرته على العود ، غير ان شرط ابي وأمي كان صعباً ، وهذا ما حداني على المسايرة والرضا بالعود الذي وجدت فيه ضالّتي وعزائي في ظروف قاسية مؤلمة سوف اتحدث عنها في حينها . والعود آلة مطربة للغاية يهتزّ لأوتارها نياط القلب ، ويذوب لها الجليد ولن أنسى ما حييت صدى تقاسيم رائعة وصل الى سمعنا ، أبي وأنا ، في إحدى الأمسيات خلال نزهة كنا نقوم بها سيراً على الأقدام في ضواحي (حمانا) . توقفنا لنصغي الى الأنغام بشبه خشوع ، وقد أضفى عليها الغسق المقبل سحراً خاصاً ، وطال وقوفنا فجلسنا على الأرض متلهفين الى التمتع بالمزيد منها ، الى ان دوّى في الجو تصفيق متواصل تبعته قهقهات عذبة الرنين ، فأدركنا من مصدر الأصوات اننا كنا بالقرب من خيمة منصوبة في وسط الحرج ، لذا عدنا الى الدار خشية ان نعكّر على المصطافين صفوهم وان نوصف بالمتطفلين اذا ما شاهدنا أحدهم . ولن أنسى كذلك صبح يوم رافقت فيه أبي في نزهته المبكرة في جوار قرية بحمدون (الشقيف) حيث استمتعنا بسحر الطبيعة المتيقظة وبنشوة ما بعدها نشوة حين وصل الى سمعنا صوت (أسمهان) الجميل وهي تغني (فرّق ما بيننا ليه الزمان) ثم موال (يا ديرتي ما لك علينا

لوم) ، كنا يومئذ نسير على درب جبلية ملتوية للماعز تشرف على الهضاب الحالمة ، نتأمل امتداد رداء الشفق البهي ونرقب طلوع الشمس بلا كلام ، ولم تكن تؤنسنا سوى صيحة ديك بين حين وآخر عندما أشجى الأجواء الوادعة صوت أسمهان الساحر فانتشينا به وغبطنا أصحاب الدار المنعزلة عن القرية الذين يستقبلون نهارهم بأعذب الأنغام . كان الوادي يرجّع صدى الحنجرة الذهبية الحنون، فتوقفنا قليلاً ثم تابعنا سيرنا بأناة والانشاد يرافقنا، ولا أدري لم فاض قلبي بالشجن ، وتندت مقلتاي بالدمع ، غير اني خشيت كثيراً ان يلاحظه أبي ويحرجني بالسؤال عن سببه ... ولكنه لم يفعل ، وما كان ليفعل حتى لو لاحـــظ دموعي لانه كان انساناً رقيقاً يفرج ولا يحرج ويداوي ولا يجرح ! كان أبي بديناً ، يحب الطعام المتقن ويدعو جلساءه على المائدة الى التلذذ فيه لشدة ما كان ذواقة في كل ممتع ، وكانت طبيعة الأعمال التي قام بها تجبره على الجلوس، لذا كان المشي رياضته المفضلة ، واذا كنت أحنّ اليوم الى رفقته في تلك النزهات فلأنه كان يرشدني الى مواطن الجمال والعظمة في الطبيعة بحديث طليّ لا يملّ ، واسلوب رقيق لا يقلّد ، وهذا ما يجعلني نادمة على ما فاتني من تلك النزهات الصباحية التي كنت أوثر عليها لـــذة النوم في الضحى . ولكن أوَلسنا نسهو اكثر الاحيان عن سابغ النعم ولا نقدرها حق قدرها الا بعد زوالها ؟؟ وفي مطلع ايلول من العام ذاته (١٩٣٩) أعلنت الحرب العالمية الثانية ونحن ما زلنا في المصيف، فاضطرب الناس جميعاً ووقع الرعب في نفسي اذ لم أعد أسمع الا الانباء المروّعة والتعليقات الرهيبة والتكهنات المتشائمة حول هذا الحـــدث الخطير ، فعدنا الى دمشق في اواخر الشهر . كان ابي قد سبقنا اليها للاسراع في تحقيق عمل هام قد لا يعلمه الكثيرون في بلدنا ولكن أعضاء لجنة مشروع الفيجة قد علموا به وأكبروه . والعمل يتلخص بتشييد بناء لمؤسسة المشروع على الطراز الشرقي

الذي كان أبي مولعاً به لجماله وضرورة احيائه ومحافظتنا عليه، غير ان المفاوضات كانت جارية بين اصحاب الارض التي وقع اختيار اللجنة عليها في شارع النصر وبين اللجنة ، فما ان علم ابي باعلان الحرب حتى بتّ في شرائها وبادر الى المباشرة بالبناء وشراء ادواته بكاملها . فان حرصه على حفظ أموال المشروع المودعة في المصارف وخشيته من ان تصادرها سلطات الانتداب، لان فرنسا خاضت الحرب كما هو معروف، كانا السبب في إقدامه على البناء بسرعة، وقد هداه بُعد نظره الى شراء ما يحتاجه البناء من حديد واسمنت وغيره يقيناً منه بأن تلك المواد سوف تفقد من الاسواق بعد مدة وجيزة وبأن اسعارها سوف تبلغ ارقاماً خيالية . فقد كان مشروع إسالة مياه الفيجة شغله الشاغل منذ ان كان مجرد فكرة، فأسس لجنة وطنية لأخذ الامتياز من السلطات ونجح في تحقيقه وإدارته ، أمّا البناء الجميل الذي شيّده ودشنه سنة ١٩٤١ فانه سيظل على مر السنين ابلغ شاهد على ذوق رفيع تجلى في التصميم وفي الخطوط العربية الأنيقة والزخارف الشرقية ، ولا سيما في قاعة الاجتماعات الأثرية الكبيرة التي ما زال السياح يزورونها كأثر بديع نادر . كان ابي يفاخر بالبناء الشرقي والزخارف القديمة ويحرص كثيراً على المحافظة على طابعه ، وهذا ما حداه الى تكليف الفنان الدمشقي المرحوم ابي سليمان الخياط بتصميم قاعة المجلس النيابي السوري لدى بنائه ، والسعي في منحه وسام الاستحقاق السوري تقديراً لأعماله الفنية الهامة التي خدم بها الفن ودمشق . أوَليس تكريم الفنانين والعظماء واجباً قومياً ودليلاً على رقي الأمة واخلاقها ؟

* * *

ثورة على التضليل

لقد سمعنا بالحرب العالمية الثانية التي خاضها العالم واضطربنا لأحداثها انما من بعيد لبعيد ، فلا شرقنا تأذى منها ، ولا نحن تأثرنا بمآسيها ، وهكذا بقيت الحرب كلمة رهيبة بالنسبة الينا نحن الاحداث نقرؤها في كتب التاريخ ونجهل غبارها ونارها الجهل كله . عدت الى المدرسة مع اخواتي فكان همنا ان ندرس وننجح ، وكانت آمالنا معقودة على المستقبل السعيد الذي سيحررنا من هموم الدراسة ، ومن النهوض في ساعة مبكرة ، والتقيّد بالنظام المدرسي . واليوم بعد ان باعدت السنون بيني وبين عهد الدراسة النظامية اقول لجميع الطلبة الذين يقرؤون هذه الصفحات بدافع حبي لهم : لا تتعجلوا نهاية مرحلة الدراسة بل طولوها ما استطعتم الى ذلك سبيلاً بدراسات جديدة لأنها اجمل مراحل العمر واسعدها ، همومها خيوط من عنكبوت ، ومتاعبها ماء عذب قراح ، واعوامها وان طالت قصيرة ، خفيفة الوطء حلوة المذاق .

انتهجت خلال العام الدراسي ٣٩/٤٠ منهجاً جديداً في السلوك مع المعلمات والرفيقات أملاه عليّ تنبّه قوي لمعنى الوجود فجعلني انشد العمق في الامور والمشاهد والاشخاص ، واستمتع بكل ما كان يحيط بي ويلوّن ايامي ، وألتهم موادّ البرنامج بعزيمة لا تنثني ، ولاسيما الادب والتاريخ ، اما الدرس الوحيد الذي كنت امقته واخفق فيه فهو درس الخياطة الذي كان مفروضاً علينا ، ولا بد من ان اعترف بأن العداوة بيني وبين الابرة استفحل

امرها منذ ذلك الوقت ، بقدر ما بلغت الصداقة بيني وبين القلم والحرف اعلى مراتبها . جرت في مدرستي ذات يوم حادثة غريبة استثارتني فأقمت لها المدرسة واقعدتها احتجاجاً على فصل من فصول كتاب التاريخ المدرج في برنامجنا عن الامم القديمة . لقد ثرت ثورة عنيفة على ما ورد فيه من ازدراء للعرب والاسلام مؤذٍ غاية الايذاء لمشاعرنا ومعتقداتنا وللحقيقة نفسها . وخلاصة القصة ان الراهبة المكلفة بتدريسنا التاريخ استهلت شرح درسنا المقبل فقالت :

— « موضوعنا اليوم العرب ، وسوف نتحدث عن اصلهم ، وطباعهم ودينهم » . فأصغيت باهتمام مضاعف لأهمية البحث وصلته بنا ولأني فوجئت به اذ كنت خالية البال من ان الكتاب الذي بين ايدينا كان يتحدث عن العرب . أخذت الام (هيبوليت) تقرأ فصلاً مثيراً ، ملفّقاً ، بكل هدوء واطمئنان ، وكأنها كانت تلقيه على اعداء العرب ، او على جماد لا يعي ولا يشعر ، ولا يغضب لكرامته ... اخذت تقول ان العرب قوم ، بل قبائل متعددة من البدو الرحّل ، نشأوا في الجزيرة العربية على الفوضى والهمجية والغزو والجهالة ، المرأة عندهم كمّ مهمل ، اعتنقوا الاسلام الذي نشره في جزيرتهم بدويّ منهم هو محمّد ، ادّعى النبوة وادّعى ان جبريل اوحى اليه رسالته بآيات جمعها وألف منها كتابهم المقدس القرآن ...

كنت اسمع العبارة الآثمة تلو العبارة ولا اصدق ما اسمع ، غير ان الكلام كان واضحاً ، ومع ذلك فتحت الكتاب لأتحقق فوجدت ان الام هيبوليت كانت تنقل الينا ما فيه بأمانة دقيقة ... فلم اتمالك نفسي من شدة الغيظ ، لذا نهضت بلا استئذان لأدافع عن قوميتي وديني وعن الحقيقة ، فصحت اقول بصوت مهتاج :

ـ الدعيّ هو مؤلف هذا الكتاب ! انه دجال وجاهل لا يعرف شيئاً عن العرب ، وعن صفاتهم الحقيقية ، وعن شأن المرأة عندهم ، اما الاسلام فانه باعتراف الاجانب الذين درسوه دين مكارم الاخــلاق ! كيف تسمحين لنفسك بقراءة هذا النص الذي يقطر سمّاً أمامنا ؟ ليتك كنت عالمة بالقرآن إذن لأدركت انه كتاب منزل آية آية، وانه هو نفسه آية في البلاغة والاعجاز . ان المؤلف كذاب ، ودساس ، يريد النيل من امة العرب ، وتشويه الدين الحنيف، فأنا احتج عليك وعلى رئيسة معهدنا التي تسمح بالقاء هذا الدرس الآثم فيه.

وجمت زميلاتي في الصف كل الوجوم ، واذهلت ثورتي الام هيبوليت ، غير انها حاولت مقاطعتي اكثر من مرة بينما كنت اقذف الكلام قذفاً دون توقّف ، ثم قالت لي محتدة مضطربة ، وكان يجدر بها أن تفكر بخطورة الموضوع وتتكلم بروية

ـ ألا تستحين من مخاطبتي بمثل هذه اللهجة ؟ أعهدك مؤدبة ولكني ارى انك تجاوزت حدود اللياقة والتهذيب .

فأجبتها بجرأة زودني بها يقيني بأني صاحبة حق ، وكنت قد أهبت برفيقاتي ان يؤيدنني ويتضامنّ معي ، فاستجابت لدعوتي الآنسة أمل حياني بحماسة ، أجبتها قائلة :

ـ كلا انا لم اتجاوز حدود الادب ، والوقح هو كاتب هذا الفصــل المنكر ، كما ان قواعد اللياقة تقتضي منكن الا تدرّسن امثال هذه الكتب المشوّهة للحقائق في بلد مسلم عربي تعشن تحت سمائه وتأكلن من خيراته ! فأنا مضطرة للمعارضة ، ولوضع النقاط على الحروف ، بل ان واجبي يملي عليّ هذا السلوك . ولنفترض ان مثل هذا الكذب لا يضللنا ، اترابي وانا ، غير ان في المعهد مئات الصغيرات الساذجات وعدداً من الاجنبيات اللواتي

قد يتأثرن بمثل هـــذا الافتراء الشنيع فيما لو سكتنا نحن عنـــه ، وسنرى قريباً من المخطىء منا ...

قُرع جرس الانصراف بانتهاء كلامي ، فتأبطت كتاب التاريخ وخرجت قبل رفيقاتي متألمة لما جرى وعازمة على الانسحاب من المدرسة التي خيّبت آمالي . قصصت الحادثة على أبويّ بانفعال كبير ، فهدّآ من روعي ، وقال لي ابي اني احسنت بالاحتجاج ولو كان عنيفاً ، ولكنه اقنعني بضرورة اتمام دراستي في معهدي للتزوّد بالعلم ، والتمكن من اللغة الفرنسية ، ولا سيما لمراقبة المناهج ، والحيلولة دون بثّ ما يسيء الى تاريخنا وديننا . فاقتنعت بعد ان وافق ابي على نشر كلمة عن الحادثة في جريـــدة (الانشاء) لتنبيه الرأي العام عما يجري في بعض المدارس الاجنبية ، ولتحذير القائمين عليها من عواقب الاستهتار بقوميتنا وعقيدتنا . ولا بد من القول اننا أصبنا الهدف من نشر ما حدث في الصحف لان ادارة المدرسة سحبت كتب التاريخ هذه وأتلفتها ، كما ان الرئيسة أمست تراقب جميع الكتب التي كانت تُدرّس في صفوف التعليم الابتدائي والثانوي ، فتمحو منها العبارات او المقاطع المدسوسة على العرب والاسلام ... زادتنا هذه الحادثة المؤسفة تمسكاً بقوميتنـــا وديننا ، واصبح يُحسب لنا حساب في المدرسة لاحظناه في مراعاة تقاليدنا ، ومُنحنا فرصاً أطول عند حلول أعيادنا ، كما فهم القائمون على المدارس الاجنبية اننا ابناء شعب متيقظ جريء ، معتزّ بأصله ودينه .

لا شك في اني ازددت جرأة على اعلان كلمة الحق منذ ذلك اليوم في مختلف المجالات . كان الاعتداء والظلم وما زال كل باطل يؤذيني ، غير اني كنت افتقر الى العلم الصحيح ، والمنطق القويم للمجادلة فيه . ولقد فهمت ان العلم والثقة بالنفس والتمسك بالمبادىء أسلحة ماضية لكسب المعارك الفكرية

حيث تتبارى العقول المزوّدة بالحجج الراهنة والافكار الناضجة سواء في المناقشة أو في التأليف ، كما رسخ في ذهني حديث لأبي حول هذا الموضوع صرّح فيه بأننا نحن العرب مقصّرون بحق أنفسنا في ميدان الدعاية لقضيتنا ورسالتنا ، وما تقصيرنا هذا الا لتخلفنا في العلم والوعي القومي ، اي لجهلنا ما يُكتب عنا من جهة ، ولعجزنا عن الرد عليه بمثل مستواه الفكري من جهة ثانية . واذكر اني تأثّرت وتشاءمت غير ان ابي قال لي باسلوبه الرقيق ، وبعبارات مجبولة بالإيمان ، إننا ما زلنا في أول طريق النهوض، وإن من واجبنا ألا نيأس من بلوغ الأرب ، واضعين نصب أعيننا حقيقة راهنة وهي أن دون بلوغ أربنا المثابرة على العلم والبحث والتعمق فيهما ، مع الثقة بأنفسنا وبعدالة قضيتنا ، والاستعداد للتضحية في سبيلها .

فاجأتني امي في تلك الآونة بضرورة التحجب ، فبكيت وثرت واعترضت قائلة ان النقاب الشفاف الذي جرت بعض فتياتنا ونسائنا على ستر الوجه والرأس فيه ليس عاصماً للمرأة من الآثام ، وان الدين لم يفرض عليها حجب وجهها ، وان العصر الذي نعيش فيه ، والتحرر الذي ننشده ، يتنافيان مع الحجاب . وقلت لها وجدتي انني اكره النفاق لان مثل هذا الحجاب خارج المنزل وفي مدينة دمشق وحدها نوع من النفاق الكريه ... وجادلت ، وطلبت من أبي ايضاحات حول الموضوع ، فلم يبخل بها عليّ ، وكان في قرارة نفسه مقتنعاً بوجهة نظري ، ومع ذلك كان لا بدّ من المسايرة في ذلك الوقت لان الناس أخذوا يزعجون أهلي بملاحظاتهم وانتقاداتهم وتدخلهم بشؤوننا الخاصة ، وويل للناس من الناس في المدن الصغيرة والبلاد المتأخرة ! لقد اصبحت في نظر الناس صبيّة تلفت اليها الانظار اينما سارت ، لا بالتزين لاني لم اعرفه قبل زواجي ، ولا بالتفنّن باللباس لاني كنت ارتدي ابسط الثياب ، بل لاني بلغت سن الشباب ، وقد آن الأوان في رأيهم لكي اخفي

نضارتي مراعاةً للمحيط وأسوة ببناتهم ... وكانوا فوق هذا ينتقدون انتسابي الى مدرسة فرنسية ، ومخالطتي لفتيات اجنبيات ! ولو لم يكن مصدر أعنف هذه الانتقادات بعض المسنين المحترمين من افراد اسرتنا لما أصغى اليها أهلي ، لقناعتهم بأن اخلاق الفتاة المتعلمة كفيلة بأن تعصمها من الزلل سايرت اذن ، ولكن على مضض ، ورحت اطرح البرقع الشفاف على وجهي في حال مرافقة امي لزيارة الاهل والاصحاب ، ولا سيما الذين كانوا يقطنون احياء دمشق القديمة . وكنت ، وبعض اترابي اللواتي مررن بالتجربة ذاتها، نعلّق على هذا الحجاب الغريب ، فنزهو به احياناً بدافع ميلنا الى تقليد الصبايا والامهات ، وتمجّه عقولنا ونفوسنا أغلب الاحيان ، لاننا كنا نرفض الخوف من الناس ونعتبر ذلك النقاب ، على رقّته ، حاجزاً منيعاً بيننا وبين الحياة الحقة ، والنور الصحيح، لأنه كان يجرح كرامتنا ، ويحد من طموحنا وأمانينا . والبرقع هذا خفيف لطيف يجمّل المرأة ، ويستر بعض عيوبها ، ويغري الناس بمعرفتها عن كثب ، ولكنه يضعف ثقتها بنفسها ، ويضعضع ثقتها بالحياة ، ويلقي في روعها انها كائن ناقص معزول . تلك هي المشاعر التي كانت تنتابني لدى استعمال الخمار بكل صراحة ، غير انه لم ينقضِ عام واحد حتى انحسر ذلك القناع عن وجهي نهائياً ، حمداً لله ، حتى ان بعض اللواتي كن محجّبات اخذن بالسفور تدريجياً ، ما عدا المسنات كجدتي مثلاً ، لتحكّم العادة القديمة فيهن ، وجلّ ما اصبحن يفعلنه ، مسايرةً للتطوّر ، هو رفع النقاب عن وجوههن في بعض الأماكن العامة ، في المتاجر والمتنزّهات والاحياء الجديدة .

شعرت منذ بداية عهدي بالنقاب بأني اصبحت صبية حقاً ، وادركت مما كان يصل الى سمعي من عبارات اطراء وتعليقات ، كان يتبادلها حولي

الناس ، ان الشباب اخذوا يفكرون بي رغبة في الزواج ، ثم علمت بأن قد خُطبت اكثر من مرة، اذ فاتحتني امي ذات يوم بأمر خطيبين ، فخجلت من خوض الموضوع معها أيما خجل ، وارتبكت كل الارتباك ، ورجوتها باصرار ان توافقني على الرفض لشدة رغبتي في الحصول على شهادة الدراسة الثانوية (البكالوريا) على الاقل . ولا أدري لماذا كنت اتوجّس خيفة من المستقبل القريب لدى التفكير في الزواج ، والارجح اني كنت اتهيّب الامر ، لا كرهاً لفكرة الزواج ، بل اشفاقاً من مشكلاته ، واستياء من تقاليده المتّبعة آنذاك ! كنت اخشى كثيراً ان يوافق اهلي على خاطب لا أرتضيه ، او ان أُكره على الاقتران بمن اجهله ، وكنت ارى ان تعارف الشخصين المقبلين على اتخاذ أخطر قرار في حياتهما أمر اساسي ، وان قضية المهر وما يرافقها من مساومة بشعة شيء نابٍ يتنافى مع الكرامة ، ويحطّ من قدر الفتاة ، اذ كثيراً ما كنت اسمع قصصاً غريبة في هذا الصدد تضع الفتاة موضع السلعة التي تُشرى وتباع

دُعيت في ذلك العام الى عدة اعراس ، وحضرت احتفالين بصحبة امي فيهما من التقاليد المتوارثة المستحسن والمستهجن . اعراسنا القديمة صورة رائعة من صور حياتنا العائلية والاجتماعية في الماضي القريب ، لارتباط تلك الحياة بأعراف وعادات كان فيها الممتع ، كما كان فيها المزعج ، فقد كانت تقاليدنا في الافراح والاتراح على حدّ سواء جزءاً هاماً من حياتنا حتى النصف الاول من هذا القرن ، يحترمها الناس جميعاً على اختلاف طبقاتهم في سلسلة من المناسبات التي لا تنتهي ، ابتداءا بولادة الطفل وطلوع اسنانه وختانه وزواجه ، وانتهاءا بحجّه ووفاته . كانت مدينتنا يومئذ عبارة عن اسرة واحدة متكاملة ، او قل انها عدة اسر كبيرة مترابطة لا شغل لنسائها سوى التمسك

بالتقاليد ، والتسابق في اتقانها ، ودعوة اكبر عدد ممكن من القريبات والجارات والصديقات للمشاركة فيها ، اما اليوم وقد اتسعت المدن وتطورت الحياة العائلية بانفصال الابناء عن الآباء بعد زواجهم ، وتحررت المرأة من عبودية المجتمع « الحريمي » ، ان جاز التعبير ، اثر تعلمها وسفورها وممارستها العمل خارج المنزل، فقد اخذت التقاليد القديمة بالزوال شيئاً فشيئاً، وقلما أصبحنا نسمع بعرس كبير تقيمه النساء عـلى غرار الاعراس القديمة التي كانت ترهق ميزانية الاسرة ، وتشغل افرادها الايام الطوال استعداداً لما تتطلبه من تهيئة للملابس ، والزينة والطعام ، والدعوات . لقد غلب طابع البساطة على افراحنا في هذه الايام ، وفرضت الحياة الاجتماعية الجديدة الغاء بعض التقاليد ، والاقتصاد في بعضها الآخر ، حتى ان ما كان يتعلق منها بالمآتم تقلّص واصبح معقولاً بالقياس الى الماضي ، فان ما جرينا عليه من اسراف في الحداد ، وتشدّد في الحزن، نقلناه عن الفرس وغيرهم ، وكانت ضحيته دائماً المرأة !

أما عن الأعراس القديمة فلا بد من الاقرار بأن لها من المحاسن المستحبّة الشيء الكثير . ان من محاسنها البهجة العارمة التي ترافق الاحتفال ، واستقبال العروس ساعة قدومها الى دار الزوجية بالهتاف والغناء ، أما الزغاريد فاني استهجنها واجد فيها ما يؤذي السمع لتنافر الحناجر التي تطلقها مما يجعلها شبيهة بالعويل اكثر من شبهها بالتعبير عن الفرح والابتهاج . ثم ان طواف العروس حول بركة الماء التي تتوسط فناء دورنا القديمة ، تتبعها الفتيات رافعات الشموع بألبستهن الزاهية ، وهو ما درجنا على تسميته (التفتيلة) اي طواف العروس والصبايا مع الشموع الشاعلة على انغام الموسيقى وبمصاحبة الغناء ، لمن التقاليد الرائعة التي تضفي على العرس والعروس رونقاً خاصاً . ومنها كذلك ، بل من أجملها بلا ريب جلوة العروسين بالموسيقى والاناشيد التقليدية التي تطري

فيها المغنية مزاياهما ، وتتمنى لهما السعادة والبنين بعبارات رقيقة وبسيطة في آن واحد . وقد جرت العادة ان تتم الجلوة ساعة اقبال العروس الزوج على عروسه ، بعد انتهـــاء احتفال اصدقائه الرجال بزفافه ، وهو ما يسمونه (التلبيسة) ، فبانتهائها يوصل المحتفلون الزوج الجديد الى بيته حيث يسلم على عروسه ، ويجلس الى جانبها على المنصة (الأسكي) المهيأة لهما ، ولا بدّ له من تقديم حلية للعروس امام الناس ، ومن تقبيلها على خدها بعد الجلوة ، ثم لا بد لأهله وأهلها من تقديم التهاني للعروسين عن كثب ، وقطع المصاغ للعروس ، على قدر الامكانات المالية ... اما المستهجن من تلك التقاليد فهو ما كان مستنداً الى التطيّر والخرافة كاصرار اهل الفتاة على ان تلصق قرصاً من العجين على اول جدار تقابله في دار الزوجية ساعة قدومها اليها تفاؤلاً بطول مقامها فيها وبرسوخ قدميها مدى العمر ... أو كتعليم الفتاة المبادرة الى دوس قدم الزوج حين لقائه على المنصة قبل ان يدوس هو رجلها ، للاعتقاد الشائع بأن من يفعل ذلك اولاً من العروسين يكون غالباً لا مغلوباً ... ولا داعي الآن لذكر كل ما كان مستهجناً من تقاليد شائعة في الاعراس بعد أن اوشكت ان تنقرض ، ولأن انتشار العلم والتطور الاجتماعي في المدن وفي القرى كفيلان بالقضاء عليها وبالقضاء على كل تضليل .

* * *

من « السيارين » الى الاتهام بالقتل

استقبلت عام ١٩٤٠ مستبشرة به ، سعيدة في بيتي ومدرستي ، أنسج حلو الاماني على أعذب الاحلام ، وأنّى لي يومئذ ان أفطن الى ما كان يحمل ذلك العام في ثناياه من مفاجآت سيئة ! كنت فتاة واثقة في الغد ، لا يعكر صفوها الا ما كان يحدث احياناً من خلافات يسيرة بين ابويها لا تخلو منهـا الحياة الزوجية ، ومع ذلك كنت راضية عن نفسي كل الرضا لأني ايقنت في عدة مناسبات أني وسيط خير ، قادرة على تصفية الجوّ بكلمة طيبة واسلوب لبق . وما عدا ظهور أمثال تلك السحب الخفيفة في جوّ بيتنا استطيع ان اقول ان المرح كان يغلب فيه الكآبة ، وان السرور كان مهيمناً عليه ، لا سيما في سهرات الشتاء الممتعة ، ونزهات الربيع ، ورحلات الصيف . اما ليالي الشتاء الطويلة وما كان يحدث فيها من سهرات ممتعة فالفضل فيها يعود الى صديقةً للاسرة ، خفيفة الظلّ ، حاضرة النكتة ، طلية الحديث ، وهبها الله ذكاءً فطرياً حاداً ، هي الآنسة عائشة القنواتي رحمها الله . وعندما كانت تلك الصديقة تأتي لزيارتنا كانت الشمس تشرق في دارنا ، وتنشر في ارجائها البشر والأنس والدفء ، على الرغم من ايام الشتاء الماطرة ولياليه الباردة كنا ، اخوتي وانا ، نُسرع في إخفاء امتعتها ، ونتوسل اليها ان تقضي بضعة ايام عندنا ، وكانت تقبل رجاءنا ودعوتنا فنقضي معها أياماً وليالي هانئة ، قوامها النكتة الطريفة ، والنوادر الجميلة ، واللهو والضحك ، بينما كان أبي مشغولاً عنا اكثر الاحيان بأعماله الكثيرة واجتماعاته الحزبية ، ولم يكن غريباً بعد تلك

السهرات الطويلة المؤنسة ان أصحو في الصباح المبكّر نشيطة جذلة لأستأنف الدراسة لأن المرح يغذي الفكر والجسم اضعاف ما يغذيهما النوم بدون شك ، كما ان الاسراف في الجد المتواصل والصرامة في الحياة البيتية يسئم الروح ويبلّد الذهن . سمعت جدتي تقول اكثر من مرة انه لا بد من إشاعة المرح في الحياة لكي تنشط الروح والفكر معاً ، وكانت هي نفسها محور تلك السهرات الحلوة تديرها بلباقة وظرف ، وكأنها تتمثّل بابن زيدون اذ قال

واغتنم صفو الليـــالي   انما العيش اختلاس

اما ربيع دمشق فان له في ذكرياتي أحاديث واحاديث لما فيه من روعة وبهجة ، ونفحاتٍ هي من عبير الجنة ، لست اول من يتحدث عنها ، اذ هام بغوطتنا وربيعنا جميع الذين عرفوهما . فكثيرون هم الذين وصفوا مياه دمشق ورياضها ، وقرنوا ذكرها بالخضرة والاظلال ، بالسواقي والانهار ، وبأجمل الرياحين وأشهى الثمار ، ويخيل الي ان الدمشقيين كانوا في الماضي اكثر ولوعاً بالطبيعة وتفرغاً للاستمتاع بها ، وذلك يوم كانت (السيارين) جزءاً من تقاليدهم الجميلة ، لا في الربيع فحسب ، بل في الصيف والخريف كذلك . فلقد كنا نعدّ العدّة للجوء الى البساتين في ايام العطل مصطحبين معنا سلالاً مملوءة بأطيب المأكولات ، وغالباً ما كنا نقضي النهار في حديقة جميلة يملكها جدي لأمي في حيّ الصالحية تدعى : « جنينة الزنبقية » ، نسرح في ارجائها ، ونطرب على طرب اهلنا واصدقائهم ، اذ كان من شروط تلك (السيارين) دعوة الظرفاء اليها ، والمطربين احياناً . ففي الربيع كنا نحبّ الجانرك الاخضر كثيراً ، و (العوجا) وهي نوع من اللوز يؤكل اخضر وينبت في بساتين دمشق والغوطة خاصة ، و (القرعون) أي ثمرة المشمش قبل نضجها ، فنهجم نحن الصبايا على الاغصان ، وكأننا سرب من الجراد !

وكانت اشجار المشمش والخوخ والدراق تستقبلنا بأذرع مفتوحة وكـــرم حاتمي ، بينما كان الكبار يقطفون الباذنجان والفول ويقلونهما امامنا ، وهم يحضّرون سائر المقبلات ، مما كان يزيدنا رغبةً في الطعام ، ويجعل له طعماً لذيذاً لم نكن نجده فيه داخل البيوت . جرت العادة ان يحمل سائر المتنزهين زادهم الى مختلف الرياض التي كانوا يختارونها ، وكانوا وما زالوا يؤثرون جوار الانهار او الينابيع ، فيقصدون متنزّه النَّيْربين في ربوة دمشق ، ووادي بردى ونبعه ، وعين الخضراء ونبع الفيجة . أما المأكولات المفضلة فهي الى جانب المقبلات الشواء بأنواعه ، أو المعجنات كالصفيحة (اللحم بالعجين) والفطائر بالجبن و (العجّة) او ما جرى الناس على تسميته (النواشف) في بلادنا ، وهي انواع الكبة والكفتة وغيرها ، أو بعض الاطباق اللذيذة التي يجري إعدادها مسبقاً في البيت أو تتسلى النساء بطبخها في المتنزّه كالرزّ بالفول مثلاً والفريكة (وهي قمح مهروس ومشوي يضاف اليــه لحم الخروف والسمن) الخ ...

اما جبل قاسيون الشامخ الجميل الذي يحتضن مدينتنا الوادعة بحنان فقد كان له نصيب في رحلاتنا الترفيهية ، ولا سيما موقع (الأربعين) في قمته و (قبة السيار) و (مغارة اهل الكهف) الواقعتين على سفحيه الغربي والشرقي . اذكر اننا كنا نفرح كثيراً بأمثال تلك الرحلات الرياضية التي كان ينظمهـــا اخوالي الشباب ويستعدون لها بتهيئة بغل أو أكثر لحمل الزاد ومن يعجز عن التسلق من نساء واطفال ، فكنا نغادر منازلنا مع شروق الشمس تجنباً لحرارتها ، ونبلغ هدفنا غير عابئين بالتعب بفضل قيادة خالي حكمت المشهور بنكاته وظرفه . كانت تتخلل الرحلة مسابقات لطيفة ، واستراحات خفيفة ، ومداعبات وفكاهات كان الخال حكمت يبرع بتدبيرها ، ويجد في طاعتنا لأوامره الحكيمة ،

وفي محبتنا القلبية له، المكافأة على تعبه، لا سيما واننا انتخبناه (كبار الاسرة وصغارها) رئيساً مطلق الصلاحيات للرحلات والنزه والسهرات والحفلات.
ان لقبّة السيار التي اتيت على ذكرها اسطورة طريفة مفادها ان سكان دمشق العلماء قد بنوا تلك القبة في قديم العصور تخليداً لذكرى رجل متدين صالح كان يدعى سياراً، قضى عمره يتعبد على سفح قاسيون في موقعها الحالي. ويقال ان سياراً هذا وناسكاً آخر يدعى بشاراً، كانا من أهل الحظوة، واصحاب الفضائل، وان بشاراً كان يتعبد في رأس جبل الربوة، فاذا أراد احدهما الاجتماع بالآخر وضع قدمه على جانب السفح، والقدم الثانية عند صاحبه، فيتّم اللقاء بمثل لمح البصر...

اني أحفظ لصيف ذلك العام ذكريات جميلة لاختلافه عما سبقه، فلم نستأجر داراً في الجبل لأن امي آثرت البقاء في دمشق الى جانب ابي الذي اقتضت اعماله البقاء فيها، ولكننا قضينا اياماً متفرقة في كل من بلدة عرنة بالقرب من جبل الشيخ، وصيدنايا والتل ومنين ومعلولا ويبرود وغيرها، كما اننا قمنا برحلة قصيرة إلى منطقة الأرز وما يجاورها من بلدان رائعة كإهدن وحصرون وبشرّي. غير انه حدث ما عكر صفونا منذ اليوم الذي اغتيل فيه الدكتور عبد الرحمن الشهبندر في عيادته وهو الزعيم الوطني الكبير الذي اشتهر بعلمه وبلاغته الخطابية. كان لاغتياله وقع أليم في مختلف المدن السورية وعواقب غير محمودة، وذلك بأن استدعي ابي وعدد من اخوانه عقب اغتياله لاعطاء افادتهم عن مقتله اكثر من مرة. لقد لبى ابي الطلب وأدلى بافادته مستنكراً الحادث المؤلم ومستنكراً استدعاءه هو شخصياً للتحقيق، وقال انه لم يسمع باسماء القتلة المجرمين الا حين قرأها في الصحف، وكانت السلطة ألقت القبض على افراد العصابة الذين قتلوا الدكتور الشهبندر باسم الدين ما عدا واحداً منهم تمكن من الفرار. اضطرب ابي لأنه تأكد

من ان خصومه يحوكون مؤامرة ضده وضدّ بعض الوطنيين من اخوانه لاتهامهم بقتل زعيم المعارضة المغفور له الدكتور الشهبندر ، وكان المحققون قد استدعوا كلاً من السادة سعد الله الجابري ، وجميل مردم بك ، وشكري القوتلي ، لأخذ افاداتهم . وظلّ الامر مكتوماً منذ تاريخ اغتيال الدكتور الشهبندر في شهر تموز حتى منتصف تشرين الاول ، واعضاء الكتلة الوطنية يأملون أن يعود الفرنسيون عن غيّهم ويثوبوا الى الرشد قبل ارتكاب هذه الحماقة بإلصاق التهمة بهم . لذا لم يخطر لي ببال ان والدي أو أحداً من اخوانه يمكن ان يُمسّ بأذى أو أن تبلغ الدناءة بالخصوم حدّ اتهامهم بجريمة منكرة ذهب ضحيتها أخ مناضل مثلهم ، وصديق عزيز عليهم ، على الرغم من اختلافه معهم ببعض الآراء السياسية . وأذكر ان الزعيم الشهبندر كان في زيارتنا قبل اغتياله بأيام ، لما بينه وبين والدي من روابط ودية قديمة ، وان امي قد استشارته طبياً يومذاك ، وأذكر كذلك ، وأنّى لي ان أنسى ، ان نبأ قتله وقع علينا وقع الصاعقة ، وان أبي تجهّم وحزن للخسارة الفادحة بفقد علم من اعلام الفكر والعروبة ، ثم عدّد لنا مناقب الفقيد ، وأشار الى خشيته من انتشار الاغتيالات في بلادنا . لهذا كله عدت الى مدرستي بعد انتهاء الصيف سعيدة مطمئنة ، وخالية الذهن تماماً مما كان يُدبّر في الخفاء من مؤامرات سياسية للنيل من الوطنيين الاحرار ، الى ان كانت ليلة الخامس عشر من تشرين الأول الرهيبة . لقد حملت لنا تلك الليلة آلام مفاجأة عشناها فحرمتنا النوم ، وسرقت من قلوبنا السعادة . واغتالت الابتسام من شفاهنا جميعاً ، والطمأنينة من نفوسنا ! صادف شهر رمضان المبارك في تلك الفترة ، وكنا في البيت صائمين ، ما عدا اخوتي الصغار ، ولا يخفى على أحد ما لشهر الصيام من تقاليد جميلة في بلادنا ، ففيه يجتمع شمل جميع العائلات وقت الإفطار ، وتتلوه الزيارات لتفقّد الأهل والاصدقاء ،

والسهرات الممتعة التي كثيراً ما كانت تمتد إلى ساعة السحور قبل الفجر . أحسست ليلة الثلاثاء بأن الجوّ في دارنا مشحون بالمزعجات لا بدافع حدس غريب ، إنما استناداً إلى قدوم رجل من رجال التحرّي للسؤال عن أبي باصرار ، وكان أبي يقوم ببعض الزيارات ، ولم يكن مألوفاً ان يسأل عنه أحد من أفراد الشرطة السريّة لا في الليل ولا في النهار . فقد لاحظت اضطراب أمي ، ولا ريب في ان لها حدساً لا يخطىء برهنت عنه مراراً ، ويعود الى حسّها المرهف وخبرتها بالحياة . رجع أبي قبيل منتصف الليل وكنت ساهرة على دروسي في غرفة الجلوس بينما كانت أمي قلقة تفرط في التدخين . فأعلمته بقدوم شرطي التحري للسؤال عنه ، وبعد لحظات قُرع الباب واذا برجلين من الشباب الوطني يرجوانه ان يرافقهما بالسرعة الممكنة الى دار صديقه السيد جميل مردم باك للتداول بأمر مستعجل، وكانا قد همسا اليه ببعض العبارات .

ذهب أبي ورفضت أمي اعلامي بما جرى ، أو بما يُتوقع حدوثه، وطلبت مني ان استريح ، فلجأت الى سريري منقبضة الصدر ثم غلبني النوم . يبدو ان انتظار امي قد طال ، وان القلق استبدّ بها لأنها أيقظتني في حوالي الثانية صباحاً وهي تقول :

– انهضي يا سلمى للجلوس معي ، فالساعة قد تجاوزت الثانية صباحاً وأبوك لم يرجع بعد !

فنهضت مذعورة ، وتملكني اضطراب شديد ، وبينما كنا نحاول تعليل تأخره عن العودة ونتنقل من الشرفة الى النافذة على غير هدى رأيناه قادماً مع أحد أعمامي . وعندما وصلا الى الدار كان مجرد النظر الى وجهيهما يدلّ بوضوح على خطورة الموقف ، فشرحه لنا عمي وقال :

– علمنا الليلة من مصدر موثوق متصل بدوائر الأمن العام الفرنسية ان النية معقودة على توقيف أخي مع زميليه جميل مردم بك وسعد الله الجابري ، فاستقر رأي الاخوان الذين كانوا مجتمعين قبل قليل على ضرورة لجوئهم الليلة الى العراق ، اذ لا يجوز استسلامهم الى خصومهم المتآمرين ، وعلى رأسهم المفوض السامي نفسه (بيو) Puaux الحاقد على الوطنيين ، وعلى أخي خاصة منذ يوم استقالته من رئاسة الوزراء في ربيع ١٩٣٩ . وبما انه ثبت لدينا تآمر الفرنسيين والحكومة عليهم للنيل من كرامتهم ولتشويه سمعتهم بمحاكمتهم مع القتلة المجرمين ، وبما أنهم أبرياء لا شك في ظهور براءتهم لدى المحاكمة ، لم نقبل ان يذهبوا ضحية التآمر والغدر ، بل وجدنا الحكمة في ان ينجوا من أنياب الخصوم بالسفر في الحال واللجوء الى العراق الشقيق .

اتخذت امي موقفاً جازماً مشجعاً حسب عادتها عند مواجهة الشدائد، لأن أبي كان ميالاً الى تسليم نفسه في الغد لوثوقه من براءته ، وقد ازداد اصراراً على رأيه عندما استيقظ اخي الصغير بشر ، وكان في الرابعة من عمره ، وتعلق به مرتعشاً باكياً ، وكأن روحاً خبيثة قد أيقظته ورمت الرعب في قلبه الصغير . ولكننا تمكنّا من اقناع أبي بالسفر ، واذكر اننا بلّلنا الثياب التي وضعناها في الحقيبة بالعبرات ثم قبّلناه وودعنا بوداعه الهناء ، واعتصمنا بالصبر .

كان اتهام أبي بالقتل الصدمة الأولى التي هزتني ، وصهرت قلبي بالألم واستدرت من عيوني سيلاً من العبرات ، ولكن ايماني الكبير ببراءته ، وبغد مشرق يدحض الباطل ويُظهر الحق، كان السدّ المنيع دون اليأس . وعندما أعود بالذاكرة الى الأسابيع العصيبة التي عشتها أنا وأهلي ، والتي عاشتها دمشق آنئذ . وعندما أستعرض تفاصيلها في صفحات مذكرتي اليومية التي دونتها اثناء المحنة تظهر لي الأحداث المتعاقبة بوضوح فأرتعش لذكراها وأيّ

ارتعاش ! قضينا ثلاثـــة أيام بين الشك واليقين ، ننتظر على أحرّ من الجمر نبأ وصول والدي وزميليه الى ملجئهم ، وكان خبر سفرهم قد شاع في المدينة فأخذ الاصدقاء يتوافدون على دارنا معربين عن استنكارهم للمؤامرة ، وعن ابتهاجهم بنجاة الوطنيين من السجن والظلم ، كما شاع فيها خبر مزعج هو ان السلطات الفرنسية علمت بفرارهم وارسلت الطائرات الى الصحراء للبحث عنهم فعثرت على سيارتهم قبل ان يجتازوا الحدود العراقية . وأرجعتهم مخفورين الى السجن ... ولا أبالغ اذ أقول ان عقولنا نبذت تلك الاشاعة المغرضة ، المحطّمة للأعصاب ، نبذاً نهائياً يصعب عليّ تفسيره . ولكني أعزوه الى دفقة من أمل ، ونفحة من رجاء ، حتى كان مساء اليوم الثالث بعد سفرهم الذي حمل البشرى بوصولهم سالمين الى بغداد . حيث وجدوا من اخواننا العراقيين ، حكومةً وشعباً . أحسن تكريم . وبعد اسبوع استأنفت الدراسة . ولكني انتميت الى مدرسة وطنية ، الى (دوحة الادب) استياءً من كل ما يلوذ بفرنسا ، وكان الزعيم الوطني السيد شكري القوتلي قد زارنا في الدار وأعلمنا بأن عدداً كبيراً من خيار المحامين العرب ، سوريين ولبنانيين ، قد تطوّعوا للدفاع عن شرف سورية بالدفاع عن رجالاتها المخلصين ، وأن الرأي العام العربي قد أعرب عن استنكاره اتهامهم بمختلف الوسائل ، ببرقيات عنيفة ، ومذكرات احتجاج أرسلت الى سلطات الانتداب والحكومة الموالية لها ، وختم الزعيم القوتلي حديثه مؤكداً لنا سهره على ملابسات القضية ، وقناعته بظهور براءة ابي واخوانه في النهاية على الرغم من الغيوم الدكناء المتلبدة في الجوّ . وفي اليوم التالي نشرت بعض الصحف المحلية صوراً للمتهمين السياسيين الى جانب صور القتلة المجرمين ، فساءني مثل هذا التحامل على الوطنيين قبل ثبوت اشتراكهم في الجريمة من صحف كانت بالامس تمجدهم ، ولكني أدركت ان العمل السياسي مخاطرة دونها جميع المخاطر ، لا سيما في بلد فتيّ

مثل بلدنا ، كما وقفت على حقيقة موجعة هي ان الدنيا مع الواقف او الحاكم كما يقولون ، والويل كل الويل لمن تلمّ به الملمّات ... لقد تألمت كثيراً يومذاك .

أرسلت لابي قصاصات الصحف التي اتحدث عنها ضمن رسالة مطولة اعربت فيها عن استيائي من اصحابها ، واعلمته بأني قطعت اشتراكنا القديم فيها ، فلم يحبّذ ما فعلت وهو محقّ ، فأنا اعترف بأني كنت متسرعة عاطفية ، وقليلة الخبرة في الحياة ، ولا سيما في السياسة ومناوراتها . كنا نستمد من رسائل أبي المتواصلة القوة لمواجهة الشدائد ، والايمان بأن بعد العسر يسراً ، وكنت اكتب اليه باستمرار وانقل له الحوادث اليومية الهامة باسهاب ، فألقى منه ومن اصدقائه الذين كانوا يطلعون على رسائلي تشجيعاً كبيراً ، كان أعظمه وقعاً في نفسي العبارات الجميلة التي خصّني بها شاعر العرب الكبير الاستاذ بدوي الجبل ، وكان مقيماً في العراق آنئذ . لقد اغتبطت بتهنئة بدوي الجبل على رسائلي ، وعزمت على ان اصبح ذات يوم عند حسن ظنه بي ، لأنه كلف ابي بابلاغي انه يتنبأ لي بمستقبل جميل في عالم الادب ، فكيف لا يكون لشهادة شاعر عبقري أعمق الاثر في نفسي ؟ وكيف لا يمتلىء قلبي حبوراً بها ولا تزيدني ثقة بنفسي وبالمستقبل ؟ وقد أرسل لي والدي رائعة من روائع بدوي الجبل كتبها في بغداد بعد هزيمة فرنسا في الحرب ودخول الألمان مدينة باريس في حزيران ١٩٤٠ . فحفظتها عن ظهر قلب ، ورحت ألقيها بحماسة لان الشاعر الكبير والوطني المناضل الذي عانى من طغيان المستعمرين الكثير قد عبّر فيها ببيانه الساحر عما يختلج في صدور العرب الأحرار من مشارقة ومغاربة الذين ذاقوا مرارة الاستعمار الفرنسي ، وفيها يقول :

يا سامر الحيّ هل تعنيك شكوانا رقّ الحديد وما رقّوا لبلوانا
قل للألى استعبدوا الدنيا بسيفهمُ من قسّم الناس احراراً وعبدانا ؟
سمعتُ باريس تشكو زهوَ فاتحها هلا تذكرت يا باريس شكوانا ؟

عيد بعيدين

تألف مجلس عدلي للمحاكمة برئاسة قاض فرنسي نزيه هو السيد (بوريفيه) (Purifié) الذي عُرف بالنزاهة اذ كان رئيساً لمحكمة الاستئناف الأجنبية في مدينة حلب ، واختارت السلطات العقيد مصطفى حكمت العدوي للنيابة العامة ، على ان تعقد اولى الجلسات للنظر في اغتيال الزعيم الشهبندر في التاسع من شهر كانون الأول . تضاعف عدد المحامين الذين تقدموا للدفاع عن المتهمين الموقوفين وبينهم السيد عاصم النائلي أمين سر السيد جميل مردم بك ، والمحامون هم من اعلام القانون امثال الاساتذة حسني باقي ورزق الله الانطاكي وصلاح الطرزي من سورية ، ومختار المخيش وحبيب ابو شهلا واميل لحود وجان جلخ والياس نمّور من بيروت ، ورأوا في توقيفه فصلاً جديداً من اسطورة المؤامرة على الابرياء ولا انكر أني كنت أتوجس خيفة من ان تصبح الاسطورة حقيقة لأن الامور كانت تزداد تعقيداً ، وذات يوم التقيت على سلّم الدار بشرطي سألني عن أبي فقلت له انه مسافر ، وعندما علم أني ابنته سلمني انذاراً في غلاف مختوم ففضضته امام الباب لكي اخفيه عن أمي تجنباً لازعاجها ، وحسناً فعلت لأنه كان انذاراً عنيفاً بأن على والدي ان يسلّم نفسه للعدالة في غضون عشرة ايّام ، وانه سيحاكم غيابياً وتصادر جميع املاكه ان لم يسلّم نفسه ! وقّعت باستلام الانذار بيد مرتجفة وأنا أتميّز غيظاً وألماً ، وكتبت على الغلاف : « عندنا املاك بقدر ما عندكم عدل فاحجزوا عليها اذا استطعتم » . ولم استطع اخفاء الامر عن والدتي وجدتي اذ لاحظتا

اضطرابي فأعلمتهما بالتعليق الساخر الجريء الذي كتبته على الغلاف ، فقالت جدتي باشّة :

ـ حيّاك الله يا سلمى ، فليحجزوا على الاملاك ان وجدوها ، وانه لمما يشرف أباك ويشرفكم انه باع ما ورثه عن جدك ، وبذل وما زال يبذل نفسه وما تجني يداه على القضية الوطنية في سبيل حرية الوطن واستقلاله .

ولكن أمي ، على خلاف الجدة ، لامتني على كتابة التعليق ونعتته بالتسرع والصبيانية (الولدنة) كما نقول باللهجة الدارجة في دمشق ، ووجدت انه لا يليق بل ربما يسيء . كانت أمي محقة وبعيدة النظر ، وكنت اغبطها دائماً على هدوء أعصابها واتزانها حيال الازمات ، لذا عاهدت نفسي منذ ذلك اليوم على العمل بنصيحتها وهي ان أعدّ للعشرة قبل المبادرة بالكلام أو بالعمل .

جاء عيد الفطر ونحن قلقون محزونون لغياب رب بيتنا عنا في ظروف قاسية ، وقد جدّدت ايامه الثلاثة ولياليه ألمنا ، وضاعفت وحشتنا كباراً وصغاراً ، غير اننا تجلدنا امام الأهل والأصدقاء الذين غمرونا بعطفهم وودّهم . والذين تمرّ عليهم الأعياد في حالٍ مثل حالنا أدرى بوطأتها الموجعة للنفس ، فإن مظاهر العطف التي كنت ألقاها من الآخرين ، وعبارات المواساة التي كنت اسمعها منهم كانت تُسيل دموعي ، وتنكأ جراحي ، وتُشعرني بأننا نستدعي الشفقة ، وليس أمضّ على الانسان من ان يصبح موضع شفقة الناس ! ربما كنت واهمة ، وربما كنت مفرطة الحس ، ولكني كنت فريسة العذاب سواء في البيت أو في المدرسة ، ولم يكن يعزّيني شيء اكثر من الصلاة والابتهال وكتابة يومياتي ومراسلة أبي . عوّدنا أبي على الصراحة والبوح بالحقيقة وان كانت تديننا . وقد جريت على مصارحته بكل شيء لما كنت القى من تفهّم وتوجيه فيهما العطف الصحيح ، والرفق كله . فكان ينهاني عن التدخين خشية

ان تنتقل اليّ عدواه من والدتي وجدتي ، غير ان جدتي سمحت لي باشعال سيجارة ذات ليلة كنت فيها منقبضة الصدر ، فوجدت فيها كاشفاً للغم ومتعة استعذبتها ، وصرت انتظر الليل وساعة رشف القهوة والتدخين بشوق كبير . وقد كتبت اليه أخبره بالأمر ، وقلت له اني كنت في غنى عن التدخين لولا المحنة التي كان هو محورها والتي هزتنا جميعاً ، ووعدته بالتوقف عنه بعد زوالها ، وهكذا كان ، ولكن الى حين ...

وجدت في مدرسة « دوحة الأدب » تغييراً جذرياً في المنهاج والاشخاص بالقياس الى ما سبق وتعودت عليه في الفرنسيسكان ، ولكني اندمجت في البيئة الجديدة بسرعة وألفتها ، وسعدت بمعرفة معلمات ورفيقات طيبات فانعقدت بيني وبين بعضهن أواصر صداقة متينة . كان المنهاج في المدرسة الجديدة باللغة العربية ، غيراني لم ألق صعوبة الا في الرياضيات ومصطلحاتها لأني كنت ادرس الهندسة والجبر باللغة الفرنسية ، وأما المعلمات فقد أحطنني بالعناية من بعيد لبعيد ، ما عدا واحدة منهن شاركتني مشاعري ابان تلك الازمة وكان لها فضل كبير في مواساتي وتقوية أملي بالغد ، هي الآنسة حياة اليافي . كانت حياة ، على صغر سنها يومئذ ، تدرّس في الدوحة ، وكانت بين اسرتينا روابط ودية قديمة عن طريق اخيها الوطني المجاهد الأستاذ أبي الهدى اليافي الذي كان مُبعداً عن الوطن يومئذ ، فوجدت فيها خير صديقة ، وأعزّ رفيقة ، لما تمتاز به من دماثة خلق ، ونبل مشاعر وأصل ، وسعة أفق . اطلعت حياة على يومياتي فأعادتها الي بعد يومين وقالت لي انها تأثرت بمضمونها مما دفعها الى تسطير كلمة فيها ، فأعجبت بأسطر حياة الاعجاب كله ، وأسفت لأن يومياتي هاجت أشجانها ، وقد نشرت عباراتها الرقيقة البليغـــة في كتابي (يوميات هالة)[1]

---

(١) يوميات هالة – دار العلم للملايين – بيروت ١٩٥٠.

استغرقت محاكمة المتهمين بقتل الدكتور الشهبندر شهرين الا يومين، وكانت محاكمة تاريخية انتهت ببراءة السياسيين (أبي ورفاقه) والاستاذ عاصم النائلي ، وبالحكم بالاعدام على القتلة أحمد عصاصة واربعة من رفاقه ، أما الآخرون الذين اشتركوا بالجريمة فقد صدرت بحقهم احكام مختلفة . جرت المحاكمة العلنية التي احدثت دوياً كبيراً في الاوساط العربية في قاعة البرلمان السوري خلافاً لكل عرف ولكن نزولاً عند اصرار الحكومة والذين كانوا وراءها في اتهام الوطنيين بقصد إدانتهم وتلويث سمعتهم ... زعموا انهم قرروا عقد الجلسات في مبنى المجلس النيابي لاتساعه ، ولكنهم في الواقع كانوا سيئي النية يبغون إذلال الوطنيين في المكان الذي شهد لهم بالعزّ والسيادة ، فأحبط الله اعمالهم وفضح نواياهم الخبيثة اذ انكشفت خيوط المؤامرة الرهيبة خلال المحاكمة وسطعت براءة الوطنيين الاشراف سطوع الشمس في السماء . حضر الجلسات العنيفة جمع غفير من السيدات والرجال ، وكانوا يخرجون منها بين ضاحك وباك لاختلاف ألوانهم السياسية والاخلاقية ، لان ما كان يسرّ أنصارنا ، بل أنصار الحق ، في سير المحاكمة ، كان يسوء خصومنا والمتآمرين علينا الذين سهروا على إحكام خيوط مؤامرتهم الشنيعة ، وجندوا قواهم لتلبيسنا الجناية ، غير انهم نسوا ان للباطل جولة وان للحق جولات ، ان الباطل كان زهوقاً ! أما رئيس واعضاء المجلس العدلي فلقد برهنوا عن نزاهة متناهية ، وتجرّد تام ، وصبر طويل ، واثبتوا ان حرمة القضاء مصونة حتى في ظل الانتداب الفرنسي .

اعترف قتلة الزعيم الشهبندر اعترافات مذهلة فاجأت المحكمة والنظارة، كان اولها (اعتراف الغندور) اثناء استجواب الرئيس له في جلسة التاسع عشر من كانون الاول اذ قال انه أُرغم على الادلاء بافادة كاذبة ابان التحقيق مفادها ان الذين دفعوه ورفاقه لارتكاب جريمة القتل هم أعضاء الكتلة الوطنية :

لطفي الحفار وسعد الله الجابري وجميل مردم بك ، واضاف انه وقّع على تلك الافادة تحت الضغط في دار احد كبار المسؤولين التي نقل اليها ليلاً من السجن ، ثم قال : « وعدوني بمبلغ من المال وباطلاق سراحي فسايرتهم ، ولكني اقسم اليوم بديني وشرفي بأني لا اعرف احداً من رجال الكتلة الوطنية ، ولم يكن لهم علم بما فعلنا لأننا اقدمنا على قتل الدكتور الشهبندر بدافع ديني بحت ، وانا لا أريد ان اظلم احداً ! »

وكان الاعتراف الثاني الفاصل اعتراف القاتل نفسه أحمد عصاصة بعد انقضاء اسبوع على اعتراف شريكه الغندور ، وبعد ان استمعت المحكمة الى عدة شهود في جلساتها المتعاقبة ، وبعد ان أرهق محامو الادعاء المتهمين بالاسئلة والاستجوابات التي كانت تؤيد اعتراف الغندور وتثبت براءة النائلي والوطنيين بوضوح تام . كان عصاصة ينكر اقتراف جريمة القتل بيده ، ويتهم شريكه (الحرش) الذي تمكن من الهرب بتنفيذ القتل ، فأتى محامو الادعاء بشيخ من العلماء المحترمين (الشيخ محمد مكي الكتاني) لكي يعظ المتهمين عساهم يعترفون بالحقيقة . حضر الشيخ الكتاني وأخذ يتحدث اليهم حديثاً مؤثراً بليغاً حضهم فيه على الاعتراف دون خوف من المحكمة ، ثم توجه الى عصاصة وخاطبه واستحلفه بالقرآن على الاقرار ، واخرج من جيبه فتوى بتوقيع مفتي دمشق سماحة الشيخ محمد الاسطواني كان الهدف منها تنبيه القتلة الى ضرورة حفظ دماء الابرياء . فسالت عبرات المتهمين واولهم احمد عصاصة الذي بكى لفرط تأثره بما سمع ، ونهض بشجاعة وقال بأعلى صوته : « انا القاتل ! انا القاتل ! » ساد التأثر في القاعة لهذا الاعتراف الصريح ، وهيمن عليها الوجوم . فطلب الرئيس الى القاتل ان يمثل الجريمة وان يكشف عن عواملها والعاملين فيها والدافعين اليها . فقبّل القرآن بين يدي الشيخ الكتاني ، الذي

كان لسحر بيانه ولبلاغة وعظه الفضل في حثّه على الاعتراف ، وأخذ يبوح بأسرار المؤامرة التي أدت الى اغتيال الدكتور الشهبندر بالتفصيل وبمنتهى الصراحة . فثبت من اقواله ان لا علاقة البتة للسياسة وللسياسيين فيها ، وان أسماءهم قد ذكرت في افادات بعض الموقوفين ظلماً وبهتاناً لأن المسؤولين لقّنوهم تلك الاسماء ... اكد عصاصة انه قتل وشركاءه الدكتور الشهبندر بدافع ديني لأنه (على زعمهم) ملحد ومنكر للرسالات السماوية ، ومن المؤسف حقاً ان تخسر سورية وطنياً عالماً مثله بسبب التزمت والتهور من قبل شباب متحمسين للدين وجاهلين لجوهره ومبادئه الانسانية المثلى في تحريم القتل ، والدعوة الى العلم الصحيح .

قلما تحدث في المحاكمات مثل هذه المفاجأة الرهيبة التي قامت لها سورية وقعدت والتي جلت الحقائق للمحكمة والجمهور . حمدنا الله كثيراً على ظهور براءة ابي واخوانه، وتمنيت ان أحمل البشرى اليهم على بساط الريح لو استطعت ، لان الخطوط اللاسلكية كانت مقطوعة يومئذ ، فكتبت الى والدي رسالة سلمتها الى صديق مسافر الى بغداد وختمتها بمطالعات شخصية كان ابي يسمّيها (الفلسفة المستحبّة) قلت فيها اني جنيت فوائد كثيرة من المحنة لأنها جعلتنا نقدر النعم المسبغة علينا ، وساعدتنا على امتحان ايماننا وصبرنا ، وزودتنا بخبرة كبيرة لأنفسنا وللناس ، وقد طاب لي ان استشهد بالبيت التالي في ختام رسالتي

ففي السماء نجوم لا عداد لها   وليس يكسف الا الشمس والقمر

فاتني ان اقول ان المفوض السامي المسيو بيو الذي اوحى باتّهام الوطنيين في مقتل المغفور له الدكتور الشهبندر قد عُزل من منصبه قبل بدء المحاكمة فاستبشرنا خيراً وقتئذ ، كما ان خلفه الجنرال « دانتز » قد وصل الى بلدنا

قبل انتهائها بأيام المهم ان الاحكام صدرت في يوم سعيد لن أنساه ما حييت وهو يوم السابع من شهر كانون الثاني (يناير) ١٩٤١ ، الذي صادف يوم وقفة عرفات المباركة ، وكأنه اتفق مع العيد الاضحى ليعوضا ببهجتهما المزدوجة عن حزننا في العيد الصغير المنصرم . وقبل صدور الاحكام جرت في قاعة المجلس النيابي مرافعات محامي الدفاع التي كانت آية في سلامة المنطق واشراق البيان ، والقى المدعي العام مطالعته العادلة ، وقد أسفت كثيراً ان تفوتني متعة حضور تلك الجلسات التاريخية الفريدة لأني حُرمت من حضور المحاكمة لصغر سنّي وتفجّر عاطفتي اي خشية الا اضبط نفسي ، ولضرورة متابعة الدراسة كالمعتاد .

عيدنا في البيت ليلة البراءة فصدحت في ارجائه الموسيقى . وتعالى فيها رنين الضحكات الجميلة بعد عودة الاطمئنان والأمان الى قلوبنا ، وبعد ان استرجعنا البشر الذي سُلب منا . رفل قلبي بالفرح اذ سمعت جرس قهقهة امي الانيق ، واذ عاد اخوتي الصغار الى طبيعتهم المرحة ، وكأنهم قد وعوا بقلوبهم الطاهرة الصغيرة ما وعيناه نحن بألبابنا من زوال خطر حاق بنا وهدّد سلامتنا وهناءنا بعد ذهاب الضيوف سهرنا لأول مرة منذ ثلاثة اشهر ، جدتي وامي وانا ، ننسج خيوط الأمل ونحوك رداء الاماني ، ثم فتحنا الراديو واستمعنا الى مجموعة من الموشحات الاندلسية التي يحبها والدي كثيراً ثم الى قصيدة رائعة لعبد الوهاب ، فاغرورق الدمع في محاجرنا فرحاً وطرباً ونشوة ، وشتان بين دمع ودمع !

تمكنّا من مكالمة ابي في اليوم التالي فأعلمنا انه متريث بالعودة حتى يحصل على جواز سفر مؤقت او تذكرة مرور من القنصلية الفرنسية في بغداد . وبعد ايام أبرق الينا بموعد قدومه وطلب منا الا نخبر أحداً تجنباً

لكل احتفال. ومنذ اللحظة التي عاد فيها الى البيت تدفقت الحياة فيه ، وخيم عليه السلام . وأيقنت ان الحياة ليست نعيماً كلها ولا شقاء كلها بـــل هي مسرحية متعددة الفصول بعضها يُضحك وبعضها يُبكي . وان هموم الانسان تنمو بنموّ مداركه وتقدّمه في السن كما كانت تقول جدتي .

رجعت الى مدرستي القديمة بعد براءة ابي لأكمل دراستي فيها، ولم يكن ابتهاج الراهبات والرفيقات بعودتي اقل من ابتهاجي ، ثم عوّضت عما فاتني من دروس الفصل الأول بمضاعفة الجهد اثناء العام الدراسي كنت قد باشرت كتابة خواطري وبعض المقالات فاطلع عليها ابي وأبدى ملاحظات أخذت بها . غير انه احتفظ باحدى تلك المقالات وفاجأني بنشرها في مجلة (الأحد) التي كان يصدرها في دمشق الاستاذ ايليا شاغوري . تملكني شعور بالغبطة ساعة قرأت أول عمل فكري لي منشوراً مع كلمة من رئيس التحرير قدّمني فيها الى القراء بعبارات اطراء وتشجيع ، وسررت أكثر عندمـــا تأكدت من ان المقالة أعجبت أبي والذين قرأوها لما تضمنت من نقدٍ جريء للمجتمع الشرقي الذي يُسرف فريق كبير من نسائه ورجاله بإضاعة الوقت. كان موضوعها يدور حول قيمة الوقت ، وضرورة الاستفادة منه. فقارنت بين الغربيين وبيننا ، بين نظرتهم الجدية للحياة والعلم وبين عزوفنا عن الطموح العلمي ونزوعنا الى التلهي بالثرثرة العقيمة ولعب النرد وما شاكلهما (لقتل الوقت) كما كان رجالنا ونساؤنا يقولون . وقد استشهدت بعبارة كنت قد قرأتها تقول : « لقد اتكأ الغربي على محراث الأعمال في حين قد سرح الشرقي في حقول الخيال » وتمنيت مخلصة ان نُصبح ، رجالاً ونساء . أعضاء أمة متعلمة واعية لنخدم بلدنا ، ولنفرض احترامنا على العالم بأعمالنا الجديـــة النافعة ، كل واحد منا على قدر امكاناته ، وان نذكر دائماً ان الوقت نقد

وأذكر جيداً اني تلقيت رسائل مديح واطراء من بعض الأنسباء والأصدقاء الذين أيدوا ما قلت ، واستساغوا أسلوبي ، فحسبت أني قد صُنّفت في عداد كبار الكتّاب إثر نشر تلك المقالة ... كنت مغرورة بلا ريب وراضية عن نفسي وجرأتي ، وكانت حماستي الشديدة لنقد كل ما كنت أجده نابياً في حياتنا سبب اندفاعي للكتابة والنشر . ولا بد من الاعتراف بأني اصبحت مذ ذاك استسهل الكتابة والنشر ، وأدفع بانتاجي الى المطبعة دونما تروٍّ أو تبصّر لأني لم أكن قادرة يومئذ على نقد نفسي باخلاص ، أما اليوم بعد ان مارست الكتابة خلال ثلاثين عاماً فاني اصبحت أشعر بعظم المسؤولية حينما أكتب ، وأحسب للنشر ألف حساب ، شأني في هذا شأن الكتّاب الذين تجاوزوا سن الشباب وصاروا يزنون افكارهم بميزان دقيق يمنعهم من قذف انتاجهم الى دواليب المطابع بدون تمحيص وتروٍّ وتبصّر .

كنت فتاة ثائرة على الاعراف الشاذة المحيطة بها اجتماعياً ، ومتألمة لعجزها عن انقاذ نفسها وبنات جيلها من الجهل والظلم والعبودية . كان يوجعني ان ارى النساء والفتيات من حولي معزولات ومحرومات من حرية الفكر وحرية التصرف بمالهن ، يعشن تحت رحمة الرجال من اخوة وآباء أو ازواج . وكنت جريئة اسأل واناقش فادركت ان لا علاقة للدين في تخلف نسائنا ، ولم أجد نصيراً للمرأة ومؤيداً لتعليمها وانطلاقها في محيطي سوى أبي ونفر قليل من اصدقائه . ومع ان والدي نشأ في وسط اجتماعي متعصب للتقاليد فقد كان متنوراً يحب العلم ويحضّ عليه ، وراغباً في نهضة المرأة لضمان نهضة المجتمع بأسره ، فكيف لا أكون مدينة له بما تعلمت وبانطلاقي وقد وجدت فيه على الدوام خير معلم وأكبر مشجع ؟ كنت أعبر له أحياناً عن يأسي من تحسن أوضاع بيئتنا ، غير انه كان يملأ قلبي أملاً بأننا واصلون

الى التحرّر من رواسب الماضي العائقة . ويحدثني حديث المفكّر الهادىء ، العالم بالتاريخ وبالنفس الانسانية وبمزايا القرن العشرين . فآمنت مثله بتيار الرقي وبيقظة أمتنا ، وبأن الزمن هو العامل الأساسي في حلّ أكثر مشكلاتنا .

أقبل علينا عام ٤٢ بحلة بيضاء رائعة الجمال اذ هطلت ثلوج كثيفة في دمشق طوال يوم وليلة فاستمتعنا بمناظر خلابة ما عرفناها من قبل . كانت الآنسة الظريفة عائشة قنواتي في ضيافتنا يومذاك ، وكنت واخوتي نلازمها للاصغاء الى خطاباتها المرتجلة في وصف الطبيعة أو في التنكيت علينا ، ونشارك في وسائل التسلية التي كانت بارعة في اتقانها من أحاجٍ وتمثيليات قصيرة وصنع تماثيل من الثلج الخ ... ومن حسن حظنا اننا كنا مقيمين في البيت بمناسبة فرصة رأس السنة فاستمتعنا بصحبتها، وكنا نُثقل عليها بعض الأحيان فتتجاوز بذكائها وحبها لنا عن كل الحاح منا وازعاج ، وتدير علينا كؤوس ظرفها وخفة روحها فنُسرّ ونُعجب ونستزيد . يبدو اني كنت اضحك لنكاتها ولكل ما يُضحك ضحكة رنانة تصدر من أعماقي وتهزّني هزًّا عنيفاً يظهر في حركات رأسي ويديّ وجذعي بشكل غريب ان لم أقل بشع ، وقد نهتني أمي عن هذه العادة أكثر من مرة بلا جدوى فعَمَدت هي وجدتي الى اسلوب بارع لتقويمي بالاتفاق مع ضيفتنا شفاني نهائيّاً من عادة تلك الضحكة المستهجنة ... حدث ذلك يوم علمتني جدتي نكتة طريفة وأوعزت الي بسردها للآنسة القنواتي ففعلت واذا بها تتلوّى ذات اليمين وذات اليسار وتضحك بصوت عريض على غير عادتها ، وترفع يديها وتضرب الأرض بقدميها وتهزّ رأسها هزًّا متواصلاً ... فذُهلت وخشيت ان يكون قد أصابها مكروه . عندئذ توقفت عن الحركة وقالت لي وهي تنظر الى الجدة نظرة ذات مغزى : « أرى انك استغربت مني هذه الحركات . ولكني كنت أقلّد فيها

فتاة حلوة ذكية لا عيب فيها الا هـذه الضحكة الزلزالية ... » فاحمرّ خدّاي خجلاً اذ علمت بأني المعنية بما قالت ولكني حسبتها بالغت في التمثيل عمداً ، واذا بي أقهقه مثلها تقريباً بعد ان قصّت علينا حكاية من حكايات جحـا المضحكة جرياً على عادتي القديمة ، واذا بأطرافي تقوم بحركات رياضيـة عنيفة ... ومنذ ذلك اليوم أصبحت اراقب نفسي فاعتدلت في ضحكتي حتى أصبح الاعتدال طبعاً جديداً ، غير ان طبيعتي الأصلية ظلت الغالبة في التفاعل مع المشاعر القوية ، في الفرح كما في الحزن ، وذلك بأني ظللت أضحك ، اذا ضحكت ، من الأعماق انما بدون هزّة وزلزال ، وأبكي ، اذا بكيت ، من الأعماق .

وجدت في ربيع ذلك العام وثبة جديدة لأفكاري وأحاسيسي تماثل وثبة براعمه وأوراقه ، فعبّرت عنها بقصائد كتبتها بالفرنسية ومقالات جديدة أعجبت أبي واستاذتي الأديبة ماري عجمي . وبانتهاء الربيع انتهت السنـة الدراسية بنجاحي في الفحوص ، فترفعت الى صف البكالوريا بدرجة ممتازة مما جعلني استقبل الصيف وانا راضية عن نفسي ، مبتهجة بالحياة ، ومطمئنة الى نيل الشهادة الثانوية في العام المقبل اذ كنت أعقد الآمال على الانتساب الى معهد (الجونيور كولدج) للبنات في بيروت لاتقان اللغة الانكليزيـة والتخصص بالأدب والتاريخ .

لقد تمّت خطبة أغلبية رفيقاتي في ذلك الصيف ، وحضرت حفلات زفاف بعضهن ، ولكني كنت خالية البال من حتمية سيري على الطريق ذاتها قبل ارواء ظمأي من العلوم العالية ، فالانسان يفكّر والأقدار تدبّر ، والانسان مسيَّر أكثر مما هو مخيَّر في تقرير مصيره ، وهذا ما ثبت لي في أواخر ذلك الصيف وما رسّخ ايماني بما أقول الى الأبد ...

لماذا ؟

ليس غريباً ان يكون قد تقدم لخطبتي العديدون، فالفتاة يكثر عدد خاطبيها عندما تبلغ سن الشباب ، وليس غريباً ان اكون قد فكرت جدياً في الزواج حينما بلغت تلك السن، لأن الفتاة تحلم بالحياة مع شاب يحبها وتحبه في مملكة صغيرة هي دار الزوجية التي تصبح الدعامة لتكامل شخصيتها وتحقيق امانيها ، وفي مقدمة تلك الاماني الاستمتاع بكيانٍ مستقل والحرية في تصريف الامور الخاصة والعامة ، وليس غريباً ان اكون قد اقدمت على الزواج في خريف سنة ٤٢ مستبشرة سعيدة ، مضحية بالدراسة الجامعية لأن الفتاة ، كل فتاة ، تُقبل على حياة جديدة عندما تتوسّم فيها الهناء والخير وتجد من ذويها التأييد والتشجيع . ولكن الغريب كل الغرابة ، والمؤلم غاية الألم ، ان تهدي إليّ الاقدار السعادة الكاملة وان تسلب مني تلك الهدية بسرعة مذهلة ، وأن تتعاقب عليّ المفاجآت ، مرّها بعد حلوها !! فأصبح خطيبة ثم زوجاً ثم اماً ثم أيِّماً في غضون عام واحد وثلاثة اشهر ! وكثيراً ما تساءلت لماذا قُدّر عليّ ان اواجه الحياة ، وما تحمل عادة من افراح واحزان ، مواجهةً عنيفة وسريعة ، ميزانها الاسابيع والشهور ، لا مواجهةً طبيعيةً هادئة تتسلسل معها مراحل العمر واحداث الحياة على تعاقب السنين بشكل مألوف ؟ لماذا قُدّر عليّ ان اعيش حلماً جميلاً تحوّل في فترة وجيزة الى فاجعة ، أن أسعد بتحقيق الآمال ثم أشقى بخيبتها جميعاً خيبة مروّعة ؟! وعلى الرغم من تعاقب السنين على المأساة التي عشتها في مطلع شبابي ، وعلى الرغم من تمرّسي بشؤون

الحياة بقي السؤال الكبير (لماذا ؟) حائراً في وجداني بلا جواب ، تنتصب بعده علامة استفهام موجعة ومبهمة كلما طرحته على نفسي وعلى القدر !

تمّت خطبتي الى الشاب محمد كرامة من طرابلس لبنان باحتفال كبير اقامه اهلي في دمشق يوم العقد اثر لقاءات معدودة جرت بيننا في الصيف ، وكنت قد أعجبت به لثقافته ووسامته ودماثة اخلاقه وملت اليه ، كما اني كنت أكنّ لشخصية أخيه الكبير الزعيم المغفور له عبد الحميد كرامة الاحترام والاعجاب اذ كانت بين ابي وبينه روابط نضال وطني قديمة وصلات صداقة متينة . اتفق ان زرنا في الصيف بلدة (سير) الجبلية في لبنان الشمالي فعلم آل كرامة بقدومنا اليها واتوا لزيارتنا ثم دعونا الى الغداء في مصيفهم (بقاع صفرين) وكانوا قد أتوا الى دمشق لخطبتي يوم كنا على أهبة مغادرتها الى لبنان . لبّى اهلي الدعوة وامتنعت عن مرافقتهم خفراً لأني كنت قد شممت رائحة الخطبة ، وبعد رجوعنا الى دمشق طلب آل كرامة يدي رسمياً فوافقت شريطة ان يتم الزواج في العام التالي ريثما اكون قد نلت البكالوريا . وعلى هذا الاساس جرى عقد قراني في مطلع الخريف وحضره لفيف كبير من اصدقاء أسرتينا في سورية ولبنان في جو مفرح رفرفت عليه السعادة ثم دام عشرة ايام لا غير تمّ خلالها التعارف بيني وبين الرجل الذي أصبحت زوجهُ الشرعية. وكما سبق واشرت كانت الاقدار تتحفّز لتعكير الصفاء الذي خيّم على هذا القران ، ونحن عنها غافلون . فلم تمهلنا ننعم اكثر من ايام عشرة اذ فاجأتنا بحادث مؤلم تعرض له خطيبي في ليلة عودته الى طرابلس وذلك بأن اعتدى عليه مجهولون وهو على باب بيته . فأطلقوا الرصاص بغزارة . واصابوه في كلتا ساقيه ، وتمكنوا من الفرار . وبدلاً من ان استأنف الدراسة توجهت مع امي وابي الى طرابلس في حال من القلق الشديد ساعة

علمنا بالنبإ المزعج ، واقتضت حالته الصحية والعمليات الجراحية المتتابعة التي أُجريت له لتجبير الكسور ان ابقى الى جانبه اربعة اشهر ، قضيت معظمها في المستشفى ، ولم افكر هنيهة بالعودة الى بلدي لأن واجبي المقدس دعاني للسهر على راحته ، وللتخفيف عنه واسعاده ، وهذا أمر طبيعي للغاية بعد ان ارتبط مصير كل واحد منا بالآخر وبعد ان تعارفنا وتآلفنا . بقي اهلي يترددون على طرابلس لتفقدنا طوال تلك المدة العصيبة التي كنت فيها ضيفة على آل كرامة ، اي على إخوة خطيبي واخواته ، ومن حسن الحظ انهم يسكنون داراً كبيرة متعددة الطوابق والاجنحة ولكنها في حكم الدار الواحدة . وقد دفعني تفاؤلي الى رؤية الوجه المشرق لذلك الحادث فحمدت الله على السلامة من جهة ، وعلى ما لقيت من حسن رعاية ومحبة من اهلي الجدد ومن الطرابلسيين الذين سعدت بالتعرف اليهم ، وبمبادلتهم وداً بودّ . اما المعتدون فقد القت سلطات الامن القبض عليهم وحققت معهم فاعترفوا بجريمتهم وبالدافعين لارتكابها ، غير ان المعتدى عليه اسقط دعواه عليهم بالاتفاق مع زعيم الاسرة اخيه الاكبر عبد الحميد افندي درءاً للمشكلات وتجنباً للحزازات ، وتفادياً للخصومات السياسية والعائلية التي عانى منها آل كرامة الكثير في الماضي .

اذكر ان خطيبي قضى دور النقاهة وانا معه في طرابلس بينما كان الربيع على الابواب يطلّ يوماً بدفئه وأريجه ، ويتوارى يوماً خلف السحب الرقيقة والامطار الساحلية ، فاستأجرنا داراً حلوة لسكنانا ، وباشرنا التوصية على اثاثها ، كما اتفقنا على ان يتم زواجنا بلا ضجة ولا احتفال ، لذا توجهنا الى دمشق في منتصف آذار ومنها سافرنا الى فلسطين حيث تجهزت بما يلزمني من الثياب اثناء القيام برحلة شهر العسل ، فزرنا القدس وحيفا ويافا

ونابلس ، وتجولنا بالسيارة في مختلف مناطق فلسطين العربية . لقد أُعجبت بالقدس الجميلة وبمسجدها الأقصى وبهوائها العليل وخضرتها ومائها ، وأذكر اني سعدت فيها بالتعرف الى اديبة راقية لبنانية الاصل هي السيدة عنبرة سلام الخالدي ، زوج المربي الأديب الاستاذ احمد سامح الخالدي ، وقد استقبلنا الزوجان بحفاوة بالغة وعرّفانا بالقدس وبنخبة من مثقفيها. وكانت تربط بينهما وبين آل كرامة روابط صداقة قديمة . وعندما اكتب اليــوم ذكرياتي عن فلسطين الحبيبة ، عن الجرح الكبير النازف أبداً في قلب كل عربي حرّ أبيّ ، تبرز في ضميري صور المأساة الكبرى التي روّعتنا وآلمتنا وما زالت تسلبنا صفو العيش ونعمة الامن والسلام ، فتتعاقب في وجداني حوادث النكبتين المروّعتين ، وما تخللهما من احداث رهيبة ، وما هُدر في سبيلهما من دماء ، وما نجم عنهما من قتل وتشريد وتخريب ، مما يؤذي غاية الايذاء ، وينبّه الغافل اقوى تنبيه . نحن العرب اصحاب حق في فلسطين ما في ذلك شك ، واذا كنا راغبين باسترداد حقوقنا السليبة فيها علينا قبل كل شيء ان نجرؤ على مواجهة الواقع ، وان كان مؤلماً ، ان نشخّص الداء لكي نجد الدواء ، ان نتحمل مسؤولية اخطائنا وان نخطط للجولة المقبلــة بالتضامن الصحيح والايمان الراسخ والتجرد ، وان نحارب العلم والتفوق لدى الصهاينة بالعلم والتفوق مهما يكن الثمن وتبلغ التضحيات ، وعندئذ فقط نصبح جديرين باسترداد حقنا وكرامتنا ويُكتب لنا النصر .

عدنا من رحلتنا الاولى والاخيرة الى دمشق اولاً ثم الى بيتنا الجديد في طرابلس ونحن على اتمّ وفاق واحسن امتزاج وكأننا غريقان نجوَا من الهلاك بأعجوبة بعد التغلب على الخطر والمرض . كنا مستبشرين بمستقبل هانىء ، راضيين بالمحنة التي طبعت ألفتنا بطابع خاص ، عازمين على نسيانها او تناسيها

قدر المستطاع ، فأثثنا الدار بسرعة واستقبلنا المهنئين ثم قضينا الصيف في (ضهور الشوير) حيث استأجرنا بيتاً في منطقة المروج الهادئة التي اصبحت همزة الوصل بين اسرتي كرامة والحفار . زارنا في المصيف الاهل والاصدقاء ، وكان (ابو رشيد) الزعيم عبد الحميد كرامة اكثرهم تفقداً لنا بسبب صلته القوية بزوجي وبسبب وفرة تردّده على بيروت لاعماله السياسية في النضال الوطني من اجل استقلال لبنان ، فكثيراً ما كان يبهجنا بزيارات طويلة بصحبة رفاقه ، فيعقدون اجتماعاتهم عندنا ويؤنسوننا بجلساتهم واحاديثهم الممتعة . كان الزعيم كرامة يتحلى بصفات نادرة سحرت جميع الذين سعدوا بمعرفته لأنه كان ، رحمه الله ، محدثاً بارعاً ، وخطيباً عظيماً ، الى جانب تمتعه بذكاء حاد ، وحيوية متدفقة ، وحصافة في الرأي ، وصلابة في المبادىء القومية والاخلاقية . أتيح لي في حياتي ان اتعرف بأغلبية زعماء سورية ولبنان السياسيين ، وكنت معجبة بمزاياهم المتفاوتة ، ومواقفهم البطولية الرائعة في مقاومة المستعمر دفاعاً عن كرامة بلادهم وحريتها ، كنت معجبة بعلم فارس الخوري الغزير ، وحافظته العجيبة ، وحديثه الدسم الذي لا يملّ ، وبذكاء ودهاء كل من رياض الصلح وجميل مردم بك ، وبنبل هاشم الاتاسي ووقاره ، وبعناد شكري القوتلي في النضال القومي ، وبشجاعة سعدالله الجابري واخلاصه ورقة حاشيته ، الخ ... ويخيّل إليّ وإلى من يستعرض تلك الحقبة من تاريخنا ان الزمن قد جاد ابانها على بلادنا بمجموعة من كبار الرجالات جوداً غير مألوف ، فقادوها الى بلوغ الاستقلال اذ اجتمعت فيهم اكبر صفات القادة والرواد . اما اعجابي بشخصية الزعيم كرامة (الافندي) كما كانوا يلقبونه فلقد ارتكز على ميزات فيها متعددة تبدأ بالنبل والشجاعة وتنتهي بسرعة البديهة وطلاوة الحديث والانسانية الخالصة في جميع تصرفاته العامة والخاصة .

عدنا الى طرابلس بانتهاء فصل الحر فاجتمع شمل الاسرة كلها التي كانت تشاطرني الابتهاج باقتراب قدوم المولود الذي كنت انتظره ، ولكن اشتداد الاضطرابات السياسية في الخريف ، واعتقال الزعماء اللبنانيين بشارة الخوري رئيس الجمهورية ورياض الصلح رئيس الوزراء وعبد الحميد كرامة وغيرهم من قبل سلطات الانتداب عكّر الاجواء جميعاً ، وشحن مدينة طرابلس بالتوتّر ، فارتأت الأسرة ان اسافر الى دمشق لوضع المولود فيها. كان الزعيم كرامة يتمتع بشعبية في لبنان وفي مدينته خاصة منقطعة النظير ، وما ان ذاع نبأ اعتقاله من منزله ليلاً حتّى زحفت جموع الناس تعبّر عن تأييدها له ولاخوانه وتطالب بالافراج السريع عنهم وبالاستجابة الى مطاليبهم؛ ومن لم يعش في طرابلس لا يستطيع ان يعرف حماسة سكانها ومقدار غضبة ابناء الشمال ، وسبل التعبير عن مشاعرهم بالرصاص في حالتي السرور والاستياء على حدّ سواء ، فالرصاص هو الذي ينطق بلعلعته عوضاً عن الحناجر في كلتا الحالتين ، وقد تأذى منه كثيرون غير ان الضحايا البريئة لتلك المظاهرات في طرابلس وزغرتا لم تشكل الرادع المرجو لشبان تلك المنطقة حتّى يكفوا عن استساغة اطلاق النار والولع بحمل السلاح لانهم ما زالوا سائرين على النهج ذاته حتّى يومنا هذا.

عدت الى دمشق اذن لوضع مولودي فيها ، وكان ابي يومئذ وزيراً للداخلية في حكومة الزعيم سعدالله الجابري التي تألفت في شهر آب بعد ان انتخب المجلس النيابي الجديد الزعيم شكري القوتلي رئيساً للجمهورية السورية بالاجماع ، وقد استأنست بقضاء تلك الفترة بقرب أبويّ واخوتي الذين عزّ عليّ فراقهم بعد زواجي ، وكان زوجي يأتي الينا كل اسبوع حاملاً معه آخر تطورات الموقف الذي انجلى بالافراج عن المعتقلين جميعاً، وبظفرهم

في كسب معركة الاستقلال . وبما اني كنت في شهر الولادة ظللت في دمشق ووضعت ابني البكر نزيه في مساء الثامن عشر من كانون الثاني ففرح آل كرامة واهلي وأصدقاؤنا جميعاً بقدومه فرحاً عارماً ، ولم ينقطع توافدهم علينا طوال مدة وجودي في دمشق لكونه مولوداً ذكراً وأول حفيد لأبويّ. وقد اتفق ان عُيّن ابوه في تلك الفترة رئيساً لبلدية طرابلس ، وكان قد شغل منصب مديرية مياه رشعين فيها ، فاكتمل السعد ، وويل للانسان اذا تمّت له السعادة في دنياه ... أوَلم يقل الشاعر الحكيم :

لكل شيء اذا ما تمّ نقصـــانُ فلا يغرّ بطيب العيش انسانُ

اذكر ان الطبيب سمح لي بالعودة الى طرابلس بعد مرور اربعين يوماً على ولادتي فتهيأ آل كرامة لاستقبالنا فيها ، اهلي والمولود وأنا ، باحتفالات تقليدية بهيجة ، وأتى زوجي لاصطحابنا الى عشنا الجميل بعد ان رتّبه احسن ترتيب ، وفرشه بالزهور والرياحين . واذكر جيداً انه وصل في مساء يوم بارد ماطر ووصف لنا برنامج الاستقبال الذي وضعه لعودتنا بسرور بالغ ولكن بصوت متهدّج مبحوح بتأثير زكام شديد اصابه . كان وجهه محتقناً ، وحرارته مرتفعة ، لذا احضرنا الطبيب فأشار عليه بملازمة الفراش ، واذا بالزكام ينقلب الى تسمّم في الدم (أوريميا) سبّبه علاج لعين للزكام اسمه (ديجينان) اعطاه اياه طبيبه في طرابلس ، وقد سها عن حال كليتيه المتعبتين إثر اربعة شهور قضاها في العام السابق طريح الفراش . اخذت صحته تسوء يوماً اثر يوم ، فكان تسمّم الدم يزداد على الرغم من العلاجات التي وصفها الاطباء . وفي مساء الثامن من شهر شباط فارق الحياة وهو يوصي بابنـــه الرضيع وبي ، ويا لهول الفجيعة بانتقال الشباب والكمال الى دار الرحمة ! لقد انقصم ظهري ، وانهارت آمالي ، وتضعضعت ثقتي بالوجود مذ

مات ابو نزيه ، وقضيت اياماً بل شهوراً وسنين أحلك من الليالي ، ارفض تصديق ما جرى ، واتحقق منه ومن هوله في كل لحظة ، فأتجرع كؤوس اللوعة والحسرة ممزقة القلب والجناح ، وأسقيهـــا رغماً عني لطفلي اليتيم مع اللبن الذي كنت أُرضعه إيّاه . لماذا ؟ سؤال مرير كان ينبثق من اعماقي ويظل حائراً على شفتيّ وفي وجداني ، لا يجد من يستطيع الاجابة عليه ! كانت ترتسم امام مخيلتي اشارة استفهام عملاقة لم يكن بوسع احد ان يمحوها ، لا أهل ولا اصدقاء ولا علماء ، حتّى إن ايماني الراسخ بالله تزعزع لفترة وجيزة (غفرانك اللهم !) غير اني رجعت بعدها مستسلمة لقضاء الخالق ، ومتمسكة بالحكمة القائلة « لو اطلعتم على الغيب لاخترتم الواقع » .

الموت رهيب بدون شك ، ولكن موت الشباب المفاجىء فوق كـــل مروّع ورهيب ، ولا سيما عندما تصبح عروس الامس أيّماً ، ويصبح وليد البارحة يتيماً ، وعندما تنقلب الافراح الموعودة الى مآتم ، والآمال المعقودة الى آلام وحطام . ولا ريب في ان الزهور التي كانت تنتظر عودة سكان العش الوادع في أوانيها قد حزنت على رجل البيت الذي أعدّها وسقاها ، ولا ريب في انها أحسّت بالمصاب الجلل وماتت جزعاً ، فقد وصف لي كآبة امتعتنا واشيائنا الخاصة الشخص الذي كلفناه بالتصرف فيها ، توزيعاً وبيعاً ، وبكى وأبكاني بكاءً مرّاً . اما انا فلم تطأ قدماي عتبة الباب بعد انهيار البيت بتصدع دعامته ، فما مكثت فيه اكثر من شهرين ، كمـــا أن البيانو الذي وصل من بيروت بعد عودتنا من المصيف لم تلامسه انامل سوى مرة او مرتين ... لا اريد هنا ان اتطرق لوصف مراسم الحزن المتبعة في طرابلس ، وفي مجتمع النساء خاصة ، لكي أجنّب القارىء حديثاً موجعاً ، لما فيها من تشدّد لا يمتُّ الى الاسلام بصلة ، وتفنّنٍ في النواح بأصوات

عالية ، وتعمّد لاستدرار الدموع السخينة من القريب والغريب بتعداد مناقب الفقيد ورثاء اهله واقربهم صلة به . كنت ابكي بسكون اغلب الاحيان ، وكانت الدموع الحرّى المدرار تتساقط غزيرة فأتعجب من فيضها السخي الذي لم يكن ينضب معينه ، ولم يقتصر بكائي على من فقدت لأني كنت أبكي كذلك على نفسي ، وعلى ابني ، وعلى حرماننا من الطمأنينة والهناء والرجاء بحرماننا من ركننا المتين وسندنا المحب .

عشت ما يقرب من خمس سنوات متنقلة بين طرابلس ودمشق وبيروت لا رفيق لي سوى طفلي الغالي وحزني العميق الذي اصبح جزءاً من شبابي . كنا نقضي فترات طويلة في طرابلس مع عمات ابني واعمامه يستأنسون بنا ونستأنس بهم ونعود بعدها الى بيت ابي في دمشق حيث كنا نلقى غاية العطف ، فان جميع افراد الاسرتين كانوا يحيطوننا برعاية كبيرة ، يشتاقون الينا ويتقاسمون زياراتنا فنستجيب طائعَين وادِعَين كما تستجيب الريشة لهبوب الريح . لهذا اعتدنا ان نقضي جزءاً من الصيف كل عام في (بقاع صفرين) او في (عاصون) حيث كان يصطاف الاعمام والعمات ، وجزءاً من الخريف والشتاء في طرابلس ، كما أقمنا في بيروت شهراً في دار عم ابني الزعيم كرامة . كنت انظر في بقاع صفرين الى شجرات البستان التي غرسها فقيدنا لنزيه عقب ولادته مباشرة وجلّها من التفاح والكمثرى فيدهشني نموّها السريع وعطاؤها المتزايد عاماً اثر عام بالقياس الى نموّ صغيري ... غير ان نموّها هذا الجميل كان يدعوني الى التفاؤل لانها اصبحت في خلدي رمزاً لرجلي الذي كانوا ينادونه (الافندي الصغير) .

ولا اخفي اني كنت في صراع مستديم بين نفسي وإرادتي : أستاء من نفسي حين تثيرها كوامن الشجن وتدفعها الى التعبير عن أساها لاني كنت

اشعر بانعكاس ذلك الأسى على أمي وابي واخوتي الصغار الذين حزنوا مثل حزني واسودت الدنيا باعينهم ، (كما كنت احس بما يشبه الاختناق عندما كنت البس قناع السرور والرضا حرصاً على مسايرتهم ورغبة في التخفيف عنهم ، ومنذ ان اصيب ابي بنوبة قلبية عنيفة عقب فاجعتنا بأسابيع قليلة تملكني شعور قويّ بالذنب زادني ألماً وغمّاً لا سيما وان تلك النوبات المزعجة (التاكي كارديا) أخذت تتكرّر ولازمته حتى آخر حياته . لقد جزعت من مرض ابي وظننت اني السبب المباشر له ، فعزمت على المكابرة والمصابرة ، وتجلّدت قدر المستطاع أمامه ، مع ان اصدق ما كان يعبّر عن حالتي النفسية آنئذ قول المعرّي

سواد عيني زار سواد قلبي ليتّفقا على فهم الامور

كنت افرح باستغراقي في النوم واتمنى الا اصحو بعده على جراحي النازفة التي كان كل شيء وكل حادث يحول دون اندمالها .. فقد حرّم ابي علينا مناداته بكلمة (بابا) منذ بدأ نزيه يتكلم لكي يجنّبه سماع هذه الكلمة الرائعة للذين ينعمون بآبائهم ، والمؤلمة الناكئة لجراحات المحرومين منهم ، فجرينا جميعاً على مناداته (جدو) نقولها بغصّة ولا سيما انا اذ كنت أبلع دمعتي في كل مرة ألفظها)! قد يُفسّر وصف ضناي النابع من الواقع الأليم الذي عشته بالضعف ، او باسترسال غير مغتفر مع عواطفي ، ولكنني أسجله وفاءً للعهد الذي قطعته على نفسي لدى كتابة هذه الذكريات وهو الصدق والصراحة . وقد قال شاعر قديم :

شكوت وما الشكوى لمثليَ عادة ولكن تفيض العين عند امتلائها

وكأنه عبّر بشكواه الصامتة الدامعة عن حالي يومئذ ...

وفي كل يوم تشرق الشمس علينا وتغيب نحن ابناء القافلة المعذبة الذين ضلّلهم السراب ، ثم نرتدّ الى انفسنا راغبين في درء خوف غامض ، ونرتدّ الى السماء محاولين درء خيبة جديدة بالدعاء والرّجاء، وهل الحياة الا رجاء في سراب ؟ كل الانهار تجري الى البحار ولكن البحار لا تمتلىء ابداً !

* * *

أحببت آلامي

القلق والحيرة سيطرا عليّ في الاعوام الخمسة التي تلت مصابي . امـا القلق فأسبابه عديدة : منها فقدان الاستقرار في مسلك الحياة الذي فرضته عليّ الظروف، ومنها غموض معالم طريق المستقبل، واما الحيرة فلأن محاولاتي المتعددة من اجل توضيح معالم طريق الغد باءت بالإخفاق جميعاً ، بينما كنت احسب ان كل واحدة منها كانت كفيلة بانقاذي مما كنت أعانيه . نهضت من كبوتي النفسية الخطيرة بعد انقضاء عام ونصف على الصدمة وذلك اثر هبوط صحي كاد ان يكون قاضياً علي، لقد انذرني المرض والهزال فخشيت ان اعتلّ اكثر ممـا خشيت الموت ، ولا ريب في ان الفضل في نهوضي صحيّاً ونفسيّاً يعود اولاً الى طفلي الصغير نزيه . اولعت به ولعاً شديداً لعله يفوق ولع الامهات بأولادهن للاسباب الملحوظة ، وكان على الرغم من صغر سنه رجلي الاثير ، ورفيق الطريق ، واملي الكبير . كان طفلاً رائعاً في جماله ونباهته وصحته ، ابتسامته الساحرة تبدّد الظلمات ، وضمّة ذراعيه لعنقي تجفّف العبرات ، لذا اصبحت أستمدّ من الضعف قوة ، واعلّل نفسي بالآمال التي كانت ترفّ عليّ بوضوح احياناً فتقوّي ثقتي بالغد ، وتبتعد عني احياناً اخرى فتحوّل النهار الى ليل ، والصروح الى رماد . وهنالك ، بعد طفلي ، ثلاثة رجال يحتّم عليّ وجداني أن أسجّل فضلهم عليّ في تلك المرحلة العصيبة من عمري وهم : الزعيم عبدالحميد كرامة والاستاذ البحاثة نور الدين بيهم امين دار الكتب اللبنانية ، وابي ، فقد

كان لهم اكبر الاثر في استرداد قواي المعنوية بل وفي تبلور شخصيتي الجديدة .
أشرت فيما سبق الى اعجابي بانسانية الزعيم كرامة في حياته الخاصة وانا في معرض ذكر صفات شخصيته الفذّة ، وقد تجلّت لي انسانيته هذه في عدة مناسبات عائلية ، ولا سيما بعد موت اخيه الذي كان يده اليمنى وعضده العتيد وشاباً من ألمع شباب طرابلس . كانت فجيعته بفقده لا تقل ابداً عن فجيعة سائر اخوته واخواته وعن فجيعتي به ، ومع ذلك كان صابراً متجلداً كما ينبغي ان يكون المؤمنون والعظماء حيال الملمّات ، يحمل جرحه بكبرياء ، ويحاول تهدئة اللائذين به وردعهم عن الانقياد للعاطفة . والله وحده يعلم ما قاسيت من وطأة تقاليد الحداد القاسية في طرابلس ، وفي مجتمع النساء خاصةً لبراعتهن في النواح والرثاء ، وبالتالي في اضرام النار في الجراح . كانت النساء يكففن عن النواح ساعة قدوم رجال الاسرة الى المجلس العائلي في المساء ، وكنت لا افارقهن ليل نهار ، اجلس حاضرة غائبة وقد أثخنتني المصيبة وطحنتني الآلام ، فدخل عميد الاسرة علينا ذات يوم كان هياجهن فيه على اشدّه ، واذا به يهبّ على قريباته الحاضرات هبوب العاصفة . كان رحمات الله عليه محقّاً في ثورته على ما أسماه كفراً ومعاندة للسماء ، وقد عبّر عن استيائه مما سمع وشاهد بعبارات حكيمة ومؤثرة اهاب فيها بالنساء ان يثبن الى الرشد والايمان وان يشفقن على انفسهن ، ثم نظر اليّ واضاف يقول :

ـ اليس حراماً ان تنهكن هذه الصبية وان تقضين عليها ؟ ان طفلها بحاجة اليها ويجب علينا جميعاً ان نرفّه عنها اذا كنا نحبّ فقيدنا حقّاً ونحبّ خليفته ، واقسم بالله ما كنت لأتردد لحظة بالعزف على آلة موسيقية لو كنت أحسن ذلك .

ثم قادني من يدي الى غرفة ثانية حيث اسمعني من الكلم أرقّه فهدأت، ثم انتقلنا بالحديث الى مواضيع عامة ، ولاعبنا نزيه ، وانجلت عنا الغمة. ومنذ ذلك اليوم هيمن العقل على جوّ البيت في غياب عميد الأسرة وفي حضوره وسعدت بحمايته لي وبمعرفة منزلتي عنده. وازددت اعجاباً بعقله وايمانه وقلبه الكبير ، أما منزلته في قلبي فلقد كانت مذ عرفته أسمى منزلة. وكثيراً ما كان يدعوني الى مائدته التي لم تكن تخلو من شخصيات كبيرة سواء في طرابلس او في بيروت بعد انتقاله اليها ، فعرّفني بأصدقائه العديدين ، وصحبني في بيروت لزيارة بعضهم مع اني كنت متوشحة بثياب الحداد السوداء وقتئذ. واذكر انه زار مصر بمهمة رسمية وعاد منها منشطاً مسروراً ليوصيني بالسفر ونزع الاسود من أجل نفسي وأبويّ ومن أجل ابني الذي بدأ يعي ويستغرب لون ملابسي ويقارن ويسأل ...

اما ابي فاني لا استطيع ان أوفيه حقه او ان اعبّر عن فضله مهما اوتيت من البلاغة فلم يكن اقل مني ألماً وحسرة ومع ذلك كان حريصاً على مواساتي كل الحرص بمختلف الوسائل ، وحريصاً على صحتي وعلى سعادة ابني اكثر من حرصه على نفسه. انقذني من المرض الذي ألمّ بي في ربيع ٤٥ يوم صحبني الى بلدة طبريا الجميلة للاستجمام فيها على الرغم من كثرة اعماله في دمشق ، واعماله فيها كانت تتطلب منه كدّاً وجدّاً كل حين لاحتدام الكفاح الوطني من اجل تحقيق الاستقلال التام. فلقد كانت فرنسا وبعض الدول الكبرى قد اعترفت باستقلال سورية ولبنان فدعتهما الى مؤتمر سان فرنسيسكو حيث شاركا بوضع ميثاق هيئة الامم المتحدة ، ولكن الجيش بقي في ايدي الفرنسيين الذين أبوا التخلي عن بعض الامتيازات. دعاهم الوطنيون الى التفاوض غير انهم بادروا الى المماطلة ثم الرفض ليظلوا مسيطرين ،

فنشب صراع عنيف أضربت سورية اثناءه اضراباً عامّاً وشهدت اصطدامات مسلحة مع قوات الاحتلال ، وهكذا بدأت معركة الجلاء الرائعة التي خاضها الشعب السوري بقيادة زعمائه الوطنيين ، وعلى رأسهم الزعيم شكري القوتلي رئيس الجمهورية . وفي ٢٩–٥–٤٥ فقد الفرنسيون صوابهم عندما أمر قائد قواتهم الكولونيل (اوليفا روجيه) بضرب دمشق بالقنابل المدمّرة للقضاء على الحركة الوطنية ، واقترفت قواتهم عدواناً آثماً بمحاصرة المجلس النيابي وقصفه . ولكن حاميته دافعت عنه دفاع الابطال . واستشهد رجالها في المعركة على بابه . ولو علم المحتلون ان اللجوء الى العنف والارهاب يضرّ بمصالحهم ويعجّل بنهايتهم لما لجأوا اليهما في ساعة حمق !

قاد الرئيس القوتلي معركة الجلاء يومئذ من سريره بسبب مرضه . وظل مُصرّاً على الثورة الى ان تحققت للبلاد سيادتها الكاملة ، وقد تدخلت انكلترا بالامر (وكانت لها وللحلفاء قوات في سورية ولبنان بعد طرد القوات الفيشية) وابرق الزعيم تشرشل الى الجنرال دوغول رئيس الحكومة الفرنسية المؤقتة يطلب منه الامر بوقف اطلاق النار في دمشق وسحب الجيش الفرنسي الى ثكناته . كما كان رئيس وفدنا لدى هيئة الامم الزعيم الكبير فارس الخوري ورفاقه مندوبو سورية ولبنان فيها قد نقلوا المعركة الوطنية اليها يستنكرون العدوان الغاشم ويطالبون بالجلاء وبعرض القضية على مجلس الامن . فاستمرت المناقشات والمناورات في المحافل الدولية وفي سورية ولبنان ما يقرب من عام الى ان انتزعنا استقلالنا التام واصبح يوم ١٧ نيسان العيد الاغر . عيد الجلاء في سورية .

ان من فضائل أبي علّي اقناعي بالسفر الى مصر برفقة خالي الدكتور شوكت السقطي الذي كان متوجهاً اليها مع زوجه لحضور مؤتمر الاطباء

العرب ، فرافقتهما مع ابني الصغير في اواخر عام ٤٥ وعدت من الرحلة بعد شهر ونصف وانا انظر الى العالم والى الحياة بعيون جديدة وفكر منطلق ، وعزم على تخطي الصعاب . لا شك في ان السفر خير علاج للنفس ، ولنفس المحزون خاصةً ، بما يتيحه من مشاهدات جديدة ومقابلات تلهي الانسان عن واقعه وتشغله عن ماضيه لفترة ما ، وتفتح له نوافذ عريضة على الحياة ذاتها . ان في الافق الجديد الذي يواجهه المحزون ترفيهاً عن النفس ، وامتحاناً لقدرتها على الانتصار على وهنها وترويضاً لها وللارادة ، لان مجرد وجوده في المجتمع الجديد يعلمه الضغط على أعصابه ، والانتصار على ذاته المتألمة بكتم همومه واشجانه عن اناس غرباء يمرّ في أفقهم مرور عابر سبيل . أوَليس حسن السلوك فنّاً يتوقف عليه نجاح الفرد في الحياة ؟ ان له عاملين اثنين احدهما فطري والثاني مكتسب ، وان من يجهل قواعده او يتجاهلها ومن يتغاضى عن تعلمها يفشل في تصرفاته الاجتماعية ويشبه من يحاول العزف على آلة موسيقية وهو جاهل لقواعد العزف فلا يستنبط منها الا النغم الناشز .

طويت الضلوع على أوصابي خلال تلك الرحلة قدر المستطاع ، وجلت في القاهرة والاسكندرية جولات ممتعة مع أصدقاء طيبين احاطوني بالعناية والتكريم ، اذكر منهم آل الشربجي الكرام الذين استقبلوني يوم وصولي الى القاهرة واضافوني عندهم مع ابني ، واذكر كذلك سفيرنا في القاهرة زميل ابي في العمل الوطني جميل مردم بك الذي غمرني والسيدة حرمه بالكرم وحسن الرعاية ، وقد ابهجني ان اقضي بضعة ايام في الاسكندرية بدعوتهما . استمتعت كثيراً بمتاحف القاهرة الغنية وبمعالمها الاثرية الفرعونية والاسلامية ، وكان اعجابي بمساجدها واسواقها وحدائقها وقصورها ونيلها كبيراً ، ولم اكن

زرت قبلها مدينة كبيرة تعجّ بالسكان والسياح ، وتحتوي المذهل من المتناقضات. رأيت فيها قصوراً منيفة واكواخاً بالية ، احياء مترفة برمتها واحياء فقيرة معدمة ، شاهدت الصحة والمرض متجاورين ، الثراء الفاحش والفقر متعايشين ، واسترعى انتباهي اناس مثقفون ثقافة عالية يشكلون نسبة ضئيلة بالقياس الى مجموع السكان المحرومين حتى من معرفة حروف الهجاء . تعجبت حقاً من الفوارق الطبقية الصارخة اذ لم يكن لي عهد بمعرفتها في بلدي، وحمدت الله على اننا في سورية نشكل اكثرية من الطبقة المتوسطة لا وجود للفقر المدقع بيننا ، وان وجد بعض كبار الاثرياء فانهم لا يتجاوزون عدد الاصابع .

تعرفت بزعيمة النهضة النسائية السيدة هدى شعراوي وكنت قد سمعت عنها الكثير ، فوجدت فيها المرأة الرائدة المتحمسة لبلادها ولبنات جنسها ، ولكني وجدت كذلك ان الأشواط التي لا بدّ من اجتيازها لتحقيق النهضة المرتجاة طويلة جداً ووعرة جداً . كما اسعدني ان اتعرّف بالاديبة السيدة امينة السعيد وبالآنسة حواء ادريس اللتين تكرمتا بزيارتي وبدعوتي الى دار السيدة شعراوي ، وسهّلتا اطّلاعي على مخططات العمل لتحقيق نهضة ثقافية وصحية واجتماعية في مصر . كنت قد أسّست في دمشق ، قبل مغادرتها ، جمعية ثقافية خيرية مع بعض الشابات أسميناها « مبرّة التعليم والمواساة » غايتها تقديم المساعدات للمعوزين ، وتشجيع اولادهم على التعلم ، فاطلعت بعض سيدات الاتحاد على نظام جمعيتي واستفدت من الوقوف على مناهج العمل في جمعياتهن ، وقد حملت معي الى دمشق شعار مبرتنا بعد ان اشرفت على تصميمه في القاهرة . اما « المبرة » فقد كرّست لها الجهد والوقت في سنيها الاولى ثم أبعدتني الاسفار والسكنى خارج سورية عنها ولكنها ما زالت جمعية نشيطة جدية تعمل بفضل القائمات عليها بعدي بنشاط وتفان ونظام ، وقد

أخذت على عاتقها تعليم الفتيات الجانحات برعاية وزارة العدل السورية ورعايتهن اعتباراً من سنة ١٩٥٧ ، ثم حصرت عملها منذ عدة سنين بتربية القطاء والعناية بهم . وما عدا اتصالاتي بنساء مصر الرائدات جمعتني الظروف في دار سفارتنا ببعض رجالاتها العاملين في القضية العربية الذين حملوني لأبي تحياتهم واجمل التمنيات لانه كان على صلة بهم ، كما انه كان لجهاد سورية واستقلالها صدى بعيد في الاقطار العربية وقتئذ . ولا بد لي قبل الانتقال الى موضوع آخر من ذكر شخصية فذة سُررت بلقائها اكثر من مرة في حفلات عامة وفي مجالس خاصة . وهي الفنانة العظيمة ام كلثوم ، لقد عادل اعجابي بثقافتها وحديثها الساحر وسرعة خاطرها اعجابي بصوتها الساحر وفنها الاصيل وابداعها في الغناء وقدرتها على التحليق بالجمهور في الاجواء التي تريدها هي .

وبعد رجوعي من مصر تحققت من أن ألم المرأة التي تصاب وهي في العشرين ألم خيبة اكثر مما هو الم يأس ، انه مزيج من التأسّي على شباب قُضي عليه بالحرمان ، ومن العتب على القدر الذي صوّب اليها سهامه الموجعة باكراً . ولكني كنت أحب ألمي واشعر بأنه سيخلق مني انساناً جديداً افضل من الفتاة المنعمة والزوج المترفة اللتين كنتهما بالامس القريب ، على الرغم من أنه اقصاني عن الحياة الطبيعية بل نفاني من مجتمع الشباب ... دوّنت بعض الخواطر والملاحظات في مذكرتي اثناء الرحلة واكتشفت في اللجوء الى التأمل والكتابة لذة وفرحاً ولهذا صرت انزع الى الانفراد بنفسي للمطالعة او الكتابة. وعقدت النية على استئناف الدراسة وعلى التأليف لا بحثاً عن الشهرة ، ولا أملاً باتيان الروائع ، بل استجابة لرغبة ملحّة في التعبير عما يجول في نفسي ويختلج في خاطري . لا ريب في ان الامل الضعيف الذي نغذيه في قلوبنا ونحن نجتاز المحن أمل عذب ، بل نعمة كبرى قلّما نقدّرها شبيهة بنعمة

جهل المستقبل ، فكثيراً ما نتغذى بآمال قد لا تعيش في ذواتنا اكثر من ساعة غير انها تزودنا بمقاومة قد تدوم أشهراً وأعواماً. وهكذا تملكني ميل شديد الى الوحدة عقب الرحلة لا لأن الوحدة عذبة لما نجد فيها من متعة وحرية فحسب، بل لأن خلوة الانسان بنفسه بين جدران غرفته كفيلة بان تكشف له نفسه والعالم ، وان تتجاوزهما الى سماوات رائعة وآفاق رحبة لا تحدّ اعتقد ان سبب ميلي الى استعذاب العزلة هو خبرة جديدة للناس والحياة ، فقد ثبت لي ان الناس عامة ، من اقرباء وغرباء ، انانيون في صلاتهم الانسانية ، يتهرّبون من المكتئب والحزين ، بينما يقبلون على السعيد والمرح ، يؤثرون معاشرة المنعم الضاحك ، وينفرون من البائس الباكي ؛ كما ثبت لي ان الحياة لا تبتسم الا للباسم ، لا تمدّ يد العون الا للقوي الذي يعين نفسه ، ولا تغدق العطاء الا لمن يبحث عن خيراتها المادية والمعنوية . فبعد ان بدوت في المجتمع شخصاً منطلقاً قويّ القلب طموحاً أقبل الكثيرون عليّ ، وأبدوا استعدادهم لمناصرتي ومصادقتي، ولكني كنت قد تعلمت ان هؤلاء الناس من الفئة التي تمدّ لك يدها لكي تستند اليها بعد ان تجتاز الهوّة لا قبل المخاطرة باجتيازها ...

غدا نزيه في مطلع سنة ١٩٤٦ انساناً صغيراً يفكر ويتكلم بطلاقة ، له شخصيته المستقلة الجذابة ، فانتقلت معه الى لبنان حيث قضينا ثلاثة اشهر بين طرابلس وبيروت ، وفي بيروت تعرفت بالرجل الثالث الذي كان لــه فضل عليّ يستحق التسجيل وهو الاديب الاستاذ نور الدين بيهم امين دار الكتب اللبنانية الذي يعود اليه الفضل في حثي على متابعة الدراسة وفي تشجيعي على الكتابة والنشر . كان الاستاذ بيهم نصيراً للمرأة ومتحمساً لنهضتها، واسع الثقافة باللغتين العربية والفرنسية ، وقد لمس لديّ رغبة قوية في اتمام ثقافتي وفي اقتحام ميدان الادب، فتولّى امر توجيهي بضعة اعوام . ارتحت كثيراً

الى (عمو نور) كما جرينا على تسميته في الاسرة اذ ان بينه وبين آل كرامة وآل سلام روابط صداقة ونسابة، فعملت بنصائحه القيمة ، ثم بدأ ينشر لي في صحف لبنان ومجلاته ما أكتب من مقالات . كنا نتراسل باستمرار ، ففاجأني ذات يوم بنشر رسالة مطولة بعثت بها اليه كان موضوعها (جهاد امة) وقد املتها عليّ مشاعري القومية اثر جلاء القوات الفرنسية عن سورية، فوصفت فيها فرحة الامة العارمة بهذا العيد المقدس، ونضالها في سبيله نضالاً باسلاً دام ربع قرن وأسهمت فيه الجماهير في كل بقعة من بلادي مساهمة عفوية عمل على تنظيمها القادة الوطنيون الذين نذروا انفسهم لتحرير الوطن من الانتداب . واليوم اذ اذكر اول عيد للجلاء احنّ الى ذكراه الخالدة في نفوس جميع الذين عيّدوه وعاشوه لما كان في هذا اليوم الاغر من تضامن عظيم في البهجة والأماني والآمال . كانت سورية اول بلد عربي ينال استقلاله . فتوجهت اليها انظار العالم بالتقدير والاعجاب ، واصبحت على صغر مساحتها ، وقلة عدد سكانها ، دولة ذات مكانة مرموقة في المحافل الدولية ، والدولة الرائدة في البلاد العربية . واليوم ، بعد انقضاء اربعة وعشرين عاماً على تحقيق الجلاء ، وبعد ان عانت سورية خلال هذه المدة من المشكلات السياسية والاقتصادية والاجتماعية أقساها ، اقول والألم يحزّ في قلبي اننا لم نقدّر نعمة الاستقلال حق قدرها ، واننا ما زلنا كالطفل في أول حبوه نزحف ونتعثّر . ولكننا سوف نهتدي لا محالة الى انفسنا والى الطريق السوي لاننا ابناء امة عريقة مؤمنة بإمكاناتها وبقدرتها على استعادة مكانتها الرفيعة ولا سيما بعد ان هزتنا النكسات وايقظتنا من سباتنا النكبات .

رجعت بعد الجلاء الى عهد التلمذة يحدوني شوق اليه كبير ، فاستأنفت دراسة الادب العربي مع الاستاذ الفاضل ابي الخير القواص الذي سبق ودرّسنا

اللغة والأدب في معهد الفرنسيسكان ، وكان الاستاذ القواص يسكن في جوار دار ابي مما يسّر لي قضاء ساعة في بيته كل يوم خلال اكثر من عام ، كما ان الاستاذ بيهم وُفّق في تسجيلي في جامعة اليسوعيين في بيروت حيث تابعت دراسة الادب الفرنسي والعلوم السياسية بالمراسلة ، فاغرقت نفسي في الدراسة اثناء اقامتي في دمشق حيث كنت بحكم الضيفة في بيت ابويّ استمتع بأوقات فراغ طويلة تمكنني من الدرس والكتابة . كانت أمي واخواتي شديدات التعلق بابني الصغير ، واكبر عونٍ لي في العناية به ، لهذا استطعت كذلك ان اكرس بعض الوقت للموسيقى فتابعت درس البيانو مع الاستاذ الروسي الاصل البارون بيلينغ ، واتيح لي أن احقق امنية قديمة وهي تعلّم العزف على العود . شجعني اهلي على الاهتمام بالموسيقى ، وأهدت إليّ جدتي عوداً قديمـاً ممتازاً من صنع تركيا كان جـدي قد اقتناه للعازفين الذين كانوا يحيون سهرات الطرب في داره ، فارتحت الى استاذي الفنان الاعمى ، ودرجت اناملي بسرعة على مداعبة الاوتار ! وكثيراً ما اشعنا جوّاً مبهجاً في البيت ، استاذي وأنا ، كل واحد منا يعزف بمفرده على عوده ، او كلانا نعزف سوية بعض البشارف ، اثر انتهـاء الدرس في المساء ، فكان والدي وجدتي واخوالي ينضمون الى مجلسنا الممتع بفضل عبقرية استاذي وسحـر الانغام . يقول اناطول فرانس : « ما مر بي همّ لم تبدّده ساعة مطالعة » ، فقوله هذا صحيح الى حدّ ما لأن المطالعة تشغل الانسان عن نفسه ، وتنقله اذا استغرق فيها واستمتع الى عالم آخر لا يمت الى واقعه بصلة ، غير اني ارى انها غير قادرة على تبديد هموم الانسان ، فالانسان المهموم يعجز اكثر الاحيان عن تركيز فكره لمجاراة ايّ موضوع كان ، بينما ارى ان الموسيقى قادرة وحدها على تبديد الهمّ ، على اختلاف انواعها ، فالمحزن من ألحانها يثير الشجون ولكنه يداويها في الوقت ذاته ، والمفرح من انغامها له مفعول

السحر في تغذية النفس وتهدئة الاعصاب وتبديد الغمّ

اما عن اقامتي في لبنان ، سواء في الصيف او في سائر فصول السنة ، فانها كانت تطول او تقصر ولا تتجاوز ثلاثة اشهر كل مرة إنما كنت استمتع بها بكل جوارحي مع انها كانت تنكأ الجراح لا سيما في مواسم الاعياد لان اليتم في العيد يتضاعف فيصبح يتمين كما ان الحزن يصبح حزنين واكثر ... ومع ذلك كنت أحبّ حزني وألمي ، واعيش فيهما واحرص على ان يعرف ابني اهله جيداً ويشب على ألفتهم وحبهم وحبّ بلده وابنائه .
كان تغيير البيئة يُلزمني بتغيير طراز اسلوب المعيشة ، فكنت اتقمّص شخصية جديدة ساعة كنت اتوجه الى طرابلس فأطرح العادات التي تعودتّها في بيت اهلي جانباً وأستعد للتأقلم مع المحيط الجديد حرصاً على ارضاء الجميع وعلى ارضاء نفسي في الوقت ذاته . أعترف بان التقيّد بنمط جديد في اسلوب الحياة لم يكن امراً هيّناً ، ولكني كنت امتحن نفسي في كل مرة وأجنّد ارادتي بعزم متطلعةً الى احتلال مركز يليق (بأم نزيه) من جهة ، ويليق بي شخصياً . انا الشابة الصغيرة التي خلقت منها الصدمة امرأة ناضجة مكابرة وواسعة الرجاء في المستقبل وفي عماده الاساسي ابنها الوحيد . لا انكر اني كنت أشعر أحياناً بأن نفسي قد هرمت وأني تجاوزت الخمسين من العمر ، ولكني سرعان ما كنت أعود إلى طبيعتي فترتسم البسمة على وجهي في حين تنهمل من عيني الدموع ، ويمتلىء قلبي بدفقات الأمل والإيمان بأن الله سيعوّض عليّ خسارتي الجسيمة ويكافئني على الصبر والحرمان ، فقد قال سبحانه في كتابه الكريم : « إنما يوفّى الصابرون أجرهم بغير حساب ». بل لقد صبرت كثيراً وأخفيت لواعج نفسي المقهورة عن الناس كل الناس ولم يعلم بها الا الله ووسادتي ... وسادتي وحدها رافقت أشجاني وجفّفت عبراتي في الليالي الليلاء ...

الصحراء والواحة

اهتممت جدياً بمواصلة الدراسة في مواضيع شتى اعتباراً من سنة ١٩٤٦ ، وأصبح الشغف بالمطالعة شيئاً ملازماً لوجودي منذ ذلك التاريخ ، فمكتبة ابي من جهة ، وتشجيعه المستمر بالاضافة الى تشجيع الاستاذ بيهم والاستاذ القواص ومن عرفت من ادباء لبنان وسورية امثال الشيخ عبد الله العلايلي ، والدكتور شكيب الجابري ، والاستاذ البير اديب وغيرهم ، والمتعة الفائقة التي كانت تغمرني اثناء الدرس والبحث والكتابة ، ان هذه العوامل مجتمعة اغرتني بالمتابعة حتى اصبحت الهواية شبه احتراف ، حاجتي اليها تعادل حاجة كل انسان لاستنشاق الهواء لكي يعيش . بدأت اكتب مقالات متفرقة ثم قصصاً قصيرة وجدانية واجتماعية وقومية، فألقيت بعضها في منتدى أدبي تأسس في دمشق سنة ١٩٤٦ عرُف باسم : (حلقة الزهراء) ونشرت مقالات في كل من (الاديب) و (أصداء) و (صوت المرأة) و (اليقظة العربية) و(الريفو دو ليبان) اعددتها تلبية لطلب اصحابها دون ان انقطع عن كتابة الشعر بالفرنسية . ايقنت منذ ذلك الحين ان التأليف عمل شاق يشبه حرفة هؤلاء الذين يغوصون في اعماق البحار لاستخراج اللآلىء ، فكم منهم ينجح وكم منهم يخفق ؟ غير ان كلا الفريقين يغامر بشجاعة ، يغامر وحده ، ويحلم بالفوز ، ويتعب ، ويرفّ قلبه بين الضلوع رجاء وطموحاً ! هذا ما شعرت به بعد المباشرة بجمع وتصنيف يومياتي القديمة التي صدرت بعنوان (يوميات هالة) سنة ١٩٥٠ . وإثر الاشتراك بمسابقتين أدبيتين دعت اليهما

كل من محطة الشرق الادنى للاذاعة العربية ، ومجلة (صوت المرأة) اللبنانية ، وقد اسعفني الحظ واحرزت الجائزة الاولى في كلتا المسابقتين على مقالين كان عنواناهما : (لمحة عن تاريخ الموسيقى ، أثرها في النفس) و (من ذكريات الطفولة) .

استقبل ابني عامه الرابع في شتاء عام ١٩٤٦ واصبح بوسع يده الصغيرة الرحيمة ان تمسح عن جبيني آثار الكدّ والتعب وان تزيل عن نفسي رواسب الكدر . كان ، على خلاف الاطفال المدلّلين الذين تغلب عليهم الميوعة ، لطيف المعشر ، شديد الاهتمام بي ، وعطوفاً . سافر والداي الى مصر في ذلك الشتاء اذ انتُدب أبي عضواً في الوفد السوري لدى الجامعة العربية ، فلم ابرح دمشق لرعاية اخوتي . وقد ساعدتني في هذه المهمة جدتي مما سمح لي بمتابعة الدرس والكتابة . كان قضاء ساعة مع نزيه ألاعبه خلالها وأحادثه كفيلاً بتجديد نشاطي وتعزيتي ، وكنا نحتاط كل الحيطة ، في دمشق وفي طرابلس، لاخفاء موت ابيه عنه ، فما سبق له ان طرح علينا ايّ سؤال في هذا الصدد الى ان تغلغل في سريري ذات صباح ، وسألني عن ابيه بمنتهى الخشية والرقة ، فوجمت وطفر الدمع من عيني ، ولكنه تابع يقول بلهجة حزينة :

ـ أنا اعرف يا ماما انه مات .

فضممته الى صدري باكية وسألته :

ـ وهل تعرف اين يذهب الذي يموت ؟

فأجابني على الفور ، مما اكد لي انه تحدث مع غيري في الامر ، وتلقى منه النبأ المؤلم وبعض التفصيلات

– يقع على الارض ثم يضعونه في الصندوق ...

فقلت له بحرارة وحزن وكأني اخاطب طفلاً كبيراً :

– صدقني يا نزيه ، وانت تصدق ماما دائماً ، ان بابا انتقل الى السماء لان الله دعاه الى الجنة ! والآن قل لي ماذا تفعل لو مت انا ؟

– اقتل حالي يا ماما !

فضغطت على نفسي واخفيت لواعجي ، وقلت له وقد سررت لانه باح بما كان يشغل فكره ويكدّره :

– تأكد يا حبيبي اني لن اموت لأني سأبقى الى جانبك دائماً ، فنحن صديقان وكل واحد منا محتاج الى الآخر . والآن هلمّ ننهض لنتناول طعام الافطار ولنذهب بعده الى السوق ، ألم اعدك أمس بشراء سيارة صغيرة للشحن تضمها الى مجموعة لعبك ؟

عاد طفلي الى سابق عهده بالمرح في غضون دقائق ولكن الدنيا اظلمت في عيني من جديد منذ ذلك الصباح اذ استولى عليّ شعور قوي بتفاهة الحياة برمتها ! وهنت قواي النفسية ، وصرت أرى وجودي تافهاً ، والدرس والكتابة والتعلق بخيوط الامل أموراً وهمية نبتدعها ونقبل عليها ، فتشغل اوقاتنا ، وتلهينا عن انفسنا ، كما تفعل الدمى بالاطفال ... الا يستحكم بهم الملل بعد فترة قصيرة فيعافونها بعد موجة التشوّق العارمة التي دفعتهم الى اقتنائها ، وجمّلتها في مخيلتهم ، وجعلتها محور أحلامهم وغاية رجائهم ؟ لم يستطع احد ان يواسيني بكلمة او بعبارة إبان غمرة الزهد والحزن التي استبدّت بي آنئذ ، الى ان قالت لي الجدة ذات ليلة جلسنا فيها نسمر وندخن

حول ركن النار ، وكانت قد علمت بالحديث الذي جرى بيني وبين صغيري :

ـ انت مؤمنة يا سلمى وعاقلة وقوية الارادة ، فيجب ان تعودي الى الاطمئنان النفسي الذي عهدناه فيك واكبرناه ، وابواك على وشك العودة من مصر الينا كما تعلمين ، فالحياة كلها فانية يا حبيبتي ومؤلمة ، ونحن لا نستطيع ان نغلبها الا بالرضا والصمود والعزم على عيشها بالامل. فهنا فقط تتجلى قيمة الانسان وقدرته على الاحتمال . ثم ان الحياة والموت ، كالزواج والولادة ، امور طبيعية ، تتكرر كل لحظة منذ بدء الخليقة وتسيّرها قوة الخالق الخارقة ، فحريّ بنا ان نتقبلها على علاتها .

كنت اصغي الى جدتي بحب واهتمام لمكانتها السامية في قلبي ولايماني بفهمها العميق ، ومع ان الجزء الاول من حديثها وجد صدى قوياً في قرارة نفسي واقنعني فقد فكّرت لحظةً وقلت لها رداً على الجزء الثاني منه :

ـ لا ارى رأيك يا جدة فيما تسمينه طبيعياً في حياتنا ! ليس الوجود حدثاً طبيعياً ، ولا الولادة ، ولا الحب والزواج ، ولا المرض والموت ! انها ألغاز قد يسميها بعضنا معجزات بدافع عجزه عن فهمها وتفسيرها . أليس مجرد وجودنا على الارض لغزاً من أهم الالغاز ؟ ملايين السنين والوف الادمغة المفكرة عجزت عن حل هذا اللغز على الرغم مما بلغته الحضارة من تفوق في العلم وابداع في المخترعات ... ولكن الشيء الوحيد الثابت هو ، كما قلت ، وجود قوة خارقة تسيّر الكون ، ولا سبيل لنجاتنا من التفكير والتشكيك سوى الايمان، فحمداً لله على نعمة الايمان وأقسم لك اني سأكون عند حسن ظنك بي منذ هذه اللحظة إن شاء الله .

جرت العادة ان تُضحك الحياة اولاً وان تُبكي آخراً، أو بالاحرى هذا

ما سمعته يتردّد حولي ، اما حالتي انا ، او بالاحرى حظي من الحياة ، فانه كان معاكساً منذ أن وعيتها اذ كانت الاحداث تتوالى فيها على الترتيب الآتي : المحزن ثم المفرح ، اي المبكي قبل المضحك ، وانا احمد الله كثيراً في سرّي وفي العلانية لأن الضحك بعد البكاء أيسر وأمتع بكثير من البكاء عقب الضحك ؛ عزّتني احدى صديقات الاسرة بقولها : ان لكل انسان قدراً من الالم والشقاء لا بد من استهلاكه في حياته ، واني قد نلت هذا النصيب في مطلع حياتي لذا عليّ ان استبشر بالمستقبل ، فاعجبني حديثها هذا كثيراً وزاد من تفاؤلي ... كان قد وصل الى دمشق في تلك الفترة بالذات قريب لنا من انكلترا أحببته وأُعجبت به وكان له أثر عميق في نفسي ، هو ابن عمنا صالح الحفار المعروف في انكلترا بعلمه وصلاحه ووطنيته وانسانيته ، وقد أسس فيها أعماله التجارية وشغل منصب القنصل الفخري لسورية في مانشيستر عدة سنوات . سعدت بالتعرف اليه وتوطّدت بيننا اواصر صداقة متينة ما زالت مدار سعادة لي وفخار إبان احتفال اسرتنا بقدومه حيث توالت اللقاءات وتتابعت الاحاديث في مختلف المواضيع ، وأحاديث العم صالح كلها متعة وعبرة وفائدة . فقد علّمته تجاربه في الحياة ورحلاته العديدة ، ومعاشرته الطويلة للانكليز ، أفضل ما يتعلم الانسان في حياته : حسن المعاملة واحترام الذات والاعتماد عليها ، يُضاف الى هذا انه من الرجال المفطورين على رقة القلب والطبع ، وعلى حب العلم وتوخي الصدق . لقيت منه عطفاً كبيراً ، وفي أحاديثه راحة نفسية استمددت منها قوة روحية كنت في امس الحاجة اليها ، فالعم صالح مثال العالم المتواضع والمسلم الراقي ، وله من السمعة الطيبة في الشرق والغرب ما يغبط عليه . تكررت زياراته للوطن الأم منذ ذاك فتعرفت ببناته الثلاث وابنه الوحيد ومن ثم لم تنقطع بيننا المراسلة الى ان صفّى جميع اعماله في انكلترا ورجع الى الوطن

نهائياً . لقد جارت الأقدار عليه في حياته اذ سلبته وحيده اثر تعارفنا بمدة وجيزة ؛ ومن ثم فقد زوجه وابنته ليلى الحفار الرسامة المعروفة في لنـــدن واستاذة الفن والتاريخ في احدى كلياتها . ولكن العم صالح برهن عن صمود ازاء الملمات يندر مثيله بين بني البشر ، ومردّه بكل تأكيد إلى التقوى والايمان الصحيحين . وقد تعلمت منه الكثير على مدى السنين اذ كان له الفضل في تذرعي بالصبر وتوطيد إيماني بالله ومواجهة الشدائد بشجاعة ، كمـــا ان الفضل يعود اليه في اهتمامي بدراسة القرآن والاعتبار بالأحاديث المسندة ، وقد علمني دعاءً رائعاً للرسول الأعظم يقول فيه : « اللهم اجعل خير عمري آخره وخير أيامي يوم القاك يا رب » .

وفي الصيف ذهبت الى ضهور الشوير مع ابني واهلي حيث قضينـــا شهراً ونيّفاً فاتاحت لي الاقامة الطويلة في فندق غابة بولونيا فرصاً ممتعـــة للقراءة والتأمل والتعرف بوجوه جديدة لأن الاقامة في فنادق الاستجمام في الجبال تؤلف بين النزلاء التقيت خلال تلك الاسابيع بأناس ارتحت الى عشرتهم كما رأيت أناساً تجنبت لقاءهم لشدة تصنّعهم وغرورهـــم ، ويذكرني هؤلاء بالسنابل الفارغة التي ترفع رأسها بشموخ بينما تخفض السنابل المثقلة بالخيرات رأسها تواضعاً وتأدباً ... وقد عاشرت سيدة مصرية كانت تصطاف مع ولديها الصغيرين في الفندق ذاته فتبادلنا الاحاديث والكتب وقمنا بنزهات يومية سيراً على الاقدام بين الاحراج بصحبة اولادنا الذين انسجموا في اللعب واللهو مما زاد في سرورنا . كانت صديقتي حلوة الحديث ، حاضرة النكتة ، متوقدة الذكاء ، فتعرّفت بأفراد اسرتي جميعاً الذين استأنسوا بصحبتها ، وأعجبت كثيراً بأبي وبالزعيم عبد الحميد كرامة الذي زارني اكثر من مرة . كان بين النزلاء احد الظرفاء وهو كهل خفيف الظل ، بارع في الحديث ،

يسرد قصة حياته وتفاصيل مغامراته على الناس بطلاقة مدهشة ، وينزع الى المبالغة فيما يقول مما جعلنا نملّ جلساته ، صديقتي وانا ، ونتهرّب منها لأننا لم نكن طلاب تسلية فارغة . ولن انسى وصفها اياه ساعة قالت لي بلهجتها المصرية العذبة :

– الخواجه ادمون ده حاجة عجيبة خالص ، انه بارع بحياكة القصص والاكاذيب براعة بعض النساء بحياكة الصوف في الصالونات ...

رجعت الى دمشق في اوائل شهر ايلول متشوقة اليها وإلى من فيها ومتطلعة الى نهج في الحياة يكفل لي الاستقرار ، فقد سئمت التنقل المستمر ، وتاقت نفسي الى تحديد مكان ثابت لاقامتي الدائمة وتأسيس دار مستقلة . فكرت جدياً بتأسيس بيت لي في طرابلس أعيش فيه مع ابني لأرعى مصالحه وأجد بعض الطمأنينة، وعندما عرضت فكرتي على اقربائي واثقة من انها حل معقول فوجئت بمعارضة شديدة سببها الاول والاخير مراعاة الاسرة للتقاليد السائدة التي لا تسمح للمرأة الشابة بالاستقلال في بيتها بدون رجل يرعاها : فالمرأة ، كل امرأة في عرفهم ، عضو قاصر في المجتمع وانسان عاجز عن الدفاع عن نفسه ! ! لقد ناقشت بالحجج الدامغة ، وغضبت لكرامتي ، ودافعت عنها بكل ما أوتيت من ثقة بالنفس وايمان بالمثل ، فكان الجواب الاخير ان الخوف ليس مني بل عليّ لان انفرادي بسكنى دار مستقلة سواء في طرابلس او في غيرها سيعرّضني لمواجهة مشكلات في مجتمعنا المتخلف من أبسطها ثرثرة الناس وسوء ظنهم بالذين يأتون لزيارتي حتى ولو كانوا أقرب اقربائي ! وهكذا ، ولاصطدامي بمثل هذه العقبات رزحت تحت وطأة الحيرة والقلق خلال مدة السنين الخمس التي عشتها كريشة في مهب الريح ، وفي هذه المرة ، كما في سابقاتها لدى مواجهة العقبات في سعيي لتحديد معالم طريق

المستقبل ، طويت اجنحتي على ألمي ولجأت من جديد الى الدرس والكتابة ، فنقّحت (يوميات هالة) ، وكتبت قصائد بالفرنسية ومنها (شكوى صماء) التي نُشرت في ديوان (الوردة الوحيدة) . لقد تبين لي بوضوح اننا في الشرق أسرى الناس ، وأسرى أعراف بالية مستحكمة فينا تشكل العثرة الكبرى في طريق لحاقنا بالركب الحضاري . ومذ ذاك عاهدت نفسي على العمل من أجل تحرير المرأة ، واذا كنت قد تنازلت عن تحقيق فكرة السكن في بيت مستقل مع ابني وامتثلت لرأي المسنين من اهلي وانسبائي من اسرتَي الحفار وكرامة فلأن اللين من اسباب العزم ، والصبر من وسائل النجاح .
كان عليّ في ذلك العام ان اقوم ببعض الاعمال الضرورية لنا . توجهت الى طرابلس في شتاء ٤٧–٤٨ ومكثت فيها ثلاثة اشهر متواصلة وأنا مستأنسة بأهل ابني وأصدقائي الذين أضحيت أزورهم في بيوتهم بين حين وآخر وعندما رجعت إلى دمشق راضية عن نفسي لإنجاز واجباتي نحو ابني وذويه على احسن وجه رجعت متفتحة الذهن لمعالجة موضوع كبير الاهمية يتوقف عليه تقرير مصيري ، كان قد تقدم لخطبتي بضعة شباب في العامين المنصرمين وكنت أرفض الفكرة من أساسها غير أني أخذت أتقبلها جدياً بعد حديث مؤثر جرى بيني وبين الزعيم كرامة نصحني فيه أن أقدم على الزواج . لقد أكد لي أن منزلتي في قلبه هي منزلة بناته وأنه لولا غيرته على سعادتي واستقراري لما صارحني بأمر دقيق مثل هذا الأمر ، فتجرأت وقلت له :

– وابني نزيه ؟ ألا يقضي الشرع بأن تأخذوه مني عندما يبلغ عامه السابع ؟ انا لا أستطيع العيش بدونه !

فأجابني (ابو رشيد) تغمده الله برحمته الواسعة

– ثقي تماماً بأن ابنك سيبقى قريباً منك في بيت ابويك الى ان تقرري بنفسك وقت انتقاله الى لبنان على ضوء تقديرك لمصلحته ، فأنا متأكد من

رجاحة عقلك ، وانت تعلمين انه سيصبح شاباً عما قريب وبالتالي مضطراً للابتعاد عنك ابان مرحلة الدراسة ، كما يجب ان تعلمي انه سيبقى قريباً منك على الدوام سواء سكن سورية او لبنان ، الشرق او الغرب ، فانك ام ، وللام في عرف الصالحين حقّ مقدّس في ولدها !

اكبرت شعوره وتفكيره الاكبار كله وارتحت لعباراته القلبية التي اعتبرتها عهداً بيننا ، ولقد حفظ عميد اسرة كرامة العهد وبارك لي اقتراني بالدكتور نادر الكزبري الذي تمّ في اواخر العام ذاته ولم يدع احداً يطالب بنزيه عند بلوغه العام السابع . بقي ابني في بيت ابي قريباً مني حتى بلوغه السنة الثامنة يواظب على مدرسة (روضة الاحداث) ثم وافقت على نقله الى مدرسة ابتدائية في طرابلس انتمى اليها مع ابناء أعمامه وقضى فيها عاماً لم يحرز خلاله التقدم المنشود لذلك قررت إدخاله في مدرسة برمانا الانكليزية لكي يعتاد الدراسة الجدية ولابعاده عن المحيط العائلي سواء في دمشق او في طرابلس لأنه كان يلقى فيه غلوّاً في الدلال لا تخفى اضراره . كان اخي الوحيد بشر في عداد طلاب تلك المدرسة الليلية فتعهد امر الاشراف عليه ، وقد تخرج نزيه من مدرسة برمانا بعد عشر سنوات شاباً رياضياً ، محباً لبلده واهله ، ومتمسكاً بالمبادىء الطيبة . اما الاعياد المدرسية وفصل الصيف فقد كان يقضيها بين سورية ولبنان بالقرب منا جميعاً .

كانت سنة ١٩٤٨ حاسمة في حياتي ، فقد بلغت في نهايتها واحة وارفة الظلال بعد عبور الصحراء وتكبّد المشاق ، واحمد الله على اني لست من هؤلاء الذين ينسون الصحراء بعد وصولهم الى الواحة .. ! ان للآلام والحرمان والصبر وللثبات في وجه العواصف أفضالاً في تكويننا وفي صقل مواهبنا يجب ان نذكرها ونتذكرها لنعتبر بها ، ونهتدي بهديها . لعلّ قبساً من نارها يضيء طريق انسان معذب او محروم .

آفاق جديدة

بعد ان رفضت البلاد العربية بالاجماع قرار هيئة الامم بتقسيم فلسطين بين العرب واليهود (الذي اتخذته الجمعية العامة في ٢٩ تشرين الثاني لعام ١٩٤٧) جرت سلسلة من الاشتباكات المسلحة بين الطرفين ادّت الى توتر الجوّ الدولي، وكانت البلاد العربية متفقة على مقاومة الصهيونية والتمسك بحقوق العرب في فلسطين ولكنها لم تكن مستعدة لخوض معركة حاسمة الاستعداد الذي تريده، فتألف جيش الانقاذ في سورية اولاً ثم باشرت البلاد العربية تعبئة قواها، وعلى الاخص البلاد المجاورة لفلسطين، للرّد على التعدي السافر على حق العرب في أرضهم الذي ناصرته الدول الاستعمارية الكبيرة بالتآمر مع الصهاينة لانشاء وطن قومي لهم في قلب البلاد العربية. ان الحقيقة المرة تتلخص في ان البلاد العربية لم تكن مستقلة في رسم سياستها، وانها لم تكن متفقة فيما بينها على نهج سياسي وعسكري واقتصادي موحّد، ولم تكن مستعدة لمقارعة دول كبرى وخصم عنيد قد بلغوا شوطاً بعيداً في حسن التخطيط وبسط النفوذ. ثم ان من يتبصر بتاريخ الامم والحضارات يرى بوضوح أسباب بلوغها قمة المجد والسؤدد، كما يرى اسباب تردّيها الى درك الانحطاط، فنحن ابناء امة سادت وشيّدت حضارة عظيمة يوم كنا اسياد انفسنا، مؤمنين بها، واعين لرسالتنا ومتحدين أروع اتحـــاد في سبيل نشرها على العالم. لقد اسسنا ملكاً تجاوزت حدوده الشرق وبلغت الغرب، كما نشرنا حضارة قيمة يوم كنا متفوقين فكريّاً وروحيّاً، نعرف

هدفنا ، ونسترخص من أجل بلوغه الغالي والنفيس ، ثم اضعنا الملك ، وخسرنا مكان الاشعاع الفكري والفني يوم ابطرنا الرخاء ، ويوم تحكمت الانانية في الامراء والحكام فتفرقوا وقضوا على المثل جميعاً . وما نحن اليوم سوى امة في اول طريق نهضتها ، خارجة من عصور مظلمة دامت الف عام ، رزحنا خلالها تحت نير الغزوات والحروب ومختلف انواع التسلط والاحتلال ممـــا اضعفنا واصابنا بعلات وامراض نفسية وخلقية خطيرة يتطلب الشفاء منها معالجة حكيمة وطويلة . اني اعتقد اعتقاداً جازماً بأن علينا ان نعيد النظر في عقليتنا التي تملي علينا تصريف الامور ، ولهذا لا بد من ان تكون لدينا الجرأة الكافية لمواجهة الواقع بشجاعة ، فليس عيباً ان نعترف بأسباب ضعفنا لنهتدي الى تداركها ، ولكن العيب كل العيب في ان نتعامى عنها ، ونضلّل انفسنا ، ونعيش على الامجاد الغابرة في وهم كبير لا نجني منه الا التأخر عن اللحاق بالركب الحضاري المعاصر . وعندما نتبصّر بهذه الحقائق الراهنة ، قادة وشعوباً ، ونتعاضد على النهوض بثبات وحزم من الركود نستطيع فقط ان نستثمر امكانات العطاء والخير فينا وفي بلادنا ، فلقد آن لنا ان نجلو الحقيقة وان نلقي تبعة اعمالنا على انفسنا ، لا على القدر ، فكلنا مسؤول عن مصير مشترك .

لم يكن استرسالي في التعبير عن افكار وخواطر املتها عليّ الكارثة التي حلّت بنا سنة ٤٨ ، وآلمت كل عربي ، واصابت كرامته وكبرياءه في الصميم ، لم يكن هذا الاسترسال الا نقلاً اميناً لما دوّنته في مذكرتي الشخصية عامئذ . فلقد شهدت في سورية اندفاعاً شعبياً رائعاً عشت بعض فصوله اثناء المعارك وإثر تدفق اللاجئين العرب . اخواننا في المحنة ، إذ كنت اعمل مع فئة من نسائنا المتحمسات ، العاملات في الجمعيات الخيرية والمؤسسات الانسانية مثل (الاسعاف العام النسائي) و (نقطة الحليب) و (الهلال الاحمر) وغيرها ،

فوجدنا من جميع المواطنين استجابة عفوية لبذل العون مادياً ومعنوياً تمّ على وعي قومي ، ونبل انساني . لقد وضع الرجال والشباب تحت تصرفنا المال والسواعد وتبرعت النساء المدنيات والقرويات في مختلف مناطق سورية بالحليّ والمال . واقبلن على التطوع للخدمة . وفتحن بيوتهن للاجئين مما اكّد لنا وجود غيرة قومية رائعة . ووعي للقضية في مجتمعنا ينتظر التنظيم . أما الروح المعنوية في صفوف الجيش والشعب فالحق يتطلب ان نعترف بأنها كانت عالية ولكنها مُنيت بخيبة امل كبيرة اثر الهدنة فلقد عاشت الشعوب قبل الهزيمة على آمال بالظفر غرسها في نفوسهم الحكام الذين اتخذوا قرار خوض الحرب بجميع الجيوش ، ثم صحت لتواجه انقسام الرأي بدلاً من توحيد الكلمة ، وانهيار الآمال بدلاً من تحقيقها ، والافق الجديد للمصير كله والمستقبل وقد ادلهمّ وأظلم ... لقد كان لي شرف الخدمة في تعليم ايتام فلسطين في مدرسة مؤقتة اعدتها لايوائهم في «كيوان» بدمشق الجمعيات الخيرية النسوية ، واذكر انه اتى لزيارة الميتم مندوب مجلة آخر ساعة المصرية فتحدثنا معه وصرحت[1] له بأن دماء الشهداء قد خضبت ارض فلسطين . وان المدافع قد دوت ولكننا لم نصب الهدف . لذا علينا ان نعبىء جميع قوانا للمعركة الطويلة القادمة لكي نستحق ارضنا وحريتنا !

قضيت جزءاً من صيف ٤٨ في مصيف آل كرامة في الشمال لانجاز بعض الاعمال ثم عدت الى دمشق لمتابعة الاتصال بالدكتور نادر الكزبري الذي استطاع ان يغريني بالخروج من العزلة التي فرضتها على نفسي في السنوات الاخيرة . دامت خطبتنا الرسمية ستة اشهر ، وكنا قد تعارفنا قبلها فأعجبت

---

(١) العدد (٧١٨) من مجلة «آخر ساعة» تاريخ ٢٨ - ٧ -١٩٤٨.

برجولته وثقافته الممتازة ، وتأثرت برقـــة مشاعره نحوي وبتفهمه لعقليتي المتحررة ، لذا اقبلت على الزواج مستبشرة ، وقد اثبتت لي الحياة المشتركة التي نعيشها مذ ذاك ان استبشاري كان في محله لأن التفاهم والمحبة الصادقة يسودان جوّ حياتنا العائلية بفضل الله . صارحني نادر يومئذ بجميع اموره ، وكان مستشاراً في مجلس الشورى ، واستاذاً في جامعة دمشق يدرّس الحقوق الجزائية في كلية الحقوق ، (وهو يحمل شهادة الدكتوراة في الحقوق من جامعة السوربون في باريس) كما كان قد شغل منصباً قضائياً في مدينة حلب اثر رجوعه من فرنسا اذ عمل قاضياً فيها قبل انتقاله الى مجلس الشورى في دمشق . ولا شك في ان نزوع نادر الى الادب ، واطلاعه الواسع على التراث الغربي ابان اقامته الطويلة في فرنسا ، الى جانب ولعه بالمطالعة وحبه للفن من الامور التي ألّفت بيننا كثيراً . ان للصلات الفكرية ولتقارب الميول والاذواق اثرها البالغ في تمكين روابط الحياة الزوجية ، وفي جعلها ممتعة ومتجددة ابداً ، وكان نادر قد اطلع على مقالاتي وقصائدي ومسوّدة (يوميات هالة) اثناء خطبتنا فلمست منه تحبيذاً لعملي وتشجيعاً قوياً على الاستمرار فيه . اما رسائله لي في تلك الفترة فلقد ملأت نفسي اعجاباً باسلوبه المشرق وآرائه الناضجة ، ولو لم ينصرف في حياته العملية الى مجالات التدريس الجامعي والقضاء ثم السلك الديبلوماسي لكان بوسعه ان يصبح اديباً مرموقاً .

قضينا شهرين في أوروبا بين ايطاليا وسويسرا وباريس، وكانت رحلة زواجنا ممتعة وسعيدة اذ وضعنا لها برنامجاً موفقاً اتاح لي ان اتعرف الى نهضة الغرب وجمال طبيعته . زرنا ايطاليا اولاً فسحرتني روما بآثارها ومتاحفها فهي بحد ذاتها متحف غني رائع لما فيها من معالم تاريخية هامة ، وتماثيل نادرة ، ونفائس لا يستطيع احد ان يحيط بها جميعاً وان يجلو روعتها وقيمتها بزيارة

واحدة حتّى ولو دامت تلك الزيارة بضعة اشهر . ولعل روما وفلورانسا من المدن القليلة في العالم التي يعود اليها الانسان بسرور يشدّه شوق كبير لاكتشاف مفاتنها الفنية والاثرية ، وللاستمتاع بتكوينها الطبيعي الخلاب ، مما يفتح للذهن نوافذ مضيئة على الحضارات القديمة والتيارات الفكرية المتتابعة التي طبعت اوروبا الغربية بطابعها الهام على تعاقب العصور . وبديهي ان متعة المسافر لا تصح ، وان اطلاعه على البلد الذي يزور لا يكمل الا اذا استعد مسبقاً لرحلته نفسياً وفكرياً . فالنشاط والمرونة ، والتنازل عن العادات الصغيرة المستحكمة بالانسان في بلده . سواء في مواعيد نومه او نوع طعامه . من عوامل الاستعداد النفسي للسفر الاساسية . كما ان الاهتمام بدراسة ولو سريعة لاقليم البلد المقصود وتاريخه ومجتمعه من موجبات الاستعداد الفكري . ولقد حرصت دوماً في رحلاتي السابقة التي لم تتجاوز البلاد العربية قبل عام ٤٨ ، وفي رحلاتي اللاحقة التي شملت عدة بلاد غربية واميركية وشرقية، على مراعاة هذه الشروط لكي احيط بمشاهداتي احاطة قريبة من الشمول ، وكنت احرص كذلك على الاتصال بسكان تلك البلاد وتفهّم عقليتهم ومعتقداتهم واحترامها ، واسعى لدراسة تقاليدهم ، وتذوّق طعامهم ، والاندماج بعيشهم قدر المستطاع ، بفضل صداقات متينة عقدتها هنا وهناك كانت وما زالت ينبوع هناء ومصدر ثراء فكري وروحي . ولا ريب في ان معرفة المسافر للغة البلد الذي يزوره تكشف له الحجب جميعاً فتجعل اطلاعه عميقاً ومتعته مضاعفة بل حقيقية : أوليست كل لغة نتعلمها مفتاحاً هاماً من مفاتيح المعرفة في ايدينا نلج بفضله عالماً جديداً يوسّع مداركنا العلمية والفنية والانسانية فيمنحنا من اللذة والفائدة ما يفوق بمراحل الجهد الذي نبذله في سبيل الحصول عليه ؟ واني لأذكر دهشة نادر لانطلاق لساني باللغة الايطالية في كل من روما وفلورانسا وميلانو وكومو ، فقد كنت اجيد فهمها بفضل دروس (الأم كارلا) اكثر من اجادة النطق

بها ، ومع ذلك اخذت أتحدّث مع الناس في الفنادق والمطاعم والاسواق بجرأة مكّنتني من التأقلم معها ومن زيادة معرفتي بها . ولقد ثبت لي ان من يبغي تعلّم لغة جديدة واتقانها يدرك قصده بسهولة وسرعة اذا باشر التمرّن على التعبير فيها بشجاعة ، ولو كان يخبط خبط عشواء في بادىء الامر ، فان هذه الطريقة تكفل له استدراك الخطأ ، وتعلُّم الجديد ، واتقان اللفظ . اما الكبرياء او ما يسميه البعض عزة النفس خطأ في هذا المجال فانه يحول دون تعلم اي لغة جديدة اذ يربط ألسنة الذين يظنون ان التعثر بها والخطأ في قواعدها يمس كرامتهم وينقص من قدرهم ! وقد لقيت من لطف الاقوام الذين تعلمت لغاتهم ، ومن تسامحهم وتشجيعهم ما حفزني على الاستمرار بتعلُّمها ، وحب اتقانها ، اذ كثيراً ما ردّد علي بعضهم العبارة التالية « ليتنا كنا نعرف من العربية جزءاً مما تعرفينه من لغتنا ! » حدث لي ذلك في ايطاليا اولاً ، ثم في كل من الارجنتين واسبانيا حيث اتيح لي ان أُلمّ باللغة الاسبانية إلماماً كافياً سمح لي بالقاء محاضرات فيها ذات مواضيع ادبية وتاريخية في بوينس آيرس ثم في مدريد وبلنسية . غير ان ما حدث لي مع اللغة الانكليزية يختلف عن تجربتي مع الاسبانية ، فقد تعلمت مبادئها في معهد راهبات الفرنسيسكان ، ثم وجدت انها لغة ضرورية وهامة يجدر بي ان اتعلمها جيداً لا سيما بعد ان أدخلت ابني في مدرسة برمانا الانكليزية وأبت عزة نفسي ان يعرف لغة اجهلها ... فأكببت اذن على اللغة الانكليزية قبل زواجي بنادر وبعده معتمدة في ذلك على نفسي اولاً ثم على المناسبات التي كانت تتيح لي فرصة التدرّب عليها ، وبعد ان استدعي نادر للانضمام الى السلك الخارجي السوري ازداد اتصالنا بالاجانب بحكم عملنا وازددت رغبة بتعلم اللغات ، ولكل مجتهد نصيب .

وقبل ان اعود الى ايطاليا لا بد لي من الاعتراف بأن معرفتي بالانكليزية

ما زالت ناقصة ولكن رغبتي باتقانها ما زالت كبيرة على اني تجاوزت السادسة والاربعين . فاني اكتبها احسن مما اتكلمها . افهم النصوص واقدر على الترجمة . واعبّر عن افكاري جيداً ولكني أرتكب اخطاء لغوية لا تغتفر ، والفظ بلكنة اجنبية لا هي انكليزية ، ولا هي اميركية ، كثيراً ما يتخذها ابني نزيه مدار تنكيت لطيف ... ان الاقامة في انكلترا لفترة ما تتيح لي فرصة اتقان اللغة الانكليزية هي أمنية في عداد أمنياتي التي آمل تحقيقها ذات يوم ...

كانت ايطاليا سنة ٤٨ متأثرة بالحرب العالمية الثانية عمرانياً واقتصادياً تأثراً بالغاً ، شاهدنا آثار الخراب في اكثر من منطقة ، ووجدنا اسعار المفروشات فيها مغرية ، فقصدنا مصانع الاثاث في الشمال حيث زرنا عدة معارض لها في (ميدا) بالقرب من ميلانو ، لذا انتقينا اثاثاً جميلاً لغرف الاستقبال والطعام والجلوس ، وعقدنا صفقة رابحة بشرائها بعد مساومة شديدة توصّلت فيها الى تنزيل الاسعار المطلوبة بلغتي الايطالية العرجاء ، وتصميمي على التنزيل ، عملاً بنصيحة اصدقائنا الذين عرفوا ايطاليا وطبيعة التجار الايطاليين . ثم توجهنا الى مرفإ جنوى بصحبة احدهم في ختام اقامتنا وسلمنا الصناديق الى شركة شحن بعد التأمين عليها وعلى بعض ما ابتعناه من لوحات تزيينية وغيرها ، وتوجهنا الى سويسرا بالقطار مغتبطين بالأثاث الجميل الرخيص الذي لم يكلفنا برمته تكاليف أثاث غرفة واحدة مصنوعة في بلدنا يومئذ ، وقد شجعنا على الشراء إعفاء الاثاث المستورد في سورية من الرسوم الجمركية حيث لم تكن صناعته قد تحسّنت وارتقت الى ما هي عليه اليوم .

جمال سويسرا في الشتاء جمال حزين ولكنه لا يخلو من الروعة . اقمنا فيها عشرة ايام نتنقل بين جنيف ولوزان وزوريخ فكانت الجبال المحرّجة مكسوّة بالثلوج تبدو لك بأشجارها الكثيفة الكبيرة مزيجاً رائعاً من الابيض

والاسود لكثرة الغيوم وانتشار الضباب ، كما ان البحيرات نفسها كانت رمادية اللون ، راكدة لا حياة فيها ولا أشرعة ومع ذلك استأنسنا بوحشتها ووجدنا في حزنها وهدوئها جمالاً اخاذاً . أعجبت بالنظافة المثالية في سويسرا وبجدية اهلها ونظامهم في الحياة الذي لا يخفى على الزائر والسائح حتى ليخيل اليك انها بلاد لا شباب فيها لأنك لا تصادف صخباً ولا مرحاً لالتزام الكبار والصغار بالاتزان والجد والهدوء !

اذكر اننا دخلنا مكاناً جميلاً في مدينة زوريخ ظنناه مطعماً من الخارج ولم نتمكن من قراءة اسمه اذ انه كان مكتوباً باللغة الالمانية التي نجهلها . كان وقت الغداء قد حان ساعة كنا نتجوّل في وسط المدينة بعد العودة من زيارة جامعتها ، فدفعنا الجوع والبرد القارس الى دخول ذلك المكان بكل سرور واطمئنان ... تفرّس فينا مدير المطعم (حسب ظننا) ودعانا الى الدخول بعد ان اتضح له اننا غريبان من هيأتنا وتحيتنا بالفرنسية ، فابتهجنا بالمكان الانيق وبالدفء الذي كان يشعّ من مواقده الجميلة ، وطلبنا حساءً ولحماً بواسطة زوج من الشيوخ ، رجل وامرأة مسنّين يتكلمان الفرنسية وقد تطوعا للترجمة بيننا وبين المشرف على الخدمة إذ كانا الوحيدين في قاعة الطعام ساعة دخولنا اليها . وبعد دقائق توافد الناس على القاعة الى ان امتلأت موائدها الكبيرة والصغيرة فلاحظنا انهم كانوا جميعاً من الشيوخ . نساء ورجالاً ، وقلنا : لعله اتفاق غريب ان نكون الشابين الغريبين الوحيدين بين رواد هذا المكان . كانوا يتكلمون اللغة الالمانية بصوت خافت ، ويستمتعون بالشراب والطعام النفيسين استمتاعاً واضحاً ، بينما كانت انغام موسيقى ناعمة تضفي على الجوّ سحراً خاصاً ، ثم اقترح علينا رئيس المستخدمين لوناً من الحلوى تناولناه في نهاية الوجبة ووجدناه زكياً ، وعندما طلبنا الحساب وجدنا

انه مبلــغ ضئيل بالقياس الى اسعار المطاعم التي خبرناهــا في سويسرا . تبادلت وزوجي عبارات الدهشة ويبدو انها كانت مرتسمة على وجهينا لأن الجارين اللذين اسعفانا بالترجمة ابتسما لنا بينما كنا نهم بالانصراف فرددنا التحية واذا بالسيدة تستوقفني وتقول لي برقة متناهية

ـ لا شك في انكما غريبان عن زوريخ ، ونرجو ان تكونا قد استمتعتما بالغداء والمكان لأنكما في نادٍ خاص بالمسنين فيها من متقاعدين وكتّاب وفنانين ...

فشكرناها بحرارة وشكرنا مدير النادي الذي سمح لنا بالدخول كمــا شكرنا المصادفة الحلوة التي سمحت لنا بالتعرف على شيوخ هذا الشعب الراقي في ناديهم الجميل ! ولا اغالي اذ اقول ان الانسان يشتهي الشيخوخة في بلاد العالم الراقي حيث تهتم الدولة والمجتمع باسره بجعلهــا مرحلة من أمتع مراحل العمر واسعدها ، وحيث تتوافر لها سبل التسلية والراحة والطمأنينة . فبالاضافة الى ما يوجد عادة في تلك البلاد من وسائل الترفيه النفسي والفكري كمسارح التمثيل والموسيقى والمتنزهات والملاعب الرياضية ، هنالك العديد من المستشفيات الجميلة والخدمات الاجتماعية المنظمة ، ودور العجزة المثالية بجمالها وهدوئها وادارتها .

غادرنا جنيف ذات مساء بالقطار فبلغنا باريس في صباح اليوم التالي وكان شوقي كبيراً لمعرفة عاصمة الفكر والجمال ، فوجدتها كما تخيلتها لكثرة ما قرأت عنها وسمعت ، ناهيك بتــأثير الرفيق على السائح ، فلقد اسعفني الحظ بأن يكون دليلي فيها ، ورفيقي الاثير ، شاب مثقف من بلادي ، عاش في باريس عدة سنين ، وعرفها وخبرها . طفت مع نادر على معالم المدينة المشهورة وفي

الحيّ اللاتيني حيث جامعة السوربون التي درس فيها وذكريات التلمذة الجميلة، كما زرنا القصور الاثرية الرائعة في ضواحيها كفرساي وفونتينبلو، وقد اسعفنا جوّ صاحٍ اكثر الايام . واما البرد الشديد في شهر كانون الاول والامطار الغزيرة فلم يعوقانا عن الحركة والتجوال لا في الليل ولا في النهار لأن باريس، كسائر المدن الكبيرة، تتعب زائرها لكثرة ما تغريه بالمشي الطويل والتنقل غير انه تعب لذيذ يجني منه متعة كبيرة وفائدة اكبر . ولا أريد ان اتحدث عن ملاهي باريس وصالاتها الاستعراضية المشهورة لانها، على فخامتها، وعلى ما في برامجها من ذوق وفن، لا تغري من كان مثلي بمشاهدتها اكثر من مرة واحدة، وانما احب ان اتحدث عن مسارح باريس القديمة والحديثة التي اولعت بها وفضلتها على كل ما عداها . في غضون ثلاثة اسابيع شاهدنا اكبر عدد من المسرحيات المعروضة يومئذ، واعجبت اكثر ما اعجبت بالممثل العبقري (لوي جوڤيه) في دور «دون جوان» لموليير، وبالفنان البارع في التمثيل (ساشا غيتري) في مسرحيته الهزلية (الحمامتان)، كما اعجبت بمسرحية (جان بول سارتر) العنيفة الرائعة : (الأيدي القذرة) . وأما مسرح (الكوميدي فرانسيز) وما تقدمه فرقته الممتازة للجمهور الذواقة من روائع الادب الفرنسي الكلاسيكي الصرف فان السهرة فيه تشحذ الفكر وتغذيه، وترضي النفس والنظر والعين . ثم هنالك مسرحان مشهوران بالنقد الاجتماعي والسياسي في باريس يتعاقب على احتلال المركز الرئيسي فيهما فنانون ونقاد وممثلون بارعون فُطروا على اجادة النكتة، وابراز العيوب الاجتماعية والانسانية والسخرية منها . وهذان المسرحان اللذان يقبل عليهما الفرنسيون وبعض السياح المتضلعين باللغة الفرنسية اقبالاً منقطع النظير هما : (مسرح الساعة العاشرة) و(مسرح الحمارين) . فالمسرح الراقي مدرسة جماهيرية، ومتعة فكرية لا تضاهيها ايّ متعة . ومهما قيل عن منافسة السينما له والتلفزيون سوف يظل في فرنسا

وفي البلاد ذات التقاليد المسرحية محتلا مركزه المرموق ، ولا ريب في ان للتراث الفني الفرنسي ولكتّاب المسرح فيها البارزين قديماً وحديثاً قيماً ذاتية تخطت الميدان المحلي واصبحت عالمية لتفوّقها في المبنى والمعنى ولأنها عالجت المشاكل الانسانية بدقة وعمق . ولا يخفى ان فن التمثيل في فرنسا فن اصيل كان وما زال ينشىء اجيالاً من خيار الممثلين ، فاللغة الفرنسية نفسها لغة عذبة ، غنية ، رقيقة ، تضفي عليه سحراً لا يبارى ، عـــدا العوامل الهامة التي جعلت للمسرح الفرنسي مكانته المرموقة بين مسارح العالم ومنها طبيعة الفرنسيين انفسهم المرحة ، وبديهتهم الحاضرة ، وقدرتهم على تشريح النفس الانسانية بخفة روح ، وتوقد ذهن ، وأخـــيراً براعتهم في وصف المحرك الرئيسي للكون وفي تحليله وعرض الوانه ألا وهو الحب !

وهكذا ختمنا رحلة (شهر العسل) في باريس احسن ختام وعدنا الى دمشق قبيل عيد الميلاد لنستقبل عاماً جديداً وانا في شوق شديد الى ابني نزيه الذي لم يفتقدني كثيراً وهو في رعاية امي وابي ينتظر الهدايا الجميلة ...

* * *

مؤتمر حقوق المرأة

لم يكن في الحسبان ان توكل الي أيّة مهمة رسمية بعد استقراري في حياتي الجديدة لذا فوجئت بانتدابي عضواً في الوفد النسوي السوري لدى مؤتمر لجنة حقوق المرأة في آذار ١٩٤٩ أعلمني زوجي بالامر ساعة قرأ المرسوم منشوراً في الصحف ، فكان وفدنا مؤلفاً من السيدة عادلة بيهم الجزائري رئيسة له (وكانت رئيسة الاتحاد النسائي السوري) ومن الدكتورة مارسيل عبسي والسيدة منيرة أبو ريشة والآنسة عاطفة الجابري وأنا أعضاءاً، فتوجهنا الى بيروت واشتركنا بأعمال المؤتمر التي استغرقت اسبوعين واتخذت قاعة الأونيسكو مسرحاً لها . كانت القاعة تغص يومياً بالصحفيين والمراقبين والمتفرجين من الجنسين اذ لم يسبق لعاصمة عربية ان كانت مركزاً لمؤتمر دولي للمرأة ارسلت إليه خمس عشرة دولة من الدول الاعضاء في المنظمة الدولية وفوداً نسوية ، شرقية وغربية ؛ فالمرأة تجذب الجمهور دائماً لا سيما اذا أتيح له ان يراهـا مندوبة رسمية لبلدها تناقش وتبحث وتصوّت وتقترح . كانت سائر الوفود متمرّنة على هذا النوع من العمل لاشتراكها في الدورتين السابقتين للجنة حقوق المرأة اللتين عُقدتـا في الغرب ، ولم نكن نحن ، ممثلات سورية ، قد ألممنا بعد بمثل هذا العمل وبأساليبه وأصوله لذا طلبنا من حكومتنا ان تضم الينا مستشاراً من وزارة الخارجية لتوجيهنا ومساعدتنا ، فانتدبت موظفاً قديراً ألحقته بنا هو السيد فيكتور قندلا[1] كما انضم الينا عدد من العاملات في الاتحاد

---

(١) لم يكن السيد قندلا المستشار الوحيد بين الوفود إذ كان للوفد الروسي مستشار ملحق به .

النسائي السوري أذكر منهن الاستاذتين جهان موصللي وعناية رمزي ، والآنستين سمية الحكيم وثريا الحياني . افتتح أعمال المؤتمر وزير خارجية لبنان الاستاذ حميد فرنجية بوصفه ممثلاً للحكومة التي انعقد فيها ، فرحّب بالوفود ترحيباً وديّاً . وتمنى لها التوفيق والنجاح، وكانت رئيسة الدورة مندوبة فرنسا مدام لوفوشو (Mme Lefaucheux) ، وممثلة الأمانة العامة لهيئة الأمم السيدة لاباركا (Mme Labarka) . وهي مندوبة الشيلي لدى تلك المنظمة . ناقشت الوفود جـدول الأعمال في جلسة بعـد الظهر ووافقت عليه ، ثم تألفت لجان فرعية مختلفة في الجلسات اللاحقة لتقديم الأبحاث والمقترحات وطرحها على المناقشة ثم التصويت عليها لاقرارها وارسال التوصيات فيها الى الحكومات والمنظمات ، وكلها يهدف الى رفع مستوى المرأة ، وضمان حقوقها الاقتصادية والثقافية والاجتماعية والسياسية انطلاقاً من مبدإ المساواة بينها وبين الرجل الذي أقرته هيئة الأمم ، ومن مبادىء وثيقة اعلان حقوق الانسان .

آمن عالم القرن العشرين بضرورة محاربة التخلف أينما تجلّى، وتوضّح لديه ان التطور المنشود منوط بنهضة المرأة ، أي باعدادها ثقافياً للاسهام في الخدمات العامة . لأن الامم اصبحت في حاجة الى تضافر جهود الجنسين ، ولأن رقي المرأة الذاتي يعني ارتقاء الأسرة والمجتمع والأجيال الصاعدة . اننا نعلم ان وضع المرأة يختلف باختلاف البلاد التي تنتمي اليها لأن منها السابق الى التقدم ومنها المتأخر ، ولكن المنظمات الدولية الحديثة أثرت كثيراً في تضافر الجهود لمساعدة الاسرة الانسانية على التحرر من الجهل والظلم والفقر والمرض . من هذا المبدإ انطلقت المرأة الى ميدان العمل الدولي المنظم مؤمنة بفوائده الكبيرة . هادفة الى نشرها في مختلف ارجاء المعمورة لخير الانسانية ، ومستعينة بوسائل الإعلام العديدة الآخذة بالتطور والتحسن عاماً اثر عام .

وقد ثبت لدينا نحن العربيات ان عقد هذا المؤتمر في بلد عربي أتاح لنسائنا فرصة الاطلاع على ابحاث متنوعة، وفتّح أذهاناً كثيرة كانت خاملة. كما وجّه الاذهان المتفتحة الى سبل العمل المشترك الايجابي وضرورة الانصهار بالبوتقة العالمية. فالموضوعات التي عالجناها في جلسات مؤتمرنا معالجة علمية وموضوعية بحتة أفادت المرأة وسمت بأفق تفكيرها لتفهّم المشكلات التي تعيشها، فعرّفتها بالداء وهدتها الى الدواء. عالجنا مثلاً قضية المرأة العاملة فعلمنا من خلال الاحصاءات والتقارير التي قدمتها المندوبات ان اجور النساء تنقص عن اجور الرجال في حال تأدية العمل ذاته في اكثر من بلد متحضر، كالولايات المتحدة مثلاً وبريطانيا وايطاليا وسويسرا، وذلك حين قدمت مندوبة اتحاد العمال النسائي احصاءات مذهلة وقالت انها تمثل ثمانين مليوناً من العاملات يتمنين ان تكون اللجنة المجتمعة وسيطاً لدى المجلس الاقتصادي الاجتماعي لكي يبادر الى تسوية الاجور بينهن وبين العمال. فاشتركت في النقاش مندوبات الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة وبريطانيا والصين. وكان اهتمام ممثلات كل واحدة من الكتلتين الكبيرتين في العالم بالدفاع عن الانظمة الذاتية لبلادها ومهاجمة ما عداها واضحاً، وهذا ما جرى عليه مندوبو الشرق والغرب في منظمة هيئة الأمم منذ تأسيسها.

طلبت الكلام مندوبة الهند (الآنسة مينون Miss Manon) اثر ترجمة خطاب مندوبة روسيا الآنسة بوبوفا Miss Popova وقالت

– اود قبل ابداء وجهة نظر حكومتي فيما يتعلق باقرار المساواة في الاجور للأعمال المماثلة التي يقوم بها الرجال والنساء، أودّ ان أنبّه زميلاتي المندوبات الى اننا وُجدنا هنا لذكر الحقائق ومعالجة المشكلات على ضوئها لا للقيام بالدعاية لبلادنا. لذا ارجو من اللجنة الموقرة الا تتخذ مقرراتها استناداً الى إحصاءات المنظمات غير الحكومية التي سُمح لها بالاشتراك في اعمالنا قبل

التأكد من صحتها لأنها مستمدة على الأغلب من مصادر حزبية معروفة تعمل لغايات دعائية معروفة . اما الهند فانها جادّة في تطبيق مساواة الأجور لعمالها من الجنسين ، وكبيرة الامل في بلوغ هدفها الانساني العادل .

أظهرت رئيسة الدورة السيدة لوفوشو براعة في ادارة الجلسات وكانت حقاً سيدة خلوقاً مثقفة ثقافة عالية مما جعل جميع المندوبات يتفقن على احترامها . وقد تخللت الجلسات بعض المناقشات الطريفة والمداعبات الخفيفة سوف اذكر بعضها لانها تكشف النقاب عن ذكاء اللواتي اشتركن بها وعن مقدرتهن في حسن التخلص من الإحراج وعن بديهتهن الحاضرة .

تقدمت بعض المندوبات بمقترحات اثر الاستماع الى تقارير الدول عن وضع العمال والعاملات كانت موضع اهتمام لجنة المقررات التي درست نصوصها قبل طرحها على المؤتمر للمناقشة والتصويت . وكان من أطرف ما سمعناه يوم التصويت على تلك المقترحات قول مندوبة الصين (الآنسة زينغ Miss Zing) وهي محامية ذكية طيبة القلب وميالة الى المسالمة ، فقد طلبت الكلام وعلقت على النص الروسي المقترح وقالت :

ــ اني لا امتنع عن التصويت مع النص الروسي فنحن أصدقاء لروسيا اذا ارادت ... يقولون ان النساء يتكلمن كثيراً ويعيبون ثرثرتهن لذا يجدر بنا ان نختصر النقاش الطويل وان نطرح التنافس جانباً ، فالقضية ليست متعلقة بقبول الاقتراح الروسي او الاميركي او غيره بقدر ما هي متعلقة بقبول الاقتراح الاكمل ، المستوحى من مختلف الاجتهادات ، لأن غايتنا واحدة وهي العمل على تحسين حالة العاملات في العالم

وأيدتها في كلامها مندوبة الهند والقاضية كينيون (Judge Kenyon) مندوبة الولايات المتحدة ومع ذلك لم تنل نصوص الاقتراح الروسي اكثرية

الاصوات مما دفعنا نحن اعضاء الوفد السوري الى كتابة تعديل موفق قدمنـــاه للمؤتمر فطرحته الرئيسة على التصويت ولكن مندوبة الاتحاد السوفييتي اعترضت عليه بقولها :

– لن اصوت مع النص السوري لانه يحوّل التوصية الى مكتب العمل الدولي فان هذا المكتب وان احرز النجاح في بعض اعماله لم يكن جاداً في مقرراته ... ولماذا يا سيدتي لم تسمحي لمندوبة نقابات العمال الدولية بالكلام بينما سمحت لممثلة مكتب العمل الدولي بالتحدث في جلسات مؤتمرنا ؟؟

الرئيسة مدام لوفوشو : كنت أودّ السماح لها بالكلام غير ان مندوبة الصين طلبت وقف النقاش والمباشرة بالتصويت ولم يعترضها أحد . لذا أراني مضطرة لطرح النص السوري على الاقتراح . واذا كنت مصرة فلنسألها رأيها !

مندوبة الصين الآنسة زينغ : أسمح لها ان تتكلم ولكن لا اكثر من دقيقتين.

فضحكت الاعضاء جميعاً من هذا الشرط الذي أتى في موضعه ... ولقد نال اقتراحنا أغلبية الاصوات. وبعد ان رُفعت الجلسة طلبت الرئيسة محادثتنا فشكرتنا وقالت :

– لقد انقذتن الموقف باقتراحكن الموفق !

ان ذكريات ذلك المؤتمر الطريفة ما زالت ماثلة في حافظتي وكأنها جرت في الأمس القريب . ولا ريب في اني جنيت من المؤتمر فائدة كبيرة واستمتعت بكل ما دار فيه كل الاستمتاع . فقد برهنت لنا مندوبة روسيا عن سرعة خاطرها وحبها للنكتة مع انها كانت جدية دائماً . وذلك يوم تقدمت مندوبة الدانمارك بمشروع قرار تطلب فيه من أمانة السر العمل على فتح حساب خاص للجنة

شؤون المرأة يرمي إلى تنظيم مكتب للدعاية فاعترضت مندوبة الولايات المتحدة على طلب النفقات وإذا بالآنسة بوبوفا تردّ عليها قائلة :

–كانت القاضية الآنسة كينيون قد ذكرت لنا فيما سبق انها من اصل اسكوتلندي والآن فهمت لماذا تبغي التوفير لأن قومها قد اشتهروا بالاقتصاد ...

فضجت القاعة بالضحك لهذه المداعبة وتمنينا لو ان مندوبة الاتحاد السوفييتي تستطيع ان تطلق نفسها على سجيتها الحلوة المرحة .

وبحث المؤتمر في جملة ما بحث قضية التعاون الفني بين الدول ، والتوجيه الفني للنساء العاملات في مختلف الحقول الصناعية والادارية والثقافية ؛ فقدمت سورية اقتراحاً للعمل على اصدار كتب ونشرات عن تاريخ النهضة النسوية في العالم وسيَر شهيرات النساء بعدة لغات للتأثير على الرأي العام الدولي ، ولحفز نساء العالم على التيقظ والعمل والارتقاء، أقرّته اللجنة عندما عرض عليها بإجماع الاصوات . وكان للمطالبة بحقوق المرأة السياسية نصيب وافر من العناية والاهتمام ، فألقيت كلمة عن الموضوع باسم وفدنا ثم سجلتها عقب الجلسة للاذاعة اللبنانية وكنت قد بيّنت فيها تمتع المرأة العربية بتلك الحقوق في صدر الاسلام يوم كانت متحررة تشارك الرجال في مبايعة النبي والخلفاء من بعده وتخوض غمار المعارك . وقد أشرت في كلمتي الى مراحل نهضة المرأة السورية ومطالبتها بتلك الحقوق منذ عام ١٩٣٧ وقلت اننا في سورية لم نلاحق هذه المطالبة لسببين : أولهما لان الظروف العصيبة التي اجتاحت بلادنا في السنوات الاخيرة جعلتنا ننصرف عن قضيتنا الخاصة لمناصرة القضية الوطنية من اجل نيل الاستقلال، وثانيهما لأن نساءنا الواعيات أردن التريث حتى ينتشر التعليم في جميع أنحاء سورية فتتهيّأ بذلك المرأة لممارسة حقوقها السياسية . بيّنت ان الشرع الاسلامي والدستور السوري لا يعارضان مطلقاً اسهام المرأة في الحياة السياسية

والأعمال العامة . ولا بد لي هنا من الاشارة الى رأي شخصي تبنّيته منذ ذلك التاريخ عن يقين ولم أحد عنه وهو اني اعلق أهمية كبرى على ان تحصل المرأة على حقوقها المدنية قبل كل شيء ففيها وحدها الضمان لتحررها من الظلم والجهل والخوف وفيها سلامة المجتمع والاسرة ، أما ممارستها حقوقها السياسية فانه امر ثانوي في نظري لا بدّ من الوصول اليه طالما نحن سائرون مع ركب التطور العالمي. ولكن علينا في طليعة واجباتنا ان نعدّ أنفسنا في هذا الشرق العربي لتطوير المجتمع ونشر التعليم وتأسيس الخدمات الاجتماعية في الارياف كما في المدن وتوعية الجماهير ، النساء والرجال على حد سواء ، فاذا كانت دولة راقية مثل سويسرا لم تمنح نساءها الحقوق السياسية بعد مع ان مستوى التعليم فيها عالٍ جداً ومع ان المرأة فيها تتمتع بحريتها وحقوقها الاساسية فيا حبذا لو نبلغ ذلك الشأو في التقدم والرقي دون بلوغ مرحلة ممارسة الحقوق السياسية ! لست رجعية في تفكيري هذا ، ولست ضد وصول المرأة العربية الى مقعد النيابة او الوزارة او السفارة عندما تصبح جديرة به ، انما اريد لها ان تثبت وجودها اولاً في المجتمع عضواً نافعاً واعياً لمسؤولياته ، يذلل العقبات ، ويشارك في البناء الجديد للاسرة الانسانية برمتها ، يثق بنفسه وبامكاناته ، ويعمل ويبدع ، وما اكثر الميادين التي تستطيع المرأة ان تخدم فيها وتبدع ! لعل استعراض الدول التي نالت فيها النساء حقوقهن السياسية ينوّر أذهاننا لا سيما اذا أخذنا بعين الاعتبار نضال النساء لاخذ هذه الحقوق والجدارة التي أثبتنها في ممارستها، فقد اهتممت بهذا الموضوع اثناء اشتراكي في اعمال مؤتمر لجنة شؤون المرأة ووجدت ان زيلندا الجديدة كانت اول دولة في العالم منحت المرأة الحقوق السياسية سنة ١٨٩٣ . ثم تبعتها أوستراليا سنة ١٩٠٢ ، وأن بين الدول الاوروبية الست والعشرين التي أعطت نساءها تلك الحقوق حتى عام ١٩٤٩ كانت فنلندا والنروج أولاً (١٩١٣ و ١٩١٦) وتلتهما

الدانمارك (١٩١٥) وهولندا والاتحاد السوفييتي (١٩١٧) وانكلترا (١٩١٨) وغيرها تدريجياً. اما الولايات المتحدة الاميركية فقد تمّ تعديل الدستور فيها سنة ١٩٢٠ ومنح المرأة حقوقها السياسية وحقّ تولّي منصب رئاسة الجمهورية ، وفي سنة ١٩٤٤ فقط فازت المرأة الفرنسية بحقوقها السياسية إثر مناقشة حادة في البرلمان الفرنسي.

اما عن القارة الاسيوية التي نشكل نحن جزءاً صغيراً منها فان منغوليا كانت اول من أعطى المرأة حقوقها السياسية ، ثم تلتها سيام وتركيا والهند والصين وسورية التي كانت سادس دولة في آسيا تمنح المرأة حق الانتخاب بعد حدوث أول انقلاب عسكري فيها صبيحة الثلاثين من آذار سنة ١٩٤٩ كنا يومئذٍ نمثل سورية في مؤتمر لجنة حقوق المرأة في بيروت فانهالت على وفدنا التهاني على احراز الفوز بما طالبنا به ولكن أنباء الانقلاب ومضاعفاته شغلتني عن كل ما عداها ، وسوف أعود اليها في موضع آخر لتأثيرها البالغ في مصير بلدي وفي حياتنا.

كان آخر ما بحثه مؤتمرنا مشروع قرار أميركي يرمي الى توسيع التعاون مع منظمة الصحة الدولية فعارضته مندوبة روسيا تقول : « إني لا ارى صلة لهذا المشروع بأبحاثنا ، واظن ان كل دولة قادرة على تحسين منظماتها الصحية بمفردها. ان في روسيا السوفييتية ثلاثمئة ألف طبيبة يعملن في خدمة الدولة والشعب ، وفيها ما ينيف على مليون ممرضة كان لهن فضل كبير في مساعدة الجيش الاحمر في الحرب الاخيرة ضد النازية ».

ولكن أغلبية المندوبات أيدت المشروع لضرورة مساعدة الدول النامية في الحقل الصحي ، حتى ان مندوبة اليونان وقفت لتشكر الاطباء والممرضات الذين أموا بلادها للاسعاف اثناء الحوادث الدامية التي جرت فيها اثر الاحتلال

الروسي ثم وقفت مندوبة الهند وتكلمت بهدوء وقالت :

– لا بد للعالم أجمع من هذا التعاون الانساني لأن عدد الممرضات في العالم ضئيل جداً ويجب علينا ان نسعى لتشجيع الفتيات على ممارسة هذه الحرفة النبيلة بجميع الوسائل لصالح البشرية المعذبة لذا أؤيد مشروع القرار وآمل ان تحذو حذوي جميع المندوبات . وفي الجلسة الختامية تعاقبت المندوبات في الكلام لشكر لبنان فعبّرت كل واحدة منهن عن اسلوبها الديبلوماسي وثقافتها وذكائها لأن بعض الكلمات التي أُلقيت أفصحت عن كل هذا وتضمنت انتقادات لاذعة أحياناً وتلميحات ذكية لبقة أحياناً أخرى . قالت الآنسة مينون مندوبة الهند معلقة على اقتراح مندوبة المكسيك السيدة كاستييو ليدون (Mme Castillo Ledon) بعقد المؤتمرات المقبلة في مختلف بلاد العالم :

– لتسمح لي السيدة الرئيسة بالاعراب عن سروري بهذا الاجتماع في لبنان وإبداء أملي في أن تقبل زميلتي الروسية اقتراحاً أتوخى منه فائدة كبرى وهو ان تدعونا الى موسكو لنعقد اجتماعاتنا المقبلة فيها لأنها ستعود بالفائدة الكبرى علينا من حيث التعاون مع نساء روسيا السوفييتية النشيطات والتعرّف اليهن عن كثب، كما انها ستسعدنا بمشاهدة بلاد عظيمة فأرجو ان يحظى اقتراحي بالقبول .

مندوبة الولايات المتحدة القاضية الآنسة كينيون : يا لاقتراح الهند من اقتراح رائع ! أرجو ان يتحقق لأني أحلم بزيارة موسكو منذ زمن بعيد وقد أبديت رغبتي هذه في اثناء انعقاد المؤتمر الاقليمي قبل سنتين .

مندوبة روسيا الآنسة بوبوفا : اشكر اللبنانيات على حفاوتهن واشكر خاصة جمعية اتحاد النساء الديمقراطيات لأنها تعمل في المدن والقرى من أجل

نشر مبادىء سامية تعود بالنفع الكبير على النساء ، وأما قضية انتقال مؤتمر لجنة حقوق المرأة في المرة المقبلة الى بلاد ترغبن في التعرف إليها فانه اقتراح جميل ولكن علينا قبل ان نفرض أنفسنا على الدول لتدعونا ان نعمل جدياً لكي نستحق دعواتها استحقاقاً فعلياً !

فأجابتها مندوبة انكلترا تقول

ـ أشكر لبنان وممثلات جمعياته النسوية على ما وجدناه من حفاوة وتسهيل لمهمتنا . كما أحب ان ارد على الآنسة بوبوفا بأني أشاركها الرأي في ان على النساء ان يكن جديرات بدعوة الدول لهن غير اني أرى ان على المرء ان يسعى اذا شعر بأنه استحق شيئاً ولم يحصل عليه ... ولا شك في ان البلد الذي نعقد فيه مؤتمرنا سيستفيد منا .

أما مندوبة الشيلي مدام لاباركا (ممثلة الامانة العامة لهيئة الأمم) فلقد قالت انها كانت تتساءل قبل زيارة لبنان لماذا اخترع شعبه بالذات الحروف الأبجدية ، ولكنها وجدت الجواب الآن لأنه شعب شديد الرغبة في ان يفهم غيره ويعرّف بنفسه .

ولقد قدم وفدنا تقريراً عن اللاجئين الفلسطينيين سمحت الرئيسة بطرحه على التصويت وفاز بأغلبية الاصوات كما أعدّت الدكتورة مارسيل عبسي مذكرة في الموضوع أرسلها المؤتمر الى المجلس الاقتصادي الاجتماعي ولجنة التوفيق الدولية التي كانت مجتمعة في بيروت يومئذٍ

طالبنا في تلك المذكرة بالعمل على إعادة اللاجئين الفلسطينيين الى ديارهم التي حُملوا على مغادرتها في ظروف قاسية استناداً الى وثيقة حقوق الانسان التي أعلنتها هيئة الامم ووعدت بتنفيذ بنودها دفاعاً عن الانسان في كل مكان

ومناصرة لحقه بالعيش الكريم في وطنه ، وقد استشهدت الدكتورة عبسي بفقرة من خطاب ألقته القاضية الآنسة كينيون في مؤتمر لاهاي الدولي للمحامين قالت فيه : « ان حياة الانسان بلا وطن رجلاً كان او امرأة لفاجعة كبرى لـــه وللانسانية » . وفي الخامس من نيسان وجه وفدنا دعوة رسمية الى الوفود المجتمعة لقضاء يوم في دمشق فرافقنا المندوبات وزرنا معهن مخيّمات اللاجئين ومعالم دمشق الاثرية ، ولم يلاحظ أحد غيرنا نحن السوريات أن دمشق بدت غريبةً في حلتها الجديدة إثر نجاح أول انقلاب عسكري فيها .

* * *

أمومــة جديدة

كثيراً ما تنشط الخواطر بالكاتب وتقوده الى الخوض في مواضيع دقيقة، وانا لا اريد التحدث عن الانقلابات في سورية لأني لا اكتب تأريخاً لبلدي انما سأتحدث عن تأثير الانقلاب العسكري الاول الذي قام به الزعيم حسني الزعيم في حياتي كابنة وكاتبة . فلقد عدت الى دمشق من مؤتمر المرأة لأجد أبي محجوراً عليه في داره بأمر من قائد الانقلاب نفسه إثر موقف هام وقفه يوم الانقلاب خلال الجلسة الطارئة التي عقدها النواب للتداول بالحادث الخطير بناء على اقتراح رئيس المجلس النيابي يومئذ الاستاذ فارس الخوري .

لقد ثبت للذين قابلوا حسني الزعيم في ساعات الصباح الاولى انه كان مضطرباً ، غير متأكد من نجاح حركته ، وراغباً في تأييد النواب لها مع انه كان قد اعتقل رئيس الجمهورية الزعيم القوتلي واعضاء الحكومة ورئيسها وبعض النواب والسياسيين ، وختم دار البرلمان بالشمع الأحمر تأكيداً لتعطيل الدستور .

ويبدو ان اقتراح الرئيس فارس الخوري عقد جلسة طارئة كان بوحي من حسني الزعيم ، فاجتمع خمسون نائباً تقريباً في مبنى وزارة الخارجية (لوجود الآخرين في سجن المزة) وترأس الجلسة الاستاذ الخوري وخاطب النواب بقوله :

ــ ان الزعيم رئيس الأركان قد أجرى انقلابه هذا الصباح كما تعلمون

وهو يودّ تأييد المجلس النيابي والتعاون معه . أولا ترون معي انه يجدر بنـــا ان نفكّر في أهون الشرّين وأخفّ الضررين وان نعمل على التفاهم معه ؟

فنهض أبي محتداً وقال بصوت مرتفع حازم :

— « لا يا سيدي الرئيس لأن ما يتوجب علينا عمله هو ان نقاومه عوضاً عن ان نمدّ له يد العون ! لقد أقسم نواب هذا المجلس اليمين على احترام الدستور والمحافظة على أحكامه ، وحيث ان الانقلاب الذي جرى هو خرق للدستور وعدوان صارخ عليه وعلى السلطة الشرعية في بلدنا فاننا نواجه في هذه الساعة أمراً خطيراً جداً لا يجوز لنا السكوت عنه . واذا كنت أرفض بشدة التهاون بما حدث أو القبول به فلأني أحترم الدستور وأحترم قسمي عليه راجياً من اخواني النواب الحاضرين ان يحافظوا على القسم المقدس الذي هو أمانة في أعناقهم حرصاً على احترام الدستور . ثم اني أحذركم من عواقب هذا الانقلاب اذ أثبت لنا التاريخ بأحداثه القديمة والحديثة انه ما من انقلاب عسكري الا وانتهى الى احدى نتيجتين اما الى فوضى رهيبة او الى دكتاتورية جامحة، فاحذروا تبعة موقفكم وفكروا طويلاً قبل اتخاذ اي اجراء » .

وبعد أن توقّف ابي عن الكلام سأل الرئيس الخوري النواب عما اذا كانوا يبغون التعقيب عليه فتكلم الدكتور ناظم القدسي وكان مما قاله :

— « قد تقضي الظروف الطارئة على الانسان بالتحرر من يمينه ولذلك ارى ان على المجلس ان يعالج الحالة الحاضرة بالحكمة والرويّة » .

فردّ عليه ابي يقول

— « ان من كان مستعداً للحنث بقسمه فوزره عليه وحده ! »

ووصل في تلك اللحظة حسني الزعيم الى وزارة الخارجية لمعرفة ما استقرّ عليه رأي النواب ، فانسحب نواب الحزب الوطني لدى دخوله ثم تبعهم ممثلو الاحزاب الاخرى لقد فشل الاجتماع وعلم حسني الزعيم بمعارضة ابي العنيفة له فاغتاظ منه ونقم عليه، غير اننا حمدنا الله كثيراً لانه اكتفى بفرض الاقامة الجبرية عليه لمدة اربعين يوماً اذ كان بوسعه ان يسجنه ويعذبه او يأمر بقتله ... ويقول والدي في مذكراته الشخصية ان بعض نواب حزب الشعب قد زاروه في منزله عقب الاجتماع وهنأوه على موقفه الصريح وقالوا له : « لقد فكرنا بخطورة الامر وأتيناك نحيّي فيك الجرأة والوطنية لاننا نؤيدك ونشاطرك رأيك » . ثم حددوا موعداً لاجتماع كبير في اليوم التالي للاتفاق على خطة مشتركة ، فانتظرهم ابي وطال انتظاره ، وعندما سأل عنهم في فندقهم علم انهم غادروا دمشق الى محافظاتهم . وجدير بالذكر ان جريدة (الكفاح) نشرت فصولاً متتابعة بقلم صاحبها الاستاذ امين سعيد عن انقلاب حسني الزعيم بعنوان (كنت في المزة) وذلك في شهر تشرين الثاني لعام ١٩٤٩ اي بعد انقضاء عهد الزعيم بثلاثة اشهر تضمنت جميع الوقائع والملابسات التي رافقت ذلك الانقلاب الخطير ، وموقف أبي منه . اما كيف تم فكّ الحجر عن أبي فلا بدّ من ذكر فضل الزعيم عبدالحميد كرامة الذي أتى خصيصاً الى دمشق وقابل حسني الزعيم وطلب اليه الافراج عنه فاستجاب إلى طلبه في الحال وقال له بالحرف الواحد : « ان لطفي الحفار رجل عنيد ولكنه جريء وشريف واني اكنُّ له الاحترام والاعجاب ! » كان هذا ما سمعته بالحرف الواحد من الزعيم كرامة في بيتنا إثر عودته من دار حسني الزعيم بعد ان قابله وتغدّى على مائدته . لقد اعتزل ابي العمل السياسي مذ ذاك وتفرغ لأعمال مشروع الفيجة الى ان دُعي الى العمل مجدداً في اوائل سنة ١٩٥٥ حيث ترأس الحزب الوطني بعد انتهاء حكم الشيشكلي وعودة

الاوضاع الشرعية بعودة الزعيم الجليل هاشم الأتاسي الى رئاسة الجمهورية .

اذكر اني كنت ملزمة بابراز هويتي كل يوم لموظفي الأمن المولجين بمراقبة الحجر على ابي لكي يتثبتوا من قرابتي الوثيقة ويسمحوا لي بزيارته ، فكنت أقضي معه أوقاتاً طويلة ابذل الجهد خلالها لتسليته . حدثته عن مؤتمر المرأة وعن حصيلة مشاهداتي فيه ، وكنت أقرأ له ما يختار من الكتب التاريخية والأدبية ، كما كان يقرأ لي ما استرعى انتباهه وما اعجبه من هذا الكتاب أو ذاك . وعندما انفك الحجر عنه كنا نقوم بنزهة يومية الى الغوطة لشدة حبه لها وولعه بجمالها ، والغوطة في نيسان قطعة من الرياض تفوح من ارضها وشجرها رائحة العنبر ، وتقدم لمحبيها ألف لون ولون من الفتنة والهدوء والسحر .

وفي تلك الفترة بالذات واجهت حياتي الجديدة وكان شعاري اشاعة البهجة والتفاؤل حيثما وُجدت . لقد أحببت البيت القديم الذي سكنته في القصاع مع أهل زوجي ، لا لسعته أو جماله ، بل حباً بسكانه وقد ضمّ أبويه وعمته واخوته الستة واخته الوحيدة فكنا نعيش معهم ومنفردين اذ خصّونا بشقة منه أثثناها ببساطة . أحببت في حميّ المغفور له ياسين الكزبري الرصانة الممزوجة باللطف والكرم والنبـــل ، والتمسك بالدين بلا تزمت ، والفهم العميق بلا ادعاء ، فقد كان انساناً كبيراً متواضعاً هادئاً ، قليل الكلام وبعيد النظر ، محباً لأهله ووطنه . كان يعامل ابناءه معاملة الأخ الكبير لاخوته الصغار بصرامة ورفق ، وقد حرص على تعليمهم تعليماً عالياً وبذل في سبيل ذلك تضحيات كبيرة لأنه نُكب بفقد بيت أبيه وأنفس محتوياتـــه من سجاد وتحف وأثاث إبان الثورة السورية الكبرى سنة ١٩٢٥ حيث أحرقه الفرنسيون وألحقوا بالبستان وأشجاره المثمرة أضراراً كبيرة . ان نادر أكبر ابنائه لذا كنت أول كنّة له فلقيت منه ومن زوجه التي كانت ، رحمها الله ، آية في الجمال والطيبة أصفى

محبة وأحسن اكرام . سكنّا البيت القديم معاً (وهو غير الذي أحرقه الفرنسيون) قرابة عامين ثم انتقل عمي وأسرته الى بيت جديد بناه في البستان ذاته في القصاع ولم ينقض العام الثالث على زواجنا الا وكان بيتنا نحن قد تمّ بناؤه على نفقته وباشرافه وبالقرب من بيته .

تعلمت في الأعوام التي تلت زواجي اشياء هامة أساسية لكل زوجة منها الطهي وادارة المنزل بكل ما فيهما من فن ، وأولعت بشؤون المنزل لحرماني من الاستقلال ببيت خاص فيما سبق ولايماني بأن شخصية المرأة تتجلى باسلوب تنسيق بيتها واعداد مائدتها بقدر ما تتجلى بلباسها وزينتها وتصرفها في المجتمع . ولم يمنعني الاهتمام بالمنزل من متابعة المطالعة والكتابة ، ومن الاسهام في بعض النشاطات الثقافية والاجتماعية لأن تنظيم الوقت هو الأساس في حسن الاستفادة منه ، فقد كنت وما زلت استغرب شكوى ربات البيوت من ضيق الوقت اذ ثبت لديّ ان الواجبات المنزلية لا تستغرق ساعات النهار كلها فان فيها متسعاً كبيراً للعناية بالنفس والفكر ، ولملء الفراغ بما يمتع ويفيد . وبفضل التنظيم استطعت في تلك السنوات الثلاث ان انشر كتابي الأول (يوميات هالة) ، وان أعدّ للطبع مجموعة قصص موضوعة ومعربة (حرمان)، وان اقدم لمحطة الشرق الأدنى للاذاعة العربية سلسلة احاديث استمرت بضعة اشهر عن النشاط النسوي في سورية ، وان أتابع رياضة التنس والعزف على البيانو ، الى جانب العناية بابني الذي كنت أراه يومياً في المساء لأنه كان مقيماً في دار أبويّ . أما زوجي فكان يتابع محاضراته في الحقوق الجزائية في الجامعة السورية وعمله في مجلس شورى الدولة الى ان الغي ذلك المجلس سنة ٥١ واستُبدل بالمحكمة العليا . عندئذ ترك سلك القضاء واستُدعي الى وزارة الخارجية حيث باشر عمله فيها مستشاراً ، ثم مديراً عامّاً بالوكالة ، ووزيراً

مفوضاً ، وسفيراً بالتدرّج. ونادر كما ذكرت آنفاً مولع بالقراءة والموسيقى ، وذواقة في الأدب فكنت وما زلت أسأله رأيه فيما أكتب وأستفيد من نقده ، كما أني لقيت منه كل تأييد وتشجيع على الدوام . اذكر على سبيل المثال اني عُينت عضواً في مجلس الاذاعة فملت الى الاعتذار بسبب كوني حاملاً ولكنه أصرّ عليّ بقبول العمل وظللت أتابع الاجتماعات في لجنة التوجيـــه الثقافي والموسيقي ، وفي لجنة المسابقات الأدبية حتى قبيل وضعي بأسابيع . وفي مساء الثامن من ايلول من العام ذاته استقبلنا ابنتنا الأولى بفرحة عارمة وأسميناها ندى ، وكنا قد انتقلنا الى بيتنا الجديد ونظمنا حديقته الصغيرة وغرسنا فيها الاشجار والياسمين والورود، وكأن الأخطل الصغير عنانا في مناجاته لابنته اذ أنشد يقول :

ندى ، ندى ، بسمة الورد للندى في الصباحِ
ندى ، ندى ، همسة الطهـــر في شفاه الأقاحـــي
ندى ، ندى ، شعلة الحبّ قبلة الأرواح
كم من وشاح كساها الجمال كم من وشاح .

غير ان فرحتنا لم تكتمل اذ اختطفت المنية والد نادر بعد ولادة ابنتنا التي كانت أولى احفاده بأيام قليلة ، وكان قد علم بقدومها وباركه دون ان يراها . كان عمي (أبو نادر) وحيداً لأبويه فتزوج في سن مبكرة وأنجب البنين الواحد تلو الآخر فأنضجته المسؤولية بسرعة لا سيما بعد نكبته في بيته وبستانه خلال الثورة السورية ، فاضطر للالتجاء إلى بيت أحد أقربائه أول الأمر . كان قبل ذلك يعيش رافلاً بأعطاف النعم ولكنه واجه المصاعب بروح عالية ونفس راضية ، وأنكر ذاته لكي يشبّ ابناؤه على ما أراد لهم من ثقافة واعتزاز بالنفس . وعندما تخطى العقبات جميعاً وبدأ يستمتع بهم شباباً ذوي

مراكز مرموقة ، ويستمتع بحياة هانئة وببستانه الذي تحوّل من أرض زراعية الى منطقة سكنية منظمة ، عندما اجتاز العاصفة وبلغ الشاطىء للراحة فارق الحياة وهو في الستين من العمر فودعناه بغصة ونحن عاجزون عن ادراك كنه الغيب ، فسبحان علام الغيوب ! لقد أحببنا ندى حبّاً جمّاً مذ كانت رضيعاً، ثم لعبة تحبو وطفلة صغيرة تتكلم وتمشي وتضحك لقد عبر لي ابني نزيه عن ابتهاجه بها يوم رآها اذ قال لي وهو يتفحّص قسماتها بدهشة واهتمام :

ـ ماما ! أنا فرحان بهذه الهدية لأنها أخت جميلة لا أخ ...

ثم امسك كلتا يديها الصغيرتين برفق وقبلهما واضاف بعد هنيهة تفكير

ـ الحمد لله على انها اخت يا ماما فالوحيد لا يجد من يؤنسه ويهتم به ويسليه، وسوف تكبر ندى ونصبح أصدقاء ونسعد ، أليس كذلك ؟

ثم حدثني عن قريب له وحيد لأبويه وعن تألمه لحاله لأنه لا يجد من يلعب معه ، ولأنه يبدو حزيناً ، ضجراً ، فأعجبتني ملاحظة ابني الذي لم يكن بلغ عامه السابع يومئذ ، وخشيت اشد الخشية ان يغار من الوليدة ، فصببت عليه غاية الحدب ولم اعرها كبير اهتمام امامه . ومن غريب الاتفاق ان يستجيب القدر لأمنية نزيه بأن يظل الابن الوحيد لأني رزقت بنتاً ثانية في السادس عشر من شهر كانون الأول لعام ١٩٥٢ أسميناها رشأ وسعدنا بقدومها مثل سعادتنا بقدوم ندى ، فأتت شقراء فاتنة ، وأضفت على منزلنا الصفاء والاشراق بزرقة عينيها النجلاوين وبياض بشرتها الياسمينية . ولقد وصف البحتري حسناء اسمها رشأ يقول :

أمدّ يدي لأخذ الكأس من رشإٍ   وغايتي كلها في حامل الكاس

ولكن ما لي امدح اولادي واغالي في وصف محاسنهم ؟ لعل عذري الوحيد اني أم مغرمة بأولادها كسائر الامهات والآباء ، فقد رعاهم قلبي ورآهم قبل ان تراهم عيناي، وان الانسان لولوع دائماً بما تلمحه شغاف القلب ويهفو اليه الوجدان قبل ان ترمقه اللحاظ . لقد اسمينا صغيرتنا الجديدة رشأ متوسمين فيها رشاقة الظبي ووسامته وانطلاقه الانيق بحرية وبهجة ، فعندما خلق مبدع الكون الغزلان انما شاء سبحانه منح البراري والصحارى لوناً من الجمال والرقة عبقريّاً !

استقبلت عاماً جديداً بعد ولادة ابنتي الثانية ببشر وارتياح وكنت قد بلغت الثلاثين من عمري وتأثرت بقراءة قصة لبالزاك عنوانها (المرأة في سن الثلاثين) فأيقنت بأن شبابي وفكري قد اينعا واني ادركت كنه الحياة ، ومعاني الحب والخير والجمال ، واكتشفت ما كان وراء السحب الدكناء التي غشيت افقي فيما مضى ! لا اقول اني كنت غافلة عن احتمال تجهّم ذلك الافق في وجهي من جديد ، انما اريد ان اقول ان التفاؤل والابتسام خير سلاح للمرء في الحياة ، وان الحب والعطاء اغزر ينابيع الهناء . قال الاديب الفرنسي الكبير انطوان دي سان اكزوبيري مؤلف التحفة الرائعة « الامير الصغير » وغيرها من نفائس الكتب الانسانية . قال في كتابه « أرض الرجال » « علمتنا التجربة ان الحب ليس في ان ينظر الحبيب الى محبوبه ، بل ان ينظر الاثنان معاً في اتجاه واحد » . لقد استرعت انتباهي هذه الجملة البليغة منذ ان قرأتها ودعتني الى التأمل والتفكير فازددت اعجاباً بكاتبها العظيم وبمؤلفاته الناضجة على الرغم من انه مات وهو في شرخ الشباب ولكنه ، ككل عبقري ، استطاع في شبابه ان يتغلغل الى أعماق النفس وان يجلو الحقائق بفضل بصيرته النافذة . فالحب لا يعيش طويلاً بتبادل نظرات الغرام وتراشق عبارات الهيام لأن

ديمومته متصلة بالتوافق بين أهداف الطرفين وأمزجتهما ، ولن يتمّ مثل هذا التوافق لاثنين الا بالتفهّم العميق والتضحية على حساب الأنانية الفردية في أكثر الأحيان . وما أروع ان يشيخ الزوجان وينعما بالألفة التي تتجاوز طور التجاذب والحب العنيف لتبلغ مرحلة الصداقة الحقيقية والمودّة الصافيـة والتراحم ، فإنك تُدرك اذ تنظر اليهما انهما عبرا درباً طويلة وهما ممسكان يداً بيد ، وانهما اجتازا العواصف بأمان لأنهما كانا قلباً واحداً يخفق ، وعيناً واحدة تنظر ، وفكراً واحداً يتبصّر ويقرر ! ويا حبذا لو أدرك الأزواج والآباء والأبناء والناس جميعاً ان للروح والقلب وجبتهما اليومية من المحبة تماماً كما ان للجسم وجبته اللازمة من الطعام التي لا يستطيع العيش بدونها ، ومهما باتت تلك الوجبة من الدسامة نرى ان الجسم يستهلكها في يوم واحد لأن الطبيعة لاتسمح له بادخارها الى يوم آخر ، فاذا سلّمنا بهذا القانون الطبيعي وجدنا انه ينطبق كذلك على الحب لأنه لا يعيش وينمو ويدوم الا بتناول نصيبه اليومي من الغذاء . وأما اذا تساءلنا عن نوع هذا الغذاء فإننا نجده في متناول جميع الناس من مختلف الأجناس ، انه موجود في العبارة الحلوة المخلصة ، والنظرة الحنون الصادقة ، والابتسامة الرقيقة ، كما انه موجود في ايثار الغير على النفس أي في العطاء الخيّر الجميل ، وهنيئاً لمن ذاق لذة العطاء بمغزاها الواسع العميق .

* * *

أعظم مكافأة

يصادف الانسان في حياته سني خصب كما تصادفه فترات جمود ومحل . ولكن الكاتب المجدّ المولع بالكتابة فطريّاً والواعي لرسالته لا ينقطع عن العمل الفكري حتى وان لم يكتب جديداً لأنه يعيش عندئذ فترة تخزين وتهيئة لانتاج جديد في وعيه الباطن، ذلك بأن فكره لا ينقطع عن التغذية ، واحساسه عن التأثر والالتقاط ، وعينه عن الملاحظة . وعندما يمتلىء الوعاء العجيب الذي هو النفس ويتجمع فيها الرصيد الجديد يلجأ الكاتب الى الورق يصبّ فيه خواطره ومشاعره صبّاً فترتاح نفسه وتغمره سعادة حقة . ولا بد من الاشارة الى ان مدة التخزين التي ينزع المتشائمون الى تسميتها عقماً هي في الواقع مرحلة شاقة على النفس ، قد تصحبها عوارض شاذة احياناً ولكنها تنتهي عاجلاً او آجلاً بولادة اثر جديد ، وهي اشبه ما تكون بفترة الحمل والمخاض . اما في حال الاضطرار لتأجيل موعد ولادة عمل أدبي او في تجهز وبات يلح على صاحبه بالتفرغ اليه . وذلك عندما يكون الكاتب مقيداً بمسؤولية هامة ككونه موظفاً مثلاً بالقياس الى الرجل . أو ربة بيت وأماً بالقياس الى المرأة . فان هذا التأجيل يؤذي فنه من جهة . ويؤلمه أشدّ الألم من جهة ثانية . وما ألمه الا لأنه يؤثر القيام بواجباته الاساسية على التفرغ لعمله الفني . فتراه في صراع مرهق للاعصاب لكي يلجأ الى نفسه وعمله ولو كان ذلك على حساب راحته الشخصية . ولكن لمَ لا نحاول تحديد مفهوم الراحة ؟ فمتى كانت تنحصر في القعود والجمود وكثرة النوم ؟ ان الراحة الحقيقية . كما قال احد

الحكماء، هي في ان نقوم بعمل آخر مختلف عن عملنا الروتيني كل الاختلاف، فاذا فرغ احدنا من القيام بواجبه في البيت او في المكتب أو في الحقل ومارس عملاً آخر مغايراً للأول أو هواية يحبها يكون قد أخذ نصيبه من الراحة بلا أدنى شك !

بين سنة ١٩٥٠ وسنة ١٩٥٥ نعمت بخصب واسع طاب به عيشي وان أجهدت نفسي كثيراً : فقد وضعت بنتين ونشرت ثلاثة كتب ، كما قدمت للاذاعة السورية وغيرها احاديث اسبوعية وقصصاً ، وعدة مقالات للصحف العربية والمجلات . لقد اجهدت نفسي لاصراري على متابعة الكتابة والرياضة والعزف على البيانو في اوقات فراغي القليلة ، وأقول القليلة لأن رعاية طفلتين متقاربتين في السن امر صعب ، أصعب من رعاية توأمين لأنهما تتطلبان عناية مستديمة بنهج مختلف ، سواء في ملاحظة الطعام او النوم ، او فترة التسنن وغيرها . ساقت لي الاقدار الرحيمة آنذاك امرأة ارمنية قديرة كانت متزوجة ولم تنجب اولاداً فحملت عني جزءاً كبيراً من المسؤوليـــة في ادارة البيت ولاسيما في ملاحظة الصغيرتين . فلقد احبتهما فيكتوريا كثيراً وأضحت تغار على صحتهما وراحتهما غيرة الأم على أولادها . ثم رافقتنا الى الأرجنتين سنة ٥٦ مما جعل ندى ورشأ تتكلمان العربية يومئذ بلكنة أرمنية تركية عذبة ... ولكن ملازمتها لهما خفت هناك اذ احضرنا لهما مربية نمساوية تعهدتهما في اوقات انشغالي اذ كنت زوج سفير مسؤولة . ولكني باشرت ، على الرغم من ضيق الوقت ، تعليمهما اللغة العربية بنفسي فوجدت في التعليم . وفي تقدمهما ، وتقويم لفظهما متعة كبيرة ، وقد يستغرب القارىء اذا قلت له إن معلمتهما السيدة النمساوية « فراو لاورا » « Frau Laura » التي تجاوزت الستين من العمر يومذاك قد تابعت دروسي بحماسة واصبحت تقرأ الجزأين الأولين من

كتاب القراءة بطلاقة في غضون بضعة اشهر . وبمناسبة ذكر المربيات أقول ان الايتام الحقيقيين هم اولاد الاثرياء وذلك لسبب رئيسي واحد ألا وهو وجود مربية ترعاهم بدلاً من الأم ، وخدام يوجهونهم عوضاً عن الأب ، لذا لم أثق يوماً بمربية مهما تكن طيبة وحاذقة . لقد اضطرتني ظروف حياتي واعمال زوجي للتغيب أحياناً عن الأولاد ولكني كنت ملازمة لهم قدر الامكان ، ساهرة على نموّهم ، وحريصة على مصاحبتهم ، وهل تجد المرأة أمتع من مصاحبة فلذات كبدها في مختلف مراحــل عمرهم وألذّ ؟ لا أحسب ذلك ممكناً ابداً .

يطيب لي وانا في معرض الحديث عن سنوات الخصب التي عشتها ان اذكر حادثة وقعت لي يوم كانت احاديثي تذاع في دمشق عن (نساء خدمن الحضارة) ، فقد نلت بهذه الحادثة المؤثرة أعظم مكافأة ينالها كاتب في حياته . عرضت في تلك السلسلة سيرة امرأة خارقــة اعتبرها العالم أعجوبــة القرن العشرين هي هيلــين كيلير الاميركية التي تغلبت بارادتها الفذة على ثلاث عاهات ، لا عاهة واحدة البكم والصمم والعمى ! كافحت هيلين كيلير عاهاتها كفاح الابطال بفضل ايمانها بنفسها وذكائها وشجاعتها وصبرها ، وحبها العميق للانسانية وللمعذبين خاصة ، فانتصرت على البكم بتعلم النطق بالاشارة لا بواسطة الفم واللسان، وانتصرت على العمى بتعلم القراءة بواسطــة أحرف « برايل » ومن ثم تمكنت من الكتابة فألفت وحاضرت في بلاد العالم ، وفي كل من دمشق وبيروت. كما انها انتصرت على الصمم بتدريب اصابع يديها العجيبة على التقاط الاهتزازات الصوتية ومعرفة الأشكال الخارجية بحساسية مرهفة فغدت تسمع وترى بكلتا يديها فطبقت شهرة كفاحها الرائع الآفاق . بلغت هيلين كيلير حدّ المعجزات بعزيمتها وثباتها ، ووهبت جهودها، بعد ان

تفوقت على المرض واليأس ، للأخذ بيد المحرومين من البصر والسمع والنطق . ونذرت نفسها ، كما قالت في كتابها العظيم (من الظلام) ، لجعل شمسها الداخلية ضوءًا لعيون الآخرين ، وسعادتها النفسية بسمات أمل على شفاههم . وفي يوم من ايام سنة ١٩٥٣ أذيع حديثي عنها في الثامنة صباحاً ، (وكان مسجلاً للاذاعة بصوتي مع سائر حلقات البرنامج) وكنت في بيتي ساعة رنّ جرس الهاتف بعد مضي نصف ساعة على اذاعته فتناولت السماعة واذا بصوت متهدّج لسيدة مسنّة يسأل :

– هل هنا دار سلمى الحفار الكزبري ؟

– نعم هي أنا ، من يريدها ؟

– انت لا تعرفينني يا سيدتي ، اني أمّ لعدة شباب من حي الميدان بينهم واحد كان يعمل حداداً ولكنه فقد بصره منــذ شهور وهو يمارس اللّحام بالاوكسجين .

– أهلاً وسهلاً يا خالة ، هل استطيع تقديم خدمة ؟

– شكراً يا بنتي ، لقد أديت بحديثك اليوم اجلّ خدمة لنا فجئت لأشكرك عليها ، أحسن الله اليك بقدر ما احسنت الينا هذا الصباح . كان ابني يائساً من الحياة ، وقد اخفقت جميع مساعينا للتخفيف من مصابه واعادة الامل اليه ، ولكنه ما ان فرغ من الاستماع الى حديثك عن تلك المرأة العظيمة حتى قال لنا بتأثر بالغ انه يحمد الله على نعمة النطق والسمع ، وانه سوف يعود الى الحياة والعمل والظهور بين الناس بعزيمة وتفاؤل .

كنت اصغي الى حديثها المؤثر وعباراتها الرائعة وانا سعيدة بالمفاجأة العظيمة

الى درجة البكاء ، فقلت لها والدمع ينهمل من عيني

– ثقي يا خالة اني سعيدة جداً بما سمعت ، واني اهنئك بعودة الأمل الى قلب ابنك واشكرك على مكالمتك الطيبة لأنها أفضل مكافأة تلقيتها.

وانا لا اغالي اذ اقول ان جرس صوت تلك السيدة ما زال عالقاً في اذنيّ ، وان لهجتها الحارة والدعوات الطيبات التي خصتني بها قبل ان تقفل خط الهاتف ملأت قلبي حبوراً وزادت عزيمتي عزيمة على متابعة العمل والانتاج . ثم ان هذه الحادثة دفعتني لاعداد دراسات وافية عن سِيَر اللواتي قدمتهن للاذاعة وجمعها في كتاب مفصل عنهن استغرق العمل فيه ثلاث سنوات وصدر سنة ١٩٦١ بعنوان (نساء متفوّقات) ولهذا وجب علي ان اسجل في هذه الصفحة شكري العميق للمواطنة الكريمة التي يعود اليها الفضل في اسعادي وفي تشجيعي على جعل سلسلة تلك الاحاديث نواة كتابٍ أعتزّ به واعتبره أفضل ما قدّمت .

تولى زوجي في تلك الفترة الامانة العامة لوزارة الخارجية عدة مرات فاضطررت لمرافقته الى الحفلات الرسمية ولاستقبال سيدات السلك الديبلوماسي وتكريمهن ووجدت في ذلك النشاط الاجتماعي متعة كبيرة . ان الاتصال بأعضاء السلك الديبلوماسي فرصة لتعريفهم بنهضة بلدنا ، كما انه نافذة على العالم تعرّفنا بشعوب وحضارات متعددة من خلال الافراد التي تمثلها ، فمن هذه الزاوية كنت انظر الى الحياة الديبلوماسية واجد فيها متعة وفائدة ؛ ولم يغرب عن بالي يوماً اني مسؤولة عما افعل وعما اقول ، واني استطيع خدمة وطني اذا احسنت التصرف سواء أكنت مقيمة فيه أو مندوبة عنه في الخارج . اتيح لي في تلك الآونة ان أُجري لقاءات مع شخصيات رسمية كانت تدعى الى سورية وكان من اهمها شأناً كل من الزعيمة الهندية مسز بانديت والزعيم الكبير جواهر لال نهرو والسيدة بانديرا ابنته ، كما كنت التقي على الدوام

بأعضاء البعثات السياسية وأسرهم اذ كنت ادعوهم الى دارنا واقبل دعواتهم برفقة زوجي واسرّ بالتحدث اليهم ومناقشتهم ، غير ان هذا النشاط الاجتماعي ارهقني لما كان يستغرق من الوقت والجهد ، لا سيما وان دمشق عرفت في عهد الشيشكلي (من سنة ١٩٥١ الى ١٩٥٤) وفي عهد الرئيس الجليل هاشم الاتاسي الذي تبعه ، ازدهاراً اجتماعياً كبيراً . كانت سورية تعجّ بمختلف انواع النشاطات وتجذب السياح وتتقدم بخطى واسعة : عمرانياً وثقافياً واجتماعياً ، واتفق ان وُجدت في دمشق مجموعة ممتازة من الممثلين الديبلوماسيين شرقيين وغربيين فخالطناهم ولمسنا مقدار تعلقهم بها وسرورهم بالاقامة فيها ، حتى ان معظمهم كان يعبّر عن ابتهاجه بالإقامة فيها لأنها بلد جميل ورخيص ، غني بالآثار ، مناخه معتدل ، وسكانه كرماء لطفاء على اختلاف طبقاتهم ، ولم يكن يسعدني شيء اكثر من اعترافهم بشهامة السوريين وبنظافتهم وكرمهم القرويين والمدنيين على السواء ، واعترافهم برقيّ امتنا نساءً ورجالاً رقيّاً أصيلاً متوارثاً يشعر به الغريب ويلمسه في معاملة الناس ورقة طبعهم ، وسلامة ذوقهم .

والى جانب ذلك النشاط الاجتماعي هنالك عمل خاص اهتممت به وكان يتطلب عناية ووقتاً وهو المراسلة ، فالمراسلة في حياة الكاتب امر لا مفرّ منه يستغرق بعض الوقت ولكنه واجب ادبي اذ لا يليق بأي انسان ان يهمل الجواب على رسالة تلقّاها ولو كانت تافهة ، فكيف يكون الامر اذا كان يحظى برسائل هامة وممتعة ، تتعلق بما يكتب وينشر ؟ لقد حظيت بهذا النوع من الرسائل من أعلام الفكر في العالم العربي ومن بعض المستعربين الغربيين ، كما سررت برسائل قراء لا أعرفهم فتيقنت ان لي اصدقاء مجهولين ، في بلدي وفي خارجه ، وادركت تأثير ما انشر وبالتالي المسؤولية الملقاة على عاتقي . ومع الايام صرت

افكر ملياً قبل ان انشر او اذيع ، خلافاً لما كنت افعل في اول عهدي بالكتابة لان الكاتب لا يعي مسؤوليته تماماً الا بعد نضجه حيث يتأكد من انه يربط سمعته بحرمة الكلمة ، وان التجارب وحدها ، المخفق منها والناجح ، هي السبيل الى الخبرة الصحيحة لانها تنبّهنا الى تدارك الاخفاق ، وترشدنا الى تحكيم العقل والضمير .

لعل اظرف رسالة تلقيتها بعد صدور يوميات هالة بعامين رسالة ذلك الطالب السوري التي بعث بهـا اليّ من معرّة النعمان يهنئني على كتابي ويعبر عن اعتزازه بالفتاة السورية الجديدة ، ثم يطلبني للزواج بعد وصف حاله واحلامه ! قرأت الرسالة الحماسية على نادر يوم ورودها فأثنى على حسن ذوقه ، ولكنه وجده متسرعاً ، ثم سألني عما اذا كنت عازمة على الردّ عليه فقلت :

ــ سأجيبه غداً بلا تأخر لأشكره على حسن ظنه بي وعلى كونه نصيراً لنهضة النساء العربيات، ولا بدّ من إعلامه بملامح حياتي الخاصة لكي يضع حدّاً لأحلامه ...

ولم اتوانَ بالفعل عن تدبيج رسالة رقيقة لذلك الشاب المندفع الذي حسبني عزَباً ، فعرّفته بنفسي قائلة اني متزوجة وام لولدين ، وعذرته لالتباس الامر عليه لأن يوميات هالة حمل اسمي وكنيتي كفتاة إذ كتبته يوم كنت في السابعة عشرة من العمر .

وبمناسبة التحدث عن المراسلة اودّ ان اذكر غبطتي برسائل متعددة بعث بها اليّ مستعرب من بلجيكا هو الدكتور ارمان آبيل (Armand Abel) استاذ الأدب العربي في جامعة بروكسل ، ولا سيما يوم اعلمني بعزمه على ترجمة

القسم الاول من (يوميات هالة) الى الفرنسية لأنه وجد فيه مادة متصلة بالحياة الاجتماعية العربية وبتقاليدها تهمّ القارىء الغربي ، وبأنه قرّر تدريس بعض قصص (حرمان) لطلابه في العام الدراسي ٥٤ ــ ٥٥ ودربهم على ترجمة نصوص منها الى الفرنسية .

ثم تعارفنا في دمشق في ربيـــع ٥٥ يوم اتى لزيارة سورية بدعوة من مديرية الآثار بوصفه خبيراً فيها ، فله عنها مؤلفات منها كتاب عن رأس شمرا « أوغاريت » ، وما زلت اذكر بكثير من السرور المقابلة الأولى معه ساعة رحبت به وبزوجه في دارنا وجلست أسألهما عن رحلتهما وعن انطباعهما عن سورية ، فتحدثا معي حديث المجاملة بعد ان انضم الينا زوجي ، وعندما أخذت أقدم الشاي نظر اليّ الاستاذ آبيل وسألني

ــ هل سنحظى بمقابلة السيدة سلمى الحفار ؟

فأدركت قصده في الحال وقلت مبتسمة :

ــ يسرني ان أعلمك اني أنا التي تسأل عنها .

فارتسمت علامات الدهشة على وجهه ثم ابتسم وقال بشيء من الارتباك :

ــ ارجو معذرتي يا هالة فلقد ظننت ان مؤلفة « اليوميات » و « حرمان » سيدة متقدمة في السن ، شعرها ابيض ، لا شابة في مقتبل العمر ! تلك هي الصورة التي تخيلتها لك يا سيدتي من خلال كتابيك لما وجدت فيهما من خبرة عميقة في الحياة ...

كثيراً ما تساءلت لماذا استقبل القراء والنقاد يوميات هالة بالتقريـــظ والترحيب ، هل لأنهم وجدوا فيه جرأة لم يألفوها من فتاة مندفعة في حبّ

وطنها وذويها ، ثائرة على الاوضاع العقيمة ، عبّرت عن مشاعرها ببراءة وصراحة ، فشاءوا تشجيعها وغضّوا الطرف عن هناتها ؟ وتساءلت مراراً عما اذا كان وراء تقريظهم للكتاب الرغبة في ارضاء ابي ، الوطني المحبوب ، الذي فاز باحترام الناس وتقديرهم ، المؤيدين لحزبه والمعارضين ؟ على كل حال اراني مدينة لما قرأت من نقد للكتاب وتحليل لفصوله لاني وجدت فيه حافزاً على المضيّ في الكتابة ، ولقد شجعني اهتمام الصحفيين والأدباء واخوان ابي بذلك الاثر المتواضع الذي كتبت فصوله لنفسي يومئذ دون التفكير في نشره على الناس . قدّمت الكتاب من اذاعة القاهرة الأديبة الكبيرة الاستاذة بنت الشاطىء اذ وقع اختيارها عليه بين كتب الموسم ، كما قدمته من اذاعة الشرق الأدنى الأديبة الاستاذة سهير القلماوي . وحسبي أن اذكر اني تراسلت مع الدكتورة بنت الشاطىء والدكتورة قلماوي قبل ان يتم التعارف بيننا وكنت قد آنست في ثقافة بنت الشاطىء الواسعة وفي ابحاثها ومؤلفاتها القيمة روحاً مؤمنة خلاقة ، ووثبة تحررية مباركة ، كما قدّرت موهبة سهير قلماوي في القصة والحديث .

اما شيخ النقاد مارون عبود فان رأيه في (يوميات هالة) وطّد ثقتي بنفسي وحفزني على الاستمرار في طريق الدرس والتأليف ، تلك الطريق الطويلة المحفوفة بالاشواك والورود على حدّ سواء . كما ان شاعر الشام الاستاذ شفيق جبري قد عرّف بالكتاب في مجلة المجمع العلمي تعريفاً وافياً وأطرى وصف العرس وليالي السمر الشامية . ولكني انتفعت حقاً بما قاله عن لغة الكتاب اذ رأى ان من المفيد لي ان ارجع الى قراءة القرآن الكريم ، وكنت قد قلت بدافع الغرور ان أبي اقرأني اياه فصحّت لغتي وانصقل لساني ! ووجدني الأديب اللبناني الدكتور جبرائيل جبور . استاذ الأدب العربي

في الجامعة الأميركية ، أكبر من عمري في مذكراتي ، وتنبأ بأنها ستصبح مصدراً له قيمته عند الذين يدرسون الظواهر الاجتماعية في البيت الدمشقي في النصف الأول من هذا القرن ، وقد شاطرته رأيه الأديبة المصرية الآنسة حواء ادريس حينما كتبت تقول في (النداء) القاهرية : « ان يوميات هالة سجل اجتماعي وسياسي هام » .

لم انقل الآراء السابقة بدافع الغرور فحسب ، (فلو كنا نحن حملة الأقلام صادقين مع انفسنا لاعترفنا بأننا لا نخلو من الغرور ، وانما على درجات ...) انما نقلتها لأنها تؤكد مذهب كثير من كتّاب العالم خلال العصور حول أهمّية الوضوح والبساطة . فالقارىء يلتهم امثال هذه الآثار الادبية بشوق ، ويعتقد انها سهلة المحاكاة، ولكن هيهات ان يتمكن من ذلك لما في الكتابة السهلة من براعة لا يأتيها الا من تضلّع باللغة حقّاً ، وتمرّس فيها ونال حظّاً وافراً من الموهبة ، ولهذا اتفق النقاد في العالم على ان افضل اسلوب ادبي هو ما درجنا على السميته : السهل الممتنع . ولا داعي هنا لاعطاء الامثلة على ذلك لأنها كثيرة في تراث الادبي لكل امة انما أُحبُّ ان استشهد برأي اعظم كاتب عرفته انكلترا في العصر الحديث عالج القصة والمسرح وأدب الرحلات هو (سمرست موم) الذي كتب في سيرته المشهورة (عصارة الايام) يقول : « الوضوح والبساطة هما الدعامتان الرئيسيتان للأدب الناجح ، فالغموض يُفسّر بأحد أمرين : إما بأنه غموض متعمد ناشىء عن رغبة الكاتب في إضفاء هالة كبرى حول افكاره الهزيلة ، واما غير مقصود وهو يكشف عندئذ عن اضطراب المادة الفكرية في ذهن المؤلف ! » .

عندما اعود الى كتاباتي الأولى لأقيّمها بنفسي ، وأخص بالذكر الآن (يوميات هالة) أجد فيها أخطاءاً وضعفاً في التركيب ، وسذاجة في التعبير

احياناً . وعندما ابحث عن عذر لنفسي مقنع ، اهتدي اليه حين اقرّ بأن الميل للكتابة كان منذ حداثتي قويّاً جارفاً ، واني استجبت اليه قبل ان اتمكن من اللغة وان اتعلم فن الكتابة . ومع ذلك ارى ان قيمة يوميات هالة في عفويته وبساطته واخلاصه . وانه برهان جليّ على اني كنت اكتب لانني كنت اشعر بحاجة ملحّة الى الكتابة ، كما يرسم غيري مثلاً لأن الرسم غريزة طبيعية فيه .
اما عن القسم السياسي في (يوميات هالة) فأقول بصراحة إني خضت غمار السياسة تحت تأثير ثورة عاطفية في حين ان السياسة تتطلب صدراً واسعاً ، واعصاباً هادئة ، وتجرّداً كليّاً من العواطف كما اني آخذت نفسي على ذلك الاندفاع الملتهب الذي كان وليد صدمة نفسية موجعة ، وكنت أوثر ان أعيش عامي السابع عشر عيشاً هادئاً طبيعياً على ان أعرف ذلك النضج المبكّر الذي خلّفته لديّ الصدمة وآلامها ، وجعلتني أنسى مرح الشباب ، واشاطر الكبار الهموم ، وأظهر بمظهر المسنين ! ولكن حماستي الوطنية ، وعواطف البنوّة الجياشة التي فُطرت عليها تغفران لي ثورتي (الثورة الشريفة كما اسماها الاستاذ شفيق جبري) بعض المغفرة ... حاولت اليوم ان اتخيل نفسي حينذاك فكانت الصورة التي مثُلت امامي واقنعتني بشبهها لهالة ، الفتاة التي كُنتها ، صورة شابة متحمّسة وكأنها جمرة متألقة ، صوتها رقيق صافٍ كابتسامتها ، ولكن الظروف ارغمتها على التقنّع بزي امرأة عركها الزمان وخبرت الحياة لتمثّل دوراً معيّناً على مسرح الحياة ... كانت قريبة من النجاح في تقمّصها تلك الشخصية الناضجة المتألمة غير ان جرس صوتها وشفوف نفسها كانا يُظهران حقيقتها بين الفينة والفينة في فصول يومياتها .

* * *

أحسن القَصَص

عالجت القصة القصيرة حباً بالقصة وايماناً بأنها وسيلة مشوّقة للتصوير والتحليل والنقد ، تلذّ للقارىء ، وتفسح مجالاً كبيراً للكاتب اذ تتيح له الفرصة لعرض مشكلات الحياة وللمساعدة على حلّها . والقصة القصيرة أصعب مراساً من الرواية لأنها تتطلب فناً دقيقاً الى جانب الموهبة لكي تكون ناجحة ، انها تتطلب مهارة في الوصف والتحليل ، وايجازاً في السرد بحيث لا ترد فيها جملة خارجة عن الموضوع يمكن الاستغناء عنها ، كما تتطلب موضوعاً معيناً تدور حوله الحادثة المطروحة او المشكلة (العقدة) . اما عن الحل لهذه العقدة او المشكلة فانه يجوز للكاتب ان يختمها به ، وربما يكون افضل ان يدع القارىء يهتدي اليه بنفسه

عنصر المفاجأة في القصة القصيرة يزيد من قوتها وتأثيرها ، غير ان الاستغناء عنه ممكن اذا اتى الكاتب بقصة جيدة مثيرة ، مكتملة العناصر ، ذات مغزى انساني واضح ، واستطاع اقناع القارىء به بما أوتي من فنّ في السرد والحبك . والانسان فُطر على حب القصة مذ كانت الخليقة ، أوَليس وجودنا على الارض قصة رائعة مثيرة ، كان بطلاها آدم وحواء ؟ وهل من طفل أو شاب أو كهل او شيخ الا وفي نفسه هوى للقصة ، إما لسماعها او لروايتها ؟ ولكننا نرى ان عدد المولعين بسماع القصص كان وما زال أوفر بكثير من عدد الرواة عبر العصور والاجيال ، وان الانبياء كانوا مبرزين في سرد القصص التي قامت عليها جميع

الاديان ، وما الوحي الذي نزل عليهم في قالب قصصي يُغري بالتبصر ويدعو لاستنباط العبر الا برهان ساطع على ان البشرية تهوى القصص وتتأثر بها ، ففي سورة يوسف المباركة التي تأسر اللبّ ، بإعجازها وانسانيتها ، قال الله تعالى (في الآية الثالثة) لرسوله الكريم : « نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا اليك هذا القرآن ، وان كنت من قبله لمن الغافلين » وفي سورة الأعراف المباركة نجد الآية الكريمة (١٧٥) تقول : « ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون » .

وكلنا يعلم ان بين الكثيرين الذين عالجوا القصة قلة فقط نجحت فيها واحتلّت مكان المجلّي في ميدانها وما ذلك الا لكونها لوناً من الادب والفن دقيقاً للغاية، لايدركه الا الذين أوتوا موهبة ومعرفة بالطبيعة الانسانية، وملكوا زمام اللغة ، وقرأوا الكثير ودرسوا قبل ان يسيطروا على ناصية هذا الفن الذي اهّلتهم له ملكتهم وارادتهم وجهودهم . ونحن في العالم العربي حديثو العهد في القصة، تعود أولى محاولاتنا فيها الى أواخر القرن الماضي ولكننا لم نعرها كبير اهتمام الا بعد الحرب العالمية الأولى، واعني هنا القصة القصيرة والرواية بمفهومهما الحديث وبالمقارنة مع التراث الغربي في روسيا وفرنسا الذي عرفناه وأعجبنا به والذي فرض نفسه على الادب العالمي قبل اكثر من مئة عام لان القرن التاسع عشر كان عصر القصة الذهبي في اوروبا . رافقت نهضتنا الحديثة محاولات في القصة متعددة فأخفق بعضها ، وأصاب بعضها الآخر بعض النجاح دون ان نبلغ الغاية المرجوة، ولكننا سائرون بجدّ واصالة لأن الفن القصصي متأصل فينا منذ العصور القديمة إذ نجد في تراثنا الشعري والنثري القديم نماذج رائعة منه ، سواء في الشعر القصصي او في حكايات ألف ليلة وليلة ومقامات الحريري وغيرها . اما في العصر الحاضر فقد برز بيننا كتّاب قصة مجيدون في بعض البلاد

العربية ، في مصر ولبنـــان وسورية اولاً ، ولن نبلغ شأو الأدب العالمي الا عندما نتجاوز مرحلة التجارب الاولى ، وتصوير الواقع المحلي ومعضلاته تصويراً سطحياً لنلتقي مع الواقع الانساني بشمول آفاقه ، وهذا لا يعني اننا يجب ان نتخلى عن العناية باللون المحلي ابداً . فالواقع الانساني بقضاياه الكبرى لا يختلف بين بلد وآخر ، ولغة وأخرى ، لأن الانسان هو هو حيثما كان ، ونزعاته الجمالية والتحررية هي هي في كل مكان ، ولهذا كان لرسالة الفكر روادها وجنودها المبدعون المخلصون الذين مثّلوا بانتاجهم تيارات ثقافية وفنية ، وعكسوا حضارات جليلة نوّرت العالم وسمت بقدر الانسانية . فالانسانية جمعاء تعتز بحاملي رسالة الفكر اليونان ، بواقدي مشاعل الحكمة والمنطق والفلسفة ، وتعترف بالفضل لناشري لواء الفنون والعلوم من عرب ورومان ، كما انها تتباهى بالمتفوقين من ابنائها في العصور الحديثة الذين نذروا انفسهم ومواهبهم لتقدمها ، وحققوا ما يشبه المعجزات اما بمخترعاتهم العبقرية او بشجاعتهم كروّاد . وليس مهماً ان ينتموا الى هذا البلد او ذاك لأنهم يعملون للأسرة البشرية بأسرها ، ولكن المهم ان نتأكد من ان جميع الذين حملوا الرسالات العلمية والفكرية والفنية بشر مثلنا صنعوا التاريخ بما أوتوا من مواهب غذّوها بالجهد والثبات . وأنا لم أقصد من هذه المقدمة سوى التأكيد بأننا قادرون على التفوق والابداع في مختلف المجالات الفكرية والفنية والعلمية اذا اردنا ، واذا تسلّحنا بالعلم والصبر والدأب مع الاخلاص التام لما نعمل . واذا كانت تعمّ بلادنا بلبلة سياسية واقتصادية واجتماعية هي وليدة احداث جسيمة معروفة تنعكس بوضوح على أدبنا الحاضر فاننا سنجني منها بعض الخير لأنها سترشدنا في النتيجة الى حقيقة انفسنا ، وتهدينا الى استنباط القيم الصحيحة لقضيتنـــا ، وتفجّر فينا طاقـــات كامنة تئن من الاهمال والتخلّف وتتوثب للانطلاق

تجربتي مع القصة تدعوني الى الاقرار بأني تعاطيتها في بادىء الامر بدافع شغفي بها قبل التمرس بفنها ومن غير ان اتقيد كثيراً بأصولها . تأثرت بحكايات جدتي وقصصها الواقعية الجميلة لأنها كانت تجيد روايتها باسلوب مشوّق ، وهذا ما جعل بعض قصصي شبيهاً بما تعارفنا على تسميته بلغة الصحافة (الريبورتاج) . غير اني كنت ألجأ الى كتابة القصة القصيرة كلما استثارتني حادثة او عبارة تنمّ على واقع اجتماعي مثير فأكتبها نزولاً عند الفطرة باسلوبي الواضح واحاول اخراجها بأناقة وجاذبية . كنت قد قرأت الكثير لأئمتها الغربيين وأُعجبت بهم فترجمت قصصاً لجي دي موباسان وأندري موروا نشرتها في مجموعة : (حرمان) ولكني لم أقلد احداً لنفرة طبعي من التقليد . واعلم جيداً اني وُفّقت لماماً ، وأخفقت أحياناً ، ومع ذلك ظللت مثابرة على الاهتمام بهذا اللون الذي احببته واثقة من نفسي ومدركة مصاعبه الادراك كله . اما الثقة بالنفس فمردّها الى ارادتي اولاً ثم الى اهتمام الأدباء بانتاجي الأول : (حرمان) والثاني : (زوايا) اذ تناولوهما بالتحبيذ والتحليل والنقد ، وأما إدراك الصعاب فمردّه الى دراسة هذا الفن دراسة جدية عن طريق مطالعة القصص الناجحة وتحليل النقاد لها ، وهذا ما زاد ولعي بالقصة لاني امرأة عنيدة طموح ، لا تثني عزيمتي خيبة ، كما لا يسكرني نجاح ، فلهذا كله كنت أزداد اصراراً على تجاوز العقبات وبلوغ الهدف مع الايام . سمعت يوماً من ابي عبارة مأثورة للجاحظ وردت في (البخلاء) قال فيها : « لا تحقّروا صغيراً لأن اول كل كبير صغير ! » فتمثلت بها لإنها راقت لي وحفزتني على المثابرة ، لاسيما واني كنت أتأثر بالموضوع الذي أختاره ، وأندمج مع اشخاصه في تصرّفهم . واجد متعة كبيرة في خلقهم (استناداً الى الواقع وانطلاقاً منه) وفي ايضاح ملامحهم ، وتحريك مشاعرهم وافكارهم باخراجهم الى الوجود ضمن الاطار الذي أحدّده لهم . لم يكن هدفي من معالجة القصة امتاع نفسي

وتسلية الناس لأن ادب القصة ادب دراسة وخلق وتوجيه ، بل كان هدفي منها ، سواء أنجحت أم لا ، ابراز العلل والشذوذ ، ومكافحة الأباطيل السارية في مجتمعنا ، وبثّ روح الشجاعة والتسامح ، والحثّ على الطموح .

انهالت عليّ رسائل التشجيع والاطراء بعد صدور (حرمان) عن دار المعارف في القاهرة (سنة ٥٣) وكان شاعرنا وأديبنا الكبير الاستاذ شفيق جبري ، عميد كلية الآداب يومئذ ، قد تفضّل وقدّمه للقرّاء ، كما نشرت بعض الصحف والمجلات العربية تعليقات عليه ، سرّني منها النقد الصريح اكثر بكثير مما سرني المديح . نشر الأديب السوري الاستاذ نظير زيتون دراسة وافية عن الكتاب في جريدة (الجريدة) اللبنانية فحلّل قصصه ونقدها ، وانا لا اريد هنا ان انقل عباراته الجميلة في تقريظ الاسلوب والموهبة ، إنما اودّ نقل ما ذكر في معرض النقد اذ قال :

(... ففي قصتها « ثلاثة ايام » صورت لنا مأساة الجنس والدين تصويراً بليغاً ولم تعلق عليها بكلمة بل تابعت سيرها هادئة مطمئنة لتختم قصة ذلك الحب بين منى وادوار بهذه العبارة : « وقبّل يدي ، ورجاني ان ابتسم له ، ثم قابل أخي مودّعاً واعتذر عن مرافقتنا الى المحطة هرباً من ساعة الوداع » . فالمؤلفة لم تثر ولا تمرّدت ، والموقف يدعو الى التمرّد والثورة ، بل اقتصرت على معالجة الموضوع – كعادتها – بأريج الورود ، والاستسلام الضاحك الباكي ، والنعومة التقليدية التي هي مزيج من العقل والقلب والحياء والغفران) .

كما قال الناقد في موضع آخر « وأديبتنا لم تجسر – على ما يظهر – ان تعرّي بطلاً من أبطال قصصها ، او ان تلمس الواقع لمسة الفاحص السابر ، كأنها كبحت جماح القلم ، واكتفت بالومضة الخاطفة ، وتركت للقراء ان

يعرّوا ابطالها ويدرسوهم بعين الواقع » الى ان ناشدني بقوله قبل ختام مقاله : « ولكن .. اعذريني يا سيدتي اذا لم اشفق على يدك الغضة فوضعت فيها المبضع والمعول والمحراث ، بدل قارورة الطيب والقفاز الحريري ، والمنديل المخضب بدموع الحرمان . واعذريني اذا قسوت على حنجرتك وأعصابها الهادئة لتطلقي منها الصرخات المدوّية ، والعواصف القاصفة . عوض الهمس الناعم ، والنأمة الخرساء ... »

وأعترف بأني كنت امسك القلم لا بأناملي مباشرة ولكن من خلال القفافيز ، إذ آثرت منذ البداية ان أتحاشى الوعظ البغيض ، فكنت اعرض المأساة وأجلوها ولا أعلق عليها الا تلميحاً لأدع القارىء يستنبط بنفسه ويحكم ... وكنت أتهيب تعرية أبطال قصصي ، ولا أجسر على اطلاق النعوت الصريحة القوية مكتفية بالهمس والاشارة لأني كنت احسب اني قلت كل شيء بالصور التي كنت ارسمها لهم ، وبوصف مواقفهم ، ولكن هل كان ذلك التهيّب بدافع انسانية فُطرت عليها كما قال الاستاذ نظير زيتون ، او كان بدافع بقايا رواسب الماضي التي خنقت حناجرنا . نحن الشرقيات ، وأرسلت البراقع على ارواحنا ووجوهنا حتى جيل مضى ؟ الأرجح ان احجامي عن تعرية الظلم وسائر الاوبئة المتفشية في مجتمعنا ، واكتفائي بالاشارة اليها وتصوير اخطارها كان مراعاة للبيئة التي نشأت فيها على التهيّب والخفر والتحفّظ . الى جانب كراهيتي للأدب المكشوف . ومع ذلك نبّهني ذلك النقد الى ضرورة طرح البراقع وخلع القفافيز فعزمت مذ ذاك على التعبير عن آرائي بلا وجل . وانما ظللت احذر التبذل وأرفض الاستخفاف بالقيم ولا أقرّهما ولا أدري اذا اتت مجموعتي القصصية الثانية افضل من الأولى واكثر جرأة . فان من حق القراء ان يحكموا عليها . ولكني اعلم انها

حظيت برواج كبير ، واهتمام الكثيرين ، وقد صدرت سنة ٥٥ عن دار المعارف في مصر واهديتها الى جدتي اعترافاً بفضلها وعربون وفاء . هنـأني عليها مفكرون وأدباء امثال الاساتذة اكرم زعيتر ، وميخائيل نعيمة ، وشكيب الجابري ، ومحمود تيمور ، والدكتورة سهير قلماوي ، والدكتور قسطنطين زريق ، والياس قنصل ، وغيرهم ممن اثق برأيهم ، وقال لي الأديب الكبير الاستاذ نعيمة في نهاية رسالته التي بيّن فيها رأيه في القصص : « حسبك انك لست من المتطفلات او المتطفلين على الفن الذي اخترته منفذاً لموهبتك التي لا شك فيها ، فالقلم يرتاح الى يدك وترتاح نفسك اليه ، وما اظنّك تحسبين انك بلغت أقصى مداك ، فالمجال أمامك فسيح ! »

كان الأديب الكبير نعيمة محقاً لأني كنت في اول الطريق مدركة طولها ووعورتها وسعيدة بهما كل السعادة لان بلوغ الهدف ، وأعني به الكمال في هذا الصدد ، شيء خارق ، ولأن المرحلة التي نعيشها في سيرنا على الدرب التي استهوتنا امتع بكثير واغنى للنفس من مرحلة تحقيق الامنية . كان يخيل الي وما زال ان الوصول الى الهدف الذي نتطلع اليه يقصينا عن احلامنا ويفقرنا نفسياً وفكرياً ، وهذا ما يحزن حقاً ، فقد سألوا الأديبة مي زيادة ذات يوم :

ـ ما هي أمنيتك في الحياة ؟

فأجابت بحرارة الاخلاص :

ـ ان تبقى لي امنية !

كما ان بلوغ الكمال ، وان كان نادراً ، يجعل الثبات في قمته أمراً عسيراً ان لم يكن مستحيلاً ، فالاجدر بنا ان نعمل جاهدين للدنو من الكمال .

هنالك رسالتان أحفظهما بحب شديد تلقيتهما من أعزّ شابين في وجودي اذا صح أن أصنّف ابني الذي كان في عامه الثاني عشر شاباً ! ولكن نزيهاً كان في حداثته رجلي الصغير واملي الكبير . تلقيت منه رسالة تهنئة سنة ٥٦ من مدرسته في برمانا تفيض حبّاً وهناءاً وزهواً، وكان قد اطلع على ما كتبته الصحافة عن كتابي « زوايا » واستمع في يوم عطلة الى حديث عنه من القاهرة قدمته الدكتورة سهير قلماوي . اما الرسالة الثانية فكانت من اخي الوحيد بشر الذي كان يدرس الاقتصاد في الجامعة الاميركية ، وقد كشفت رسالته انه اديب موهوب ، ومفكر ناضج . على انه كان في العشرين . ويا ليته غذّى موهبته بالتخصص والمطالعة ولم ينصرف عنها للأعمال الاقتصادية . يبدو انه سمع محاضرة للأديب الدكتور بشر فارس ألقاها في قاعة الجامعة واثنى فيها عليّ ، وانه قرأ كتابي وما نشر حوله فقال لي ، في جملة ما قال

« نجاحك يا أختي وصديقتي هو نجاحي ، وسعادتك هي سعادتي . ان في مخيلتي أيّماً شابة صارعت القدر وصارعها ، نحيلة الجسم ، قوية العزيمة ، لها عاطفة جياشة وقلم لا ينضب معينه . كان لصراعها نهاية ، وكتب لها النصر فغنّت ، وكان لغنائها صدى ردّده قاسيون وصنين والمقطم ، ثم انصب ممزوجاً بالماء الزلال في شط العرب ... اراد الله ان يعيد بناء سعادة هذه الشابة فعوّضها ما خسرت ، وقدّم لها زهرة فوّاحة يتألق شذاها على معين الورق ، هذه الزهرة ليست الا من تربة ليلات حزنك المروعات البواكي ! كم تمنى اهلوك ان تنسي الامس ، ولكن هيهات ان ينساك أمسك ، واذا نسيته انت ذبلت زهرتك ! تمثلي سلماي بعطاء الأرض ففي شقائها سعادتها القصوى حينما تسقي الزرع بدمائها ، وباكتمال نموّه يأتي الانسان الجاحد فيقصّه منها ، انها تتألم ، ولكن السعادة تكمن في ألمها لأنها تحسن العطاء ... ربيعها نضارة وتألق . خريفها هدوء ووحشة . وشتاؤها سكون وتأهّب لان اليأس لا يصل

الى قلب تلك الحزينة الباسمة . يأتي الشتاء فتشحذ همتها ، وتقوّي عزيمتها لتعيد المسرحية ذاتها ، لهذا اكتسبت صفة الأبدية .

ما أردتك يا أختاه الا انتفاضة في ابدية الحياة ، واستمراراً لدفقات العطاء ، قد يتراءى لك ما أقول كالسراب ولكني ارى الخلود فيك مجسداً ، وممثلاً بانتفاضات الروح الحقيقية التي هي أقوى من الأزل في امتداده الخصيب ... انت يا أختاه بنت ذاك الأسد الذي ما عرف الحياة الا صراعاً وعطاءاً ! »

كتب أخي بشر تلك الرسالة بعاطفته الملتهبة فأسعدني حديث قلبه الكبير ، وأسفت ان يحرمنا الاقتصاد من قلمه . وليغفر لي القارىء حرصي على نقل مقاطع منها فان الانسان اذا احبّ شيئاً اكثر من الحديث عنه . واما ما ورد فيها من مديح فانه على سبيل : (وعين الرضا ...) .

أما هؤلاء الذين تكرموا ورفعوني برسائلهم ومقالاتهم الى مستوى النابغات وصنّفوا انتاجي مع اريج المسك وعبق الرياحين ، وقرنوه بالجزالة والطلاوة ورقة الينابيع . فان جملهم الطنانة لم تصبني بدوار النشوة وعمى الخيلاء ، حمداً لله ! كنت أقرأ تلك الصفحات متعجبة فأتأملها قليلاً ثم أخرج بنتيجة معقولة وهي انهم ارادوا التقريظ والتشجيع فسالت أقلامهم بعبارات مزوّقة اعجبتهم بلاغتها ثم جادوا عليّ بها فرحين بما كتبوا ، ومعبّرين به عن مشاعرهم النبيلة وعن قدرتهم على الوصف والاطراء ... وقد يكون وراء كرمهم ارضاء ابي ومجاملتنا معاً ، لذا كنت في حال من الشك تشبه حال المرأة الجميلة الغنية التي يخطب ودّها الكثيرون . فيختلط عليها الامر بحيث لا يجد أحد منهم هوى في نفسها ، وتسأل بحيرة : « ترى هل يتودّدون اليّ طمعاً بمالي او تقديراً لجمالي ؟؟؟ »

* * *

الكِتاب والكتَّاب

بعد الحديث عن تجربتي مع القصة لا بدّ من التحدث عن فن التعبير الذي كوّنت عنه رأياً واضحاً إثر ممارسة طويلة للكتابة والقراءة، فالى جانب القراءات المختارة التي ما انقطعت عنها منذ حداثتي كنت وما زلت أطالع الوان الانتاج الحديث بما فيها من غثّ وسمين. لقد اعجبت بعدد من كبار كتّابنا المعاصرين وفي طليعتهم طه حسين، وأحمد أمين، وعبد العزيز البشري، وعدد من القصاصين الناجحين في سورية ولبنان ومصر، وكبار الشعراء، غير اني قضيت الساعات الطوال مع مؤلفات جديدة أبحث عن متعة فكرية او بيانية أو فنية ولا أجدها، بل أجد عبارات وجملاً مصفوفةً لا خفق فيها ولا حياة، كما يصفّ الصبية الكعاب للهو بها ولتوجيه أنظار المارة اليهم. ومع انه من الثابت ان عمر الانسان فكرياً جدّ قصير لا يسمح بانفاق ايام منه أو ساعات عقيمة مع ألوان من مثل هذا الأدب المحنّط الرخيص كان لا بد لي من تكريس بعض الوقت لتلك القراءات لأنها ضريبة لا مفرّ للكاتب من تأديتها، يفرضها عليه عمله وضميره اذ لا يصح ان يعيش في عزلة عما يجري حوله، ولا يستطيع ان يبني رأياً صحيحاً من دون الاطلاع على انتاج غيره.

ولقد ساهمت في عمل لجان أدبية للاشراف على مسابقات للقصة في مجلس الاذاعة السورية وفي مجلة (أهل النفط) ما بين سنة ١٩٥١ و ١٩٥٥، وكان من أعضاء لجنة التحكيم في مسابقة مجلة (أهل النفط) التي

كانت تصدر في بيروت الأساتذة مـارون عبود ورشاد دارغوث وفؤاد سليمان ، فعقدنا بضعة اجتماعات كان آخرها مخصصاً للتداول في أفضل قصص المتبارين التي قرأها كل واحد منا بالتناوب وأعطى تقريراً عنها . ان مجرد اشتراك مئتي كاتب في المسابقة دليل قاطع على وثبة أدبية في العالم العربي تبشر بنهضة صحيحة لا سيما وأننا اكتشفنا الموهبة لدى عدد كبير من المتسابقين ، وهي موهبة تستحق التشجيع انما تحتاج الى الممارسة والصقل ، ووجدنا كذلك عدداً من المحاولات الفاشلة التي دفـع لارسالها الجهل والغرور ، كما اكتشفنا سرقات أدبيـة مفضوحة . وأذكر اننا منحنا الجوائز لكتّاب مجيدين هم هاني عبيد من دمشق على قصته (المجنون) وأنيس زكي حسن من الكوفة على قصته (نداء الوجدان) وجان ألكسان من حماة على قصته (المطر يغسل الأرض) وناشد سعيد من حمص على قصته (مآسي الحياة) ، غير ان ما نلاحظه جميعاً بكل أسف ان الذين باشروا الكتابة ثم تراجعوا أوفر عدداً من الذين استمروا في محاولاتهم ، فلو اطلع الذين تراجعوا على سِيَر كبار الكتّاب في العالم لوجدوا ان الذين أصابوا النجاح من أول محاولة هم أقلية بالقياس الى الآخرين . فمن المؤكد قطعاً ان دون بلوغ ذروة النجاح في العمل الفني الثبات وحب العمل ذاته ، وأن التعثر أحياناً والاخفاق عقبات قد تكون طبيعية لا بد من تخطّيها ، وان في العمل المتواصل والجهد المخلص يكمن سرّ تجدد الكاتب والفنان وسرّ ظهور ابداعه ، فعندما سألوا أديسون الشهير : « ما هي العبقرية ؟ » أجاب : « العبقرية هي واحد في المئة الهام . وتسعة وتسعون في المئة كدّ ومعاناة »

خلاصة ما توصلت اليه بعد قراءات عربية كثيرة ، قديمة وحديثة . ان على الكاتب التمكن من اللغة اولاً ثم مجاراة الطبع عند التعبير . فالتمكن من اللغة

شرط اساسي لحرفة الأديب وليس بالامر اليسير لان لغتنا صعبة ، ثم ان التكلّف والتقليد اسهل من البساطة ومن تحقيق اسلوب شخصي مستساغ . فعندما يبالغ الكاتب الناشىء بصياغة اسلوبه ويلتزم اسلوباً يقلّد فيه جهابذة اللغة يرتكب خطأً فادحاً لأنه يحدّ من موهبته بالتزام اسلوب يخاله عظيماً ويقيّد نفسه بأغلال هو في غنى عنها ، فيتصنّع الفخامة بدلاً من ان يجاري البساطة وهل يوجد ابشع من التكلف في الاسلوب ؟ لا أحسب ان الناس يحتملونه طويلاً لأن النفس تضيق به ، كما تضيق بالتقعّر والادعاء والغموض والسجع المتعمّد . ولا اريد هنا ان أسمي احداً فان نماذج البيان المعقّد القلق كثيرة بين ثمرات المطابع ، بعضها لكتّاب معروفين . وبعضها الآخر لناشئين ضلّوا الطريق ، وغالباً ما يتملكنا الاستغراب لدى قراءتهم ، ونقع في الحيرة متسائلين هل مستوى المؤلف أرقى من مستوانا بمراحل دونها مراحل ؟ أو أنه لا يعرف ما يريد ؟ أو تراه يريد ان يبهرنا بزخرف الكلم وبريق الجمل وغموض التعبير ؟ ثم نصبر ونتوغل في المقال أو في الكتاب الذي نحاول فهمه أملاً بالعثور على ما يغذي الفكر او ما يبهج الذوق الأدبي ، فنجد ان الصفحات جميعاً دارت حول فكرة عادية واحدة ، او معانٍ مبتذلة ، وان الكاتب يشبه ثريّ الحرب الذي يرتدي اثمن ثيابه ليبهر بصرك بالنفائس التي يمتلكها فهو يرتديها بلا اقتصاد ولا اناقة لكي يغطي بها ما يفتقر اليه من أصالة . لهذا اقول ان الاصالة شرط من شروط الكتابة الناجحة ، وبديهي ان الاصيل يترك نفسه على سجيتها ويهتم بتقديم انتاجه الفكري في قالب واضح وبسيط لأنه يريد قبل كل شيء ان ينفذ الى عقول القراء كافة والى قلوبهم . ولغتنا العربية على قدر كبير من الغنى والمرونة بحيث انها تستجيب للتطور اذا عولجت بفن ومعرفة كما انها اصبحت في عصرنا اداة تعبير لا غاية في حدّ ذاتها . لذا اقول ان على من يكتب ان يكون ايجابياً

وواضحاً ، لأن الناس في هذا العصر يفتقرون الى الوقت للمطالعة ولا يطالعون (ما خلا الباحثين والعلماء) الا ما كان ممتعاً ، وما كان مبناه سليماً وجذاباً . لقد كتب الاوائل بلغة عصورهم ، مستجيبين الى اذواقها ، ونحن يجب ان نكتب بلغة سليمة ورشيقة وواضحة استجابة لذوق عصرنا وروحه ، الا اذا كنا نسوّد الصفحات لتصبح كتبنا قطعاً تزيينية في المكتبات ، أو اكداساً مهملة في المستودعات ، وما يقال عن اللغة العربية يقال عن غيرها من اللغات ، فلشدّ ما اعجبني وصف ناقد غربي كبير للذين يعرضون معلوماتهم اللغوية العويصة فيما يكتبون إذ قال : « ان انتاج هؤلاء جدير بأن يوضع في المتاحف الاثرية الى جانب المومياء اذا لم يكن مريضاً مصاباً بفقر الدم » .

ولا بد من الاشارة الى اني افرق بين الأدب الحديث الرصين المكتوب بلغة عصرية وبين الادب الحديث السطحي السخيف الذي استهوى شباباً كثيرين في السنوات الاخيرة ، فبينما احبّذ الأول واصر عليه اراني انفر من الثاني واحذّر هواته من هدر الوقت والجهد في ميدانه ، واقول لهؤلاء الوصوليين ان عملهم لا يجديهم فتيلاً لأنه عبث زائل ، محكوم عليه بالفناء من القراء أنفسهم لأن لهم ذوقاً سليماً على اختلاف مستوياتهم ، ولديهم القدرة على النقد كباراً وصغاراً فلا يستسيغون الا الجيد والجميل . كما اني أعفي نفسي من مهمة اعطاء الامثلة على هذا النوع المستهجن من الكتابة لأنه في متناول الجميع ، في الصحف والمكتبات ، ولأن المتطفلين على الادب الذين يُسمّون انفسهم مجدّدين يحسبون ان الفن الحديث « المودرن » كل الفن هو التعبير عن لا شيء بجمل مبهمة وكلمات مبتذلة أو مخترعة ، وبالعديد من إشارات التعجّب ونقاط التأمل ...

ولكن لا بدّ من ان نعلم كيف تتكون الملكة الادبية عند الكاتب وما هي وسائل تقويتها ؟ الملكة الادبية تتكون ، بلا ريب ، بدراسة اصول اللغة

وقواعدها وبالمطالعة الجيدة وحفظ مختارات منها نثرية وشعرية ، فالدراسة اللغوية والمطالعة الجدية المجدية ركنان اساسيان في تكوين الأديب لا يستغني عنهما الا المتطفل الدخيل .

كانت نصائح شيوخ الادب واساتذته وما زالت تنحصر في ارشاد الناشئين الى قراءة القرآن وامهات الكتب العربية امثال الاغاني والامالي والعقد الفريد ، والبيان والتبيين ، والكامل ، وأدب الكاتب وقراءة الشعر الجيد والخطب البليغة من تراثنا الادبي ، ولقد سمعت هذه النصائح في حداثتي اكثر من مرة من الاساتذة والادباء فكنت استجيب اليها ايماناً بصوابها فألتجيء الى مكتبة ابي وانا راغبة بالتهام هذه الروائع في اقصر وقت . ولكن الرغبة وحدها لم تكن كافية لان وقتي ، وانا في مرحلة الدراسة ، لم يكن يسمح لي بقراءتها لسبب بسيط يدركه الذين اطلعوا عليها وهو ان الوقت الذي تتطلبه تلك المؤلفات القيمة يتجاوز الساعات الى الايام والاسابيع بل الاشهر الطوال . اني لا ابالغ بما اقول اذ يكفينا ان نتصور الوقت الذي تستغرقه قراءة كتاب « الاغاني » وهو موسوعة تاريخية أدبية في واحد وعشرين جزءاً كتبها ابو الفرج الاصبهاني وجمعها في خمسين عاماً ! لذا اعتقد أن النفائس المشار اليها في نصائح المعلمين والادباء انما هي كتب للدرس اكثر مما هي كتب للمطالعة العابرة السريعة ، كما اعتقد انه لا مفرّ للأديب من دراستها في حياته الثقافية التي لا تحدّ بسنٍّ معينة ، والاديب يحسن صنعاً لفكره لدى معرفتها ، ويوسّع بها افق مداركه بقدر ما يحسن صنعاً لعلمه وذلك لما فيها من اضواء كاشفة لتاريخنا الاجتماعي والسياسي والفكري والفني والنفساني لقد كتب ابن خلدون في مقدمته المشهورة يقول عن كتاب « الاغاني » : « انه الغاية التي يسمو اليها الاديب وعندها يقف » . وكان الصاحب ابن عباد يستصحب في اسفاره حمل جمال متعددة من كتب الادب القيّمة ، فلما وصل اليه كتاب

الاغاني استغنى به عنها جميعاً .

ثم ان في تراثنا الادبي نماذج رائعة للمطالعة لا يستغني عنها اديب وبوسع الناشئين ان يطلعوا عليها بسهولة ويستفيدوا منها كمؤلفات الجاحظ الذي كتب في القرن الثالث الهجري بلغة عربية ساحرة في جزالتها ووضوحها ومتانتها، وكتاب «كليلة ودمنة» الذي ترجمه ابن المقفع عن الفارسية بأسلس اسلوب وانقى بيان ، ومؤلفات كبار الأدباء المعاصرين كالدكتور طه حسين واحمد امين وعبد العزيز البشري وغيرهم ، فاذا نصحنا الناشئين بدراسة هذه المؤلفات نكون قد احسنّا النصح اليهم ودعوناهم لما يفيدهم لغةً وتاريخاً وفكراً .

واخيراً لا بد من ان يعلم كل من يرشح نفسه لحرفة الادب والعمل الفكري الهادف الى البناء والتوجيه والابداع انه يحتاج الى الكثير من الدرس والقراءة ، والى المطالعة المستديمة المختارة لأنها غذاؤه الفكري والروحي ، ولانه محتاج اليه لكي يعطي الجيّد والجميل بقدر حاجته الى ممارسة الحياة ودراسة النفس الانسانية وسبر اغوارها . فالقارىء العادي يستمتع بما يقرأ وينتفع به ولكنه غالباً ما ينساه ، والناس تتنازعهم المشاعر المختلفة والافكار في صراعهم مع الحياة ولكنهم يستنبطون منها الحكمة ويحتفظون بها لانفسهم والمقربين اليهم ، اما الكاتب فانه يختزن الاحاسيس والافكار في حالات الوعي وفي اللاوعي ، ويتأثر بقراءاته ومشاهداته تأثراً بالغاً إلى أن يفيض الوعاء العجيب الذي هو النفس ويفرض عليه العمل فرضاً ، فتراه ينعم بقدرته على التعبير ويحرّر نفسه وفكره بوسيلتها ثم يستعدّ من جديد لادخار غذاء جديد . وكما ان السفينة والطائرة والسيارة لا يمكن لها السير او التحليق بغير وقود تحرقه كذلك الكاتب ، لانه لا يستغني عن استهلاك الغذاء المعنوي وعن حرق اعصابه لكي يمشي ويتقدم ويحلّق . فالعطاء الفكري لا يكون جيداً وممتازاً الا اذا اقترن بالجهد

والألم والاخلاص، غير ان الأديب ينال مكافأته عليه اثناء العمل قبل كل شيء لان عمله يسعده ويحرره من عبء المشاعر ، ووطأة الافكار . اما درجة نجاح هذا الكاتب او ذاك فانها تقاس بقدرته على التعبير عن الواقع الانساني والقومي وبادراكه العميق لهذا الواقع ، اي عندما يجد القراء في انتاجه الصدى الامين لأحاسيس خبروها ، وافكار وآراء انتهوا اليها ولم يتمكنوا من الاعراب عنها ، او عندما يرشدهم الى جوانب من هذا الواقع غفلوا عنها . والاجادة في التعبير ليست رهناً على المتقدمين في السن اذ كثيراً ما يأتي الناشئون بانتاج جيد لا سيما وان العصر الذي نعيش فيه قد يسّر سبل التعليم في النصف الثاني من هذا القرن حيث انتشر التعليم وتقدم فن القصة في العالم تقدماً مذهلاً بسبب وفرة القصص الموضوعة والمترجمة، وجذب الاطفال والشباب اليها عن طريق الكتب والاذاعة والسينما والتلفزة . ولهذا كله اراني حريصة على تشجيع الشباب على الكتابة شريطة ان يتقنوا اللغة قبل كل شيء، وان يخلصوا لانفسهم ولحرفتهم الرفيعة القدر، وان يثابروا على العمل بصبر وثبات، عندئذٍ يرون ان درب الابداع أمامهم فسيحة .

قلت فيما سبق ان موهبة الكاتب تميزه من غيره بأنها تحرره وتسعده وذلك لان الفنان هو اكثر شعوراً بالحرية الذاتية في الحياة من سائر الناس . قال حكماء الصين في الغابر من العصور ان الفن هو اعظم سلوى للانسان في حياته ، والفن هو في الواقع سلوى وأداة سحرية للنجاة حيثما تجلّى في الأدب او في الشعر ، في الرسم او في الموسيقى ، في التصوير او النحت لانه ينبّه الناس الى مواطن الخير والجمال والحقيقة . وينسيهم ذواتهم المرهقة بقدرته على جذبهم اليه ونقلهم الى ميدانه السامي . اما الفنان فان عمله بالذات وسيلة تحرر لان من يكتشف نعمة العمل الفني ، اي من يتوصل الى مرتبة الخلق والابداع

يشعر بسعادة لا تضاهيها سعادة ، ولذة فكرية وروحية ما بعدها لذة . لقد عبّر شاعرنا الكبير بدوي الجبل عن هذه الحقيقة بأبيات رائعة انشدها يوم كان مضطراً للاغتراب عن وطنه ومقيماً في سويسرا قال فيها :

اذا ملكوا الدنيا على الحرّ عنوة	ففي نفسه دنيا هي العز والكبر
وان حجبوا عن عينه الكون ضاحكاً	أضاء له كون بعيد هو الفكر
فليلته صبح ، وعسرته غـــنى	واحزانه نُعمى ، وزفرته شعر
وما حاجتي للنور والنور كامن	بنفسيَ ، لا ظلٌ عليه ولا ســتر
وما حاجتي للافق ضحيان مشرقاً	ونفسي الضحى والافق والشمس والبدر
وما حاجتي للكائنات بأسرها	وفي نفسيَ الدنيا ، وفي نفسيَ الدهر !

صحيح ان الفنان اقدر من غيره على احتمال نفسه واسعادها لانه يعرف كيف يبني عالمه الخاص ، وهو عالم زاخر بالالوان والفكر والالحان يلجأ اليه في وحدته ، وكثيراً ما يعيش فيه بينما هو محاط بالناس ، غير انه يجدر الا يغرب عن بالنـــا ان الفنان لا يتكون ولا ينبغ بلا مثابرة على العمل ومعاناة ، وان ممارسة الهوايات المختلفة ، ان كانت الرسم او المطالعة او الموسيقى ، تعلم الشباب الاستئناس بصحبة الذات ، وتكوّن شخصياتهم . وتساعدهم على اكتشاف مواهبهم ، فتدنيهم من السعادة والنجاح ان لم تقدهم الى النبوغ . وعلى ذكر السعادة ، حلم الانسان الأكبر ولغزه المحيّر منذ ان وجد الانسان ، أرى انها اشبه بمصباح رائع نرنو اليه بنفوسنا وابصارنا ولا يستطيع احد منا بلوغه ، ولكن السعيد السعيد هو الذي يدنو منه أكثر من الآخرين فيستمتع بنوره ودفئه معاً . السعادة نسبية في حياة الافراد اذ غالباً ما يتوق احدنا الى شيء يخال الحصول عليه غاية السعادة بينما نرى انه لا يدخل في خلد غيره ان هذا الامر بالذات سبب من اسباب السعادة . السعادة حالة نفسية منوطة

بارادة الانسان وتفكيره لا تنبع الا من يقينه ، واذا اخطأ الحساب وراح يفتّش عنها في الخارج ويلجّ في طلبها بدافع وهمه وقصر بصره فانه يعيش شقيـاً ويصرف العمر كله في البحث عنها ولا يهتدي . حاول المفكرون والفلاسفة تعريف السعادة عبر العصور فتعددت الآراء وتباينت التفاسير ، وجلها كان قريباً من الحقيقة ومنطقياً وهذا ما يؤكد انها نسبية ، فقولهم مثلاً : « عندما تُسعد الناس تَسعد نفسك » قول صحيح ولكنه غير شامل ، وقولهم : « السعادة كالقبلة لا تستطيع ان تحصل عليها الا بالمشاركة » قول معقول ، غير ان اقرب الآراء الى الحقيقة تعريف حكيم قديم لها اذ قال : « السعادة هي ان يكون لديك ثلاثة : انسان تحبه ، وعمل تقوم به ، وهدف تصبو الى تحقيقه » . اما رأي شكسبير في السعادة فانه اكثر موضوعية وعمقاً ، انه رأي انسان نبيل ومفكر كبير عرف الحياة وخبرها فقد قال ما معناه : « اذا كانت سعادة الانسـان مرهونة بوجود شخص معيّن او بامتلاك شيء محدد فما هي بسعادة ... اما اذا عرف الانسان كيف يقف وحده في موقف عصيب ، مؤدياً ما يجب عليه من عمل بكل ما في قلبه من حب واخلاص ، فهذا انسان قد وجد الى السعادة سبيلاً » .

* * *

امتحان الضمير

ليس يسيراً على الكاتب ان يصف نفسه ويحللها مباشرة بينما يجد سهولة ومتعة في تصوير بعض ملامحها في قصصه ورواياته لسبب بسيط هو انه يتوارى اذ ذاك خلف ما يبدع من شخصيات . والانسان لا يستطيع ان يعرف نفسه معرفة كاملة لأنه يميل ، اكثر الاحيان ، الى تجميلها إما بدافع الغرور او بدافع الكبرياء ، بينما نجده ميالاً دائماً الى تشريح نفوس الآخرين للعثور على عاهاتها .. لذا اقول انه قلما يجرؤ انسان على كشف النقاب عن خفايا نفسه ، واعني عن مساوئها بالذات ، والقليلون الذين يقدمون على مواجهة نقائصهم والاعتراف بها هم بلا ريب اناس شجعان ومتواضعون ، ذوو ضمائر حرة ، وشعور قوي بالانصاف . ولكي يصل الانسان الى هذه المرتبة الخلقية الرفيعة لا بد من تمرنه عليها والتحلي بما ذكرنا من صفات . فقد رأيت في التوجيه التربوي للاطفال الذي يدعوهم الى الاعتراف بالخطإ جهاراً لدى ارتكابه ، ولوم انفسهم عليه ، وطلب المعذرة، قاعدةً مثلى لتقويمهم ، ولبث روح الشجاعة فيهم ، وتربيتهم على كسر شوكة الكبرياء وحبّ العَدْل .

اذكر اني حظيت مع بنات جيلي ايام الدراسة براهبات من خيرة المربيات اللواتي دربننا على عادة مستحبة منذ حداثتنا هي « امتحان الضمير » (Examen de conscience) التي كان ينجم عنها اعترافنا بالحقيقة وان كانت تديننا . وكنت من اللواتي آمنّ بهذه النظرية وتعودن ممارستها كـــل ليلة قبل النوم ، وهي

بحق طريقة مجدية لمعرفة الذات . والاعتيـــاد محاسبتها . ونبذ الغرور وانصاف الغير واحترامه . وهذا لا يعني ان من يطبقها يسلم من النقائص غير انها تجنّبه الوقوع في أخطاء سبق ان ارتكبها ، وتحدّ من ميله الفطري لتبرير نفسه واتّهام الآخرين . فعندما تشغلنا عيوبنا عن عيوب الناس نرتدع عن نقدهم والتشهير بهم ، ونتقبل اخطاءهم ، ونستعدّ للصفح عنها لاننا نصبح قادرين على تفهمها ، وانا مُتأكدة من اننا اذا تجرأنا على جرد اعمالنا وما يساورنا من افكار نجد فيها الرديء الى جانب الطيب ، والمخازي الى جانب المكارم ، فيا إلهي عندئذ ما أطول القائمة وما أغربها ! ولكننا نزع اغلب الاحيان الى التماس الاعذار لذنوبنا ، والى تلطيفها هرباً من الحجل ومن توبيخ الضمير . لان عملية الجرد هذه عملية رهيبة يندر بين الناس الشريف الذي يقوم بها بكل اخلاص ... ولا ريب في ان الذي يتحرى حقيقة نفسه انسان صاحب ضمير حر ، وانسان سعيد قادر على الانتصار على نفسه ونوازعها الشريرة ، انسان يملك شهواته ولايدعها تملكه ، انسان يعصي امر نفسه فلا تهلكه « إن النفس لأمّارة بالسوء » . واذا انتصر الانسان على نفسه ذاتها ، اي اذا انتصر على الجبن والبخل ، والنميمة والكسل ، والكذب والخداع ، والانانية والغرور ، فانه يحقّق أجلّ انتصار ويشعر عندئذ براحة الضمير والقوة والسعادة . فقد قال جان جاك روسو بحق : « لا يمكن لأي انسان في الوجود ان يكون سعيـــداً في قرارة نفسه اذا فقد اعتباره لذاته وكان مطيّة شهواته وغرائزه » .

قلت في مطلع هذا الفصل انه يصعب على الكاتب ان يصف نفسه ويحلّلها ، غير اني ارى انه قادر على تخطي هذه الصعوبة اذا شاء ، بل ان من واجبه ان يفعل اذا كان يكتب سيرته الذاتية . ولذا اقول اني ورثت عن ابي نزعة فطرية للتفاؤل . ولرؤية محاسن الناس وذكرها . وهذه خصلة طيبة طوّقت صِلاتي

العائلية والاجتماعية بهالة من السرور والارتياح . ومع ذلك كثيراً ما لمت نفسي على الافراط بالظن الحسن لوماً شديداً عند اصطدامي بالواقع المخيّب ، ولكن الطبيعة غلابة لكل تطبع ، وانا وان خابت آمالي وثقتي احياناً فانها اكثر الاحيان لم تخب حمداً لله ! يقول المقربون مني اني عاطفية ومتسرعة، وليسوا بهذا مخطئين ، غير ان الحياة علمتني في الآونة الاخيرة ، واقصد التجارب الشخصية بما يتخللها من صدمات ومفاجآت ، ان الانجراف مع العاطفة يحجب الحقيقة ويضلّل احياناً كما ان التسرع يقود الى التهوّر اكثر الاحيان . وانا احبّ الحياة والناس حباً جماً مذ وعيت الحياة ، وارنو الى أحداثها بتفاؤل كبير ، اما احداثهـا المروّعة فقد تعلمت ان اتقبلها بالرضا ، وان ابحث عن وجهها المشرق لان لكل حادث وجهين ، وهذه نعمة كبيرة للانسان في معالجة الحياة ، دعامتاها الفطرة الطيبة والايمان الصحيح . اما المتشائمون فاني ارثي لحالهم واشفق عليهم وارى ان ضعف الايمان في نفوسهم من عوامل تشاؤمهم وغالباً ما تتولد عنه الكآبة والبخل والجبن وطباع اخرى غير مستحبة .

لقد زوّدتني الطبيعة بحيويّة فياضة تدفعني الى الحركة والعمل دفعاً وأنا بها سعيدة لا أفرغ من عمل الا وأقبل على غيره بشغف، ولا أعرف للتعب معنى الا نادراً ، ولكني أعلم ان أهلي يشكون من حيويّتي المتدفقة ، ويعجبون من حركتي الدائمة . ان هذا النشاط الكبير ، الذي أتمنى ألا يفتر ما دمت على قيد الحياة ، سبب في تسرّعي بلاريب ، فقد كنت في حداثتي أمشي بسرعة زائدة ، وآكل بسرعة ، وأتحدّث وأجيب بسرعة ، ولكني روّضت نفسي مع الايام على التأني فنجحت في الحديث وتناول الطعام والكتابة بعض النجاح ، وأخفقت في المشي والدرس والحركة ، اما القراءة التي تعجبني وتنفعني فقد جريت على تذوقها بهدوء لاستمتع بها غاية الاستمتاع . وكثيراً ما لمست خوف أهلي وأصدقائي

عليّ من الاجهاد ، غير انهم أدركوا أخيراً أني أجاري طبيعتي بلا تعمّد لأني جُبلت مع طاقة جبارة للحركة والعمل ، كما اني آمنت بمثل فرنسي قديم منذ ان اطلعت عليه واعجبني معناه وهو : « خير لنا ان نهترىء من ان يكسونا الصدأ » . فمتى كانت الحيوية ، وهي اقوى محرّك لتذوّق الحياة والعمل ، مؤثرة في تطويل العمر أو تقصيره ؟ بل متى كان الخمول او الكسل سبباً في تألق الفكر وصحة الجسم؟ ان كلاً من النشيط والبليد معرّض للمرض والهرم والموت . غير ان الفارق بينهما ان الاول يعبّ من الحياة عبّاً ويتفاعل معها تفاعلاً عميقاً . بينما يكتفي الثاني بمعطياتها السطحية ويعيشها على الهامش خشية ان يحمّل نفسه مشقّة التجاوب معها والبحث عن متعها . فالتشوّف الى السفر مثلاً ، والطموح الى المعرفة في مختلف أنواعها ، يستوجبان نشاطاً كبيراً وحيويّة لا نستطيع من ادونهما ارواء الفكر والقلب وتذوّق الجمال والاستمتاع بالهبة العظيمة التي هي الحياة . وبديهي ان ما يقال عن المتع في هذا الصدد يقال عن المتاعب . لان من كان ذا مزاج حارّ ، واحساس نشط ، يتعرض للخيبة اكثر من غيره لأنه غالباً ما يكون مزوّداً بخيال واسع يشقيه (بقدر ما يسعده) وغالباً ما يفترض ملاقاة الصدى لمشاعره وافكاره لدى الآخرين ، فلا يجد في الواقع الا السراب اكثر الاحيان ...

استطعت بفضل وفرة النشاط والمثابرة على العمل ، وبفضل استعدادي للبت بما أراه جيداً ، ان اقوم بمشاريع متنوعة اكثرها فنّي ، فان المترددين لا يقدمون على شيء لان كلمتي (نعم) و (لا) لا تدخلان في قاموس عرفهم . بينما تجد (ربما) و (لا أدري) و (يجوز) موفورة فيه ... من هذه المشاريع مثلاً بناء دارين ، وتخطيط حديقة بيتنا الصيفي في بلودان ، وتأسيس دار للأزياء النسائية وادارتها ، والعناية بفن فرش الدور وتزيينها (الديكور) . عـــدا

هواية التصوير . ومع ذلك لم يرتوِ ظمأي الى تحقيق المزيد من امثال هـــذه المشاريع لأن الأفكار تتدفّق بغزارة في رأسي ولكن الوقت ، بل العمر ، يقصر عن اخراجها . ففيما يتعلق بالتأليف مثلاً كنت استطيع ان أقدم أضعاف ما انتجت لأني لم افتقر يوماً الى المواضيع بينما اني كنت أفتقر دوماً الى الوقت لشدة حرصي على القيام بواجباتي حيال اسرتي التي جريت على اعطائها الافضلية بملء اختياري . اما اذا سألني سائل لماذا ثابرت على الكتابة والدراسة بينما تتزاحم في حياتي المسؤوليات والأعمال المتنوعة والهوايات فاني أجيب بصراحة واقول : لتحقيق الذات أطعت هذا الميل القوي ، ولرغبتي في اثبات قدرة المرأة على القيام بعمل جدي يرفع من شأنها ومن اعتبارها لنفسها ، وسيّان ان كانت متزوجة او عزباً لأن بلادنا في أمسّ الحاجة الى المزيد من النساء الواعيات الطامحات الى العلم . وأما الزمان الذي كانت المرأة تُعتبر فيه دمية يلهو بها الرجل ، او قطعة اثاث وثيرة ، وربما جميلة ، تزيّن بيته فقد ولّى ولن يعود ... وكلنا يعلم ان العلم بحر لا حدود له ، تعجز عن احتوائه المجلدات ، فالارتواء منه لا يُحدّ بنهاية مرحلة ثقافية بل ان العمر كله يضيق عن استيعاب فرع من فروعه ، ولكن الراغب فيه يستطيع ان يغتني به حتى في شيخوخته . والعلم في يقيني ليس مقصوراً على حملة الشهادات العليا لانه من السخف ان يقف المرء عندها ، فالمثقف الحقيقي هو الذي لا تطغى غشاوة الغرور على بصره وبصيرته ، هو الذي يعترف انه يتعلم الكثير من أبسط الناس حتى من الاميين الذين وهبتهم الطبيعة حكمةً وذكاءاً ، وهو الذي يسعى دائماً ابداً الى استكمال ثقافته . ثم اني لا أحب المرأة المدعية ولا الرجل المدّعي ، ولا احب الحذلقة ولا المتحذلقين ، بل أؤثر الناس البسطاء الذين لا يتصنعون وأؤكد اني لم استنبط الجوهر الا لدى من سعدت بمعرفتهم من امثال هؤلاء ، سواء أكانوا اشخاصاً عاديين أم مرموقين . اما التواضع فانه يجذبني ويفرض

عليّ احترام صاحبه ويدل على علو قدره وعلمه الصحيح وفهمه الأكيد، فقد قال جول بيرنارد « Jules Bernard » « اذا كان التواضع يليق بالعظماء فان من الصعوبة بمكان ان يكون الانسان تافهاً وان يبقى مع ذلك متواضعاً ... » وبقدر ما أنفر من الصغارة أجلّ الأنفة وعزة النفس وأمقت التعاظم والتجبّر ، أجلّها في الرئيس والمرؤوس ، في الصغير والكبير ، لان من كان عزيز النفس يكون موفور الكرامة ، لا يرتضي ما يهين كرامته ، ولا يسمح للآخرين بالنيل منها ، كما انه لا يتطاول على كرامتهم ولا يؤذيها لانه انسان سويّ يدرك ان كرامة الانسان من كرامة خالقه ! ومن هنا ننفذ الى الظلم لان الاعتداء على كرامة الناس ظلم فاحش ، الضعفاء منهم قبل الاقوياء ، وان في تاريخنا خلفاء وحكاماً عظماء اشتهروا بالعدل وآمنوا به وطبقوا مبادئه على الرعية ، فالخليفة عمر بن الخطاب ومواقفه الانسانية الرائعة ما زالت موضع اعجاب الناس في الشرق وفي الغرب ، كما ان معاوية الذي اشتهر بالحلم ، وباللين من غير ضعف ، قال « اني لأستحي أن أظلم من لا يجد عليّ ناصراً الا الله ! » ولا ريب في ان الانسان النبيل ، ذا القلب الرحيم والشهامة المتأصلة ، لا يتجنّى على ضعيف بل يغلبه الضعف اينما تجلى ، على عكس الوضيع الذي يسحق الضعيف قبل القوي اذا وُجد في مركز القوة والحكم ، ويتباهى بفعله الشنيع منتحلاً له الاعذار الجهنمية التي يوحيها اليه شيطانه ، اذ لا قلب له ولا أصل ولا ضمير ! وكيف لا يهزمنا الضعفاء اذا كنا بشراً رحماء ؟؟ لا بد لكل واحد منا ان يكون اختبر الامر بنفسه وثار ثورة عفوية على الظلم حيثما تجلى ، فنحن نثور اذا شاهدنا اعتداءا على الابرياء من الناس او على الحيوانات ، كما اننا نندفع لخدمة المريض ورعايته . ونشعر بعجز انفسنا وهزيمة الانسان امام اي مظهر من مظاهـــر الاستبداد بالضعفاء والعُزّل من كل سلاح . والاطفال من فصيلة هؤلاء الضعفاء لذا يبذل الناس الرحماء كل ما في وسعهم في سبيل حمايتهم . ويضحّون

بأنانيتهم وراحتهم واغلى ما لديهم للسهر على رعايتهم وبلوغ سن الرشد بهم بأمان .

وعلى ذكر الاطفال فاني وجدت انهم ينمون جسدياً بسرعة مذهلة ويكبرون بين الفينة والفينة بالخفاء عن أعيننا وهم مع ذلك بين احضاننا ! كانت ابنتاي ندى ورشأ في عاميهما الرابع والثالث ، وكانتا شديدتي الولع باللعب والضحك والحركة ككل الاولاد في مثل هذه السن ، ولا اغالي اذ اقول ان أهنأ الاوقات التي عشتها كانت تلك التي شاركتهما خلالها في اللعب ، فهذه المشاركة تجدد الشباب في الروح ، وتزيل رواسب التعب الفكري ، وتلذ للآباء والامهات جميعاً ولغيرهم ممن فُطروا على حب الاطفال . لقد عودتهما الغنـاء وحب الموسيقى فكانتا تنقطعان عن كل حركة اذا جلستا امام البيانو للاصغاء الى الألحان ، فان عزفت مثلاً معزوفاتٍ خفيفة لموزارت أو شوبان تراهما تتجمدان قريباً مني وغالباً ما كانتا تشعران بحاجة الى النوم بعد ذلك ، كما لاحظت ان الموسيقى الصاخبة أو الحزينة كانت تثيرهما وتقلقهما فتدعوهما الى الابتعاد عن غرفة البيانو ، وهذا ما يؤكد أثر الألحان في نفوس الأطفال .

وفي صيف ١٩٥٥ قمت بتجربة فاشلة مع ابنتي ندى ندمت عليها أشدّ الندم وذلك يوم أدخلتها في مدرسة دوحة الأدب الصيفية في « بلودان » لأجنّبها وطأة الحر ولأعودها على محيط روضة الأطفال . كنت واثقة من جودة نظام تلك المدرسة ، ومن خبرة المشرفات عليها ، وعنايتهن التامة بالأطفال اذ سبق وانتسب ابني نزيه اليها وسُرّ كثيراً ، فأوصلنا صغيرتنا الى بلودان في شهر تموز وتركناها تلهو مع اترابها مسرورة وعدنا الى بيتنا مطمئنين الاطمئنان كله ، وفي اليوم التالي اتصلنا بالمدرسة الصيفية فعلمنا بأنها استوحشت في الليل وذكرتنا كثيراً ثم نامت على أمل لقاء الماما في الصباح ، فعزمت على سحبها

غير ان المديرة نصحتني ان أدعها ليلة ثانية لا سيما وانها كانت تبدو سعيدة في النهار ، وقالت انها ستعتاد وتنسجم مع رفاقها والمعلمات . ولكن ذلك الكلام لم يهدئني لاني بتّ على جمر في الليلة الثانية ، وحلمت بابنتي تبكي وتناديني بحرقة ، وعندما قصصت حلمي على زوجي قال إنه أضغاث أحلام ... غير ان حدس الأم لا يخطىء أبداً فقد خابرت المدرسة في الصباح الباكر وعلمت بأنها مرضت في الليل لفرط ما بكت ، وان حرارتها مرتفعة قليلاً ، وهذا ما دفعني الى التوجه الى المصيف في الجبل بسرعة جنونية وقد هبّت النار في قلبي ، ووسوس لي الشيطان أسوأ الاحتمالات . رجعت الى البيت مع صغيرتي التي استرجعت صحتها ومرحها المعتاد ساعة أحسّت بالاطمئنان بيننا وبالدفء في حجري ، وهل يوجد في العالم أفضل من حضانة الأم لولدها ؟ فالطفل في ظني ، كل طفل ، يسعد بجوار أمه ويتغذى به ، وعلى الأم عندما تنجب وتحمل لقب الأمومة المقدس ان تضع هذه الحقيقة نصب عينيها ، وان تنكر ذاتها وتهمل ملذاتها لرعاية أولادها لأن المسؤولية جسيمة ، كما ان القيام بالواجب في هذه الحال مصدر راحة للنفس وسعادة للروح . لقد استعادت ندى نومها الهادىء منذ عودتها الى البيت ، والى جوار اختها الصغيرة رشأ ثم انضم اليهما أخوهما الكبير نزيه بعد أيام بانتهاء عامه الدراسي في برمانا ، فاكتمل هناؤنا وذهبنا جميعاً الى ضهور الشوير لقضاء شطر من الصيف بعد ان فرغت من العمل مع جمعية المبرة النسوية حيث أعددنا حفلتين غنائيتين أحيتهما السيدة أم كلثوم ، وأرصد ريعهما لأعمال « المبرة » الخيرية . أما ابني نزيه فلقد سعيت لادخاله مدرسة برمانا الليلية لابعاده عن أخطار الدلع والميوعة سواء في بيت أبويّ أو في بيت عمه وعماته في طرابلس ، فوجد في تلك المدرسة جواً صحياً وتربوياً ممتازاً وكل الأنس بوجود خاله (أخي بشر) وأولاد أعمامه فيها ، وقد

جنى فوائد كبيرة من الدروس والتوجيه الرياضي والاجتماعي ، كنا نلمسها فصلاً بعد فصل ، وعاماً بعد عام . ولهذا كله بت أعتقد ان المدارس الليلية للفتيان، ولمن كان منهم وحيداً خاصة، ذات منفعة جلى لهم تربوياً وثقافياً بعد ان يكونوا نالوا في دور أهليهم المبادىء التربوية الأساسية ، وبعد ارتوائهم من حنان الأهل وعاطفتهم قبل كل شيء .

* * *

أمـــام التحدي

عاشت دمشق في مطلع صيف ١٩٥٥ قبل انتقالنا الى ضهور الشوير ليلتين فنيتين من اجمل ليالي العمر مع كوكب الشرق السيدة ام كلثوم ، ودمشق بل سورية كلها تقدر الفن ، وتحب الطرب ، وتتعشق غناء نابغة شرقنا العربي ام كلثوم . لقد سعدت حقاً بالاسهام في تهيئة حفلاتها هذه بالتعاون مع اعضاء جمعية « المبرة » النسوية التي كان لي شرف تأسيسها سنة ١٩٤٥ ، وكنا قد عقدنا اتفاقاً مع أميرة الطرب في الربيع يوم قدمت في بيروت حفلات رائعة على مسرح الأونيسكو ، وعدنا الى بلدنا مسرورات بالاتفاق ، وواثقات من تنظيم حفلتيْ دمشق ومن نجاحهما ، ولكننا خشينا كثيراً الا نتمكن من تسديد جميـــع النفقات ... كان غرضنا اسعاف ميزانية جمعيتنا التي كانت يومئذ تشرف على الفتيات الجانحات ، غير ان المبلغ الذي طلبته منا أم كلثوم مع جوقتها لإحياء سهرتين كان باهظاً بالقياس الى امكاناتنا المادية اذ قارب السبعين ألف ليرة سورية . ثم كان علينا ان نستأجر مسرحاً كبيراً وننفق على تنظيم هندسة الصوت فيه ، كل هذا في حين ان خزانة الجمعية كانت خالية من كل اثر للنقود او الوفر ... لقد اعتبرنا بعض الناس من المغامرين ، الفاقدين للصواب والتوازن ، وهذا ما زاد في حماستنا وما دفعنا الى العمل المنظم والسهر المتواصل لاحراز نجاح باهر في عملنا نتحدى فيه استخفاف غيرنا من ذوي الخبرة والعقل ... كنا نعلم جيداً رصيد كوكب الشرق في قلوب السوريين ونحرص على عودتها الى دمشق بعد غياب عنها جد طويل مما جعلنا نجد في تهيئة المسرح والبرنامج

والدعوات وبيع البطاقات دون ان تخامرنا الشكوك بالفشل أو بالخسارة . لقد وُفقنا بتنظيم مسرح صيفي خلقناه خلقاً باستئجار باحتي مدرسة اللاييك واعدادهما وبعد ان عينّا موعد الحفلتين وألفنا لجاناً من السيدات اعضاء المبرة لبيع البطاقات في المحافظات السورية وفي العاصمة . ومنذ الايام الاولى التي تلت طوافنا لاقينا من الناس ومن الحكومة والمؤسسات المختلفة اقبالاً منقطع النظير على الحفلات ، وتشجيعاً كبيراً على عملنا الانساني ، عبّروا لنا فيه بالتبرع السخي له ، حتى ان السيدة ام كلثوم نفسها كانت في عداد المتبرعين بعد وصولها الى دمشق وزيارتها للفتيات الجانحات اذ تبرعت بمبلغ ألف جنيه .

لقد اغدقت علينا الحفلتان مبلغاً من المال كان كافياً لشراء دارٍ للمبرة اصبحت تنتفع بايرادها السنوي ، كما ان نجاح الحفلتين بفضل فن كوكب الشرق وحسن التنظيم والجو الساحر الذي هيمن عليهما قد جعلهما ليلتين فنيتين نادرتين . اني احفظ لتلك الايام الرائعة التي سبقت حفلتي ام كلثوم في دمشق وللسهرتين الجميلتين أجمل الذكرى وأعذبها لأننا ، زميلاتي في المبرة وانا ، كنا شابات صغيرات يومئذ واستطعنا انجاز عمل كبير بفضل تلك التحديات ، ولأننا استمتعنا بصحبة السيدة ام كلثوم وهي المحدثة البارعة صاحبة النكتة الجميلة السريعة والذكاء الخارق . كانت لنا مع ام كلثوم جلسات ممتعة في دمشق وفي ضواحيها التي دعوناها لزيارتها ، وقد صحبتها يوماً لزيارة رئيس جمهوريتنا آنذاك الزعيم الجليل هاشم الاتاسي فكرمها باستقباله الودي وحديثه العذب عن الموسيقى والغناء وخرجت من زيارته معجبة بشخصيته النبيلة وذوقه الرفيع وتواضعه . كما أقامت لها نقابة المحامين حفلة تكريم في نادي الشرق ، وقدمت لها حكومتنا وسام الاستحقاق السوري قبل ان تغادرنا وهي تحمل لسورية وابنائها أطيب الذكرى واصدق الاعجاب بهم لتجاوبهم مع الغناء

والموسيقى ، وشدة تأثرهم بالنغم العذب واللحن الجميل ، وحسن استماعهم اليهما مما يرضي الفنان الأصيل ويبهجه ويدعوه الى الاجادة والتحليق .

كانت قصيدة « الذكريات » التي كتبها الشاعر الاستاذ احمد رامي في فندق بيت مري ابان انعقاد مؤتمر ادباء العرب فيه سنة ١٩٥٤ من اغاني ام كلثوم الجديدة الرائعة ، وفيها يخاطب الشاعر رامي حبه وذكرياته بلغة ساحرة ، وحرقة مؤثرة . لقد حضرت ولادة هذه القصيدة وكنت من الاوائل الذين سمعوها اذ وصلت ذات يوم الى بيت مري لمتابعة جلسات المؤتمر فاستقبلني الشاعر اللبناني الكبير نقولا فياض بنبإ اعتزال الشاعر رامي في غرفته ، وقال لي انه أوصد بابها منذ أمس دون الزملاء والاصدقاء . علم الادباء نزلاء الفندق بأن الاستاذ رامي قضى ليلة مسهدة وهو يفرط في التدخين وشرب القهوة ، ويرفض الاتصال بأحد ، ويكتب ... هذا ما علموه من الندل الذي كان يقوم على خدمته ، غير ان الشاعر فياض استطاع ان يدخل عليه في الصباح فوجده متعباً لشدة الأرق والاضطراب ، وبعد استفهام وجواب وقف على حقيقة الامر وهو ان الشاعر رامي فوجىء بنبإ زواج كوكب الشرق ام كلثوم في الليلة السابقة فاعتزل غرفته وكتب قصيدة « ذكريات » وهو من أقدم المعجبين بسيدة الغناء والطرب ، ومن الذين يهيمون بها (من بعيد لبعيد) . لقد فجّر خبر زواجها في نفسه الذكريات وكنّا اول من سمع قصيدته الرائعة حقاً التي أرسلها الى ام كلثوم فأعجبت بها وكلفت الفنان الكبير الاستاذ رياض السنباطي بتلحينها . وغنتها في القاهرة بعد فترة وجيزة بحضور الاستاذ رامي كأرقّ ما يكون الغناء وأبدع ويوم حضرت ام كلثوم الى دمشق طلبت منها ان تغني « ذكريات » ففعلت وألهبت المشاعر وأبدعت واستدرّت منا الآهات والدموع . ثم رجوتها ان تغني لنا « رباعيات الخيام » فاستجابت الى طلبنا وهي سعيدة بما لقيته من تجاوب فني وتقدير عظيم . ولا ريب في ان اعظم

مزايا سيدة الغناء العربي انها تبتكر دائماً اثناء الغناء لدى تكرار مقاطع اغانيها ، حسب درجة انسجامها مع القطعة ، ومقدار الهامها في الأداء ، فقد حملت ثلاثة آلاف مستمع في هاتين الليلتين في دمشق على التحليق معها في كل اغنية ومقطع ، وبصورة خاصة لدى مناجاتها الخاشعة لله في رباعيات الخيام الأخيرة وطلب المغفرة منه . امتدت السهرتان الى مطلع الفجر وما زالت ذكراهما حية في نفوس الذين حضروهما . ولذلك قلت انهما كانتا من ليالي العمـــر الفريدة في تجليها وروعتها .

بعد انتهـــاء مهرجان « المبرة » ذهبنا الى مصيف ضهور الشوير مــع والديّ واخوتي واولادي ، وبينما كنـــا نقضي فترة راحة ابتدأت معركة انتخابات رئاسة الجمهورية في سوريـــة ، فرشح بعض النواب أبي غـــير انه لم يكن قد فكّر بتبوّء هـــذا المنصب من قبل وكان قـــد صدر له في دمشق كتاب هام بعنوان « ذكريات » في جزأين تضمنا تاريخـــاً لأهم خطوات الحركة العربية الوطنية منذ نشأتها وتصويراً صادقاً لمراحل الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في سورية إذ رافق ابي النهضة العربية منذ انبعاثها ، وشارك في التخطيط لها وخاض معاركها منذ اسهامه بتأسيس جمعية « النهضة العربية » سنة ١٩٠٦ ابان الحكم العثماني . يعود الفضل في صدور « ذكريات » ابي لوطني عربي سوري هو الاستاذ وجيه بيضون الذي طلب اليـــه بالحاح ان يسمح لـــه بنشر سيرته من خلال كفاحه في سبيل النهضة والاستقلال ، ومقالاته وخطبه في غضون النصف الاول من هذا القرن ، وقد كتب الاستاذ بيضون كلمة التمهيد للكتاب ونشر بعدها ترجمة موجزة لأبي قال فيها[١]

---

(١) « ذكريات » الجزء الأول ، ص (٧) .

« كان لطفي الحفار فتى يافعاً عندما تفتحت عيناه على هذا الوطن وفي صدره خفقة الوطنية والعروبة ، فعُرف وهو طالب على مقاعد الدراسة بنزعته القومية والاستقلالية ، وكانت نفسه تتعشق الحرية ، وكان رفاقه يومئذ في العمل الوطني محبّ الدين الخطيب ، وصلاح الـدين القاسمي ، ورشدي الحكيم ، وصلاح الدين العظم ، وعثمان مردم بك ، وعارف الشهابي ، وصالح قنباز ، وجورج حداد ، وغيرهم ، فإن هذه العصبة من الشباب كانت تعمل للفكرة القومية ، وتقاوم حركة التتريك والدولة العثمانية في أيام السلطان عبد الحميد . وقد أقيمت لهذه الجمعية العربية السرية فروع في مصر واليمن والآستانة ، وكان يدفع أعضاءها للعمل حماسة الشباب التي ألهبها في نفوسهم أقطاب الدعوة الاصلاحية أمثال الأساتذة الشيخ طاهر الجزائري ، وجمال الدين القاسمي ، وعبد الرزاق البيطار ، وكان من العاملين تحت لواء هؤلاء السادة عبد الوهاب الانكليزي ، وشكري العسلي ، والأمير شكيب أرسلان وغيرهم . وعندما أعلنت جمعية الاتحاد والترقي الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ برزت جمعية النهضة العربية الى الميدان السياسي واحتفلت باعلان الدستور في مقهى القوتلي بدمشق ، وكان من ابرز خطبائها السادة لطفي الحفار والدكتور عبد الرحمن الشهبندر وسليم الجزائري . كانوا يعملون في سبيل النهضة الفكرية فأسسوا الأنديـة في مختلف أنحـاء البـلاد وألقوا من الخطب والمحاضرات عن تاريخ الأمة العربية وأمجادها ما يصحّ ان يكون تاريخاً للحركة القومية ، وطالما اصطدموا مع الاتحاديين في سبيل هذه الدعوة وهاتيك المبادىء » .

كما وصف الاستاذ بيضون أبي مستعيراً وصف أحد الكتّاب العرب له اذ قال : « جمجمة كقمّة صنين في الشتاء ، ونظرات عميقة تطفو عليها لمحات الذكاء وقوة التفكير وصدق العزيمة ، وحديث تمتزج به الرصانة والوقار ،

ويحسن تنسيقه العقل والمنطق فيفعل في النفوس فعل الخمر في الرؤوس ، وأكثره عن الوطن والوطنية ، ومصلحة الوطن واستقلاله السياسي والاقتصادي وسيادته وأمجاد العرب ورفعتهم . ولا بدع ان يكون حديث الوطن شغل لطفي الحفار الشاغل فهو من ألمع رجالات الوطن العربي ، ومن أوفرهم اخلاصاً وتضحية » .

لاقت ذكريات أبي في سورية والاقطار العربية ، ولدى المتتبعين للنهضة الجديدة من عرب وغربيين ، اهتماماً كبيراً لما فيها من حقائق ودراسات موضوعية تعتبر الخلاصة للحركة الوطنية في سورية وللنضال العربي ، بل المرآة الصادقة لهما منذ مطلع القرن العشرين . تناولت أقلام العلماء والادباء والسياسيين الكتاب بالتقريظ والترحيب ، فتلقى أبي مئات الرسائل في صدده التي عملتُ على تنظيمها وحفظها ، وكانت بينها رسالة من باريس بعث بها المستعرب الفرنسي الاستاذ جاك بيرك (j . Berques) المؤرخ الكبير واستاذ التاريخ الاجتماعي للاسلام المعاصر في الكوليج دي فرانس ، يهنئه فيها على كتابه القيم . وقد أعلمه الاستاذ جاك بيرك بأنه وجد في « الذكريات » صورة هامة لملامح الحياة الاجتماعية في دمشق ابان النضال الوطني ، وشرحاً وافياً للنهضة الاقتصادية في سورية ولا سيما في بعض مقالات ابي وخطبه في المحافل الرسمية ، مما سمح له بكتابة فصل في دائرة المعارف الفرنسية الكبرى أسماه : (عالم العرب السياسي) ضمن البحث العام الذي خصصته الدائرة العلمية في طبعتها الجديدة لموضوع : (الكتل الكبرى) . وانه لمما يسرّ حقاً ان يستعين مفكر كبير ، وعالم صديق للعرب والاسلام مثل الاستاذ جاك بيرك بما ورد في كتاب أبي ، وان يذكره ويذكر ما ورد فيه عن الحركة الوطنية في سورية في مرجع تاريخي وعلمي هام كدائرة المعارف الفرنسية . لقد ذكر الاستاذ بيرك في بحثه أثر التنظيم النضالي في جميع احياء مدينة دمشق باشراف الكتلة الوطنية لتنمية الحركة

القومية واستلهام القوة الروحية منها ، وذكر كذلك أثر مؤسسة مياه الفيجة في تموين دمشق بالماء النظيف ، وفي توسيع عمرانها ، وتطوير حياتها الاقتصادية والصحية والاجتماعية .

عندما صدر الجزآن الكبيران من ذكريات ابي سعدت بأن يهديهما اليّ ، واذكر اني صحبتهما الى ضهور الشوير لأقرأهما بشغف واتعلم من فصولهما ما أتوق دوماً الى تعلمه من كل كتاب قيّم ، ولكن معركة انتخابات الرئاسة واقحام ابي فيها ما لبثا ان صرفاني عن متعة القراءة بهدوء لاني عشتها بالقرب منه في لبنان اولاً ثم في دمشق . فبعد ان ذاع نبأ ترشيح بعض النواب له أخذت وفود الصحفيين والشخصيات العربية تتردد على فندق غابات بولونيا كل يوم ، واضعة الآمال بفوزه ومؤيدة ترشيحه . كان الرئيس السابق الزعيم شكري القوتلي يصطاف في صوفر وقد اعتصم بالصمت في بدء معركة انتخاب رئيس جديد للجمهورية ، غير انه كان راغباً في تجديد انتخابه كل الرغبة كما تبيّن من بعد لأسباب وصفها هو بالذات بأنها عاطفية ، فقد كان يجد في عودته الى سدّة الرئاسة استرداداً لكرامته . وبينما كنا في مصيف ضهور الشوير أخذت الصحف السورية واللبنانية تتحدث عن ترشيح أبي وتدعو الى نجاحه ، فمن افتتاحيات مؤيدة ومقالات كل يوم ، الى اتصالات هاتفية متلاحقة ، الى مقابلات مستعجلة ، كل هذا وأبي متحفظ في رأيه يعالج الموضوع بكثير من الرويّة والحكمة ، واضعاً مصلحة الوطن فوق كل اعتبار . كانت كفّته راجحة في تلك المعركة لاتفاق أكثرية الآراء على انه الرجل الحازم الذي تحتاجه سورية ، وهو الذي اشتهر في حياته السياسية بالصلابة والاستقامة ، وبالزهد في المناصب الحكومية ، لذا تهيأنا للعودة الى دمشق نزولاً عند اصرار بعض النواب لاعلان هذا الترشيح ، ولكن الرئيس القوتلي اتصل بنا من صوفر فجأة وأعلمنا بأنه

قادم للاجتماع بــأبي فاختليا بعد الغــداء للبحث في الموقــف الراهن واتفقا على ان ينسحب والدي من المعركة لصالح الرئيس القوتلي . كان بوسعه ، رحمه الله ، ان يساند ترشيح أبي ويظل محتفظاً بمركز الزعامة والتوجيه، ولكن معالجة الأمر عاطفياً دفعت أبي الى التنازل عن هذا الترشيح والانسحاب علناً من معركة الرئاسة لصالح زميله في الجهاد في اجتماع وطني كبير عُقد في دمشق قبيل الانتخاب بأيام ، أي في شهر آب سنة ١٩٥٥ . ولا أريد في هذه الصفحات ان أحلل عواقب مثل هذه الأحداث لأني لا أكتب تأريخاً لسورية ، انما اريد ان أسجل صفات بارزة تحلى بها أبي في جميع مراحل حياته منهــا صفاء السريرة حيال جميع اخوانه ، والاستقامة المتناهية في أعماله ، والاستعداد الدائم للتضحية من أجل وطنه . فلقد علّمنا رحمه الله الصوفية في الوطنية ، والترفّع عن المصالح الذاتية ، وعلّمنا ان الصراحة أشرف من المراوغة ؛ غير ان اصدقاءه كانوا يأخذون عليه صراحته التي جلبت له متاعب كثيرة ، وطيبته التي جعلته هدفاً للمناورات السياسية في بعض الأحيان ؛ ولكنهم كانوا جميعاً معجبين باستقامته ونزاهته وببعد نظره في تحليل الأمور .

* * *

زوجتان في اجـازة

اكتشفت في السفر منذ حداثتي المتع الفكرية والروحية التي يجنيها الانسان في تنقله ، وبتّ منذ رحلتي الأولى لأوروبا اعقد الأماني على الاستزادة من الرحلات ، ولكني لم أبرح بلدي منذ سنة ٤٨ حتى سنة ٥٥ حين حققت لي الظروف أمنيتي باستئناف السفر ، فاستمتعت بالآفاق الجديدة التي جبتها الاستمتاع كله . واني لأذكر الآن قول الأديب الفرنسي (غي دو موباسان) في السفر : « السفر باب نخرج منه من واقع مألوف لندخل في واقع مجهول يبدو وكأنه حلم من الأحلام » .

غادرت دمشق لزيارة تركيا واليونان في يوم خريفيّ صاحٍ بصحبة صديقة لي سورية ولدت في اسطنبول ونشأت فيها هي السيدة ميمنة حلبوني الطباع . كانت راغبة في السفر الى تركيا لتفقّد أخيها ومن بقي من ذويها في اسطنبول ، فتحمست لمرافقتها يوم حدثتني عن عزمها ، ولقيت من زوجي كل تشجيع ، غير أني اشترطت عليها أن ترافقني إلى عاصمة اليونان للتعرف عليها وذلك لقربها من تركيا ، فقبلت . وما هي الا بضعة ايام حتى غادرنا مطار دمشق وقد تركنا فيها الزوج والأولاد أي القلب كله ، ولكن الشباب يزوّد المرء بالشجاعة والعزيمة ، كما ان بهجة الاقبال على السفر تجذب الفكر وتشغله لذا لم ندرك اننا خلّفنا القلب في دمشق الا بعد ان ابتعدنا عنها وافتقدنا من فيها افتقاداً كان يزداد يوماً إثر يوم ، وليلة إثر ليلة . عدت الى وصف تلك الرحـلة في مذكرتي اليومية التي استغرقت اسبوعين فوجدت فيها ما يُضحك وما يؤثر . وتعبيراً

ملحاً عن شدة الحنين للبيت ومن فيه في ختام كل يومية ، فقدكانت تلك الرحلة أول غياب لنا عن أولادنا ، وكانت ابنتاي ندى ورشأ صغيرتي السن غير اني تركتهما مطمئنة لوجود من يرعاهما ، بينما كان ابني نزيه سعيداً في مدرسته في برمانا مع خاله واولاد عمه . وكذلك كان الأمر بالقياس الى ميمنة فقد تركت أولادها الثلاثة في رعاية والدهم وأهله ، ولكن الأمهات بوجه عام شديدات التعلق بأولادهن يتوهّمن حدوث المكاره في غيابهن لأنهن يعشن بالعاطفة أكثر من الآباء . وقد ثبت لنا إثر رجوعنا الى دورنا ان غيابنا القصير هذا لم يكن كارثة ، كما حسبنا ، لأننا وجدنا الأزواج والأولاد والأهل بخير وعافية ولقينا منهم استقبالاً ودياً وشوقاً لعودنا شديداً بفضل ذلك الغياب القصير . ان لقاءهم الحار جعلنا نستأنف الحياة اليومية بروحٍ جديدة نشطة ، ولمسنا تقديرهم لنا وتعلقهم بنا ، وفي هذا ما يسعد الروح ويغذي القلب ! كنت سعيدة حقاً بصحبة ميمنة لانها صديقة حلوة المعشر ، هانئة الطبع ، ولأنها تعرف البلد الذي قصدناه ، وتجيد اللغة التركية التي اجهلها ، فلولاها لما اتيحت لي فرصة زيارة تركيا ، ولولاها لما استطعت ان اجول فيها كما جلت وان اتفاهم مع احد اذ قلما كان السائح في تركيا يجد من يتكلم فيها لغات اجنبية . ثم ان الذي قال « اذا اردت ان تعرف شخصاً ما معرفة صحيحة فسافر معه » لم يقل عبثاً ، لأنه ليس كالسفر كشاف للطباع ، فالعشرة التي يفرضها في النهار والليل ، في التعامل المادي وغيره ، كفيلة بأن تظهر الخصال المتأصلة في النفس اذ ان الانسان قد يتقنّع بالكرم اذا كان بخيلاً ، وباللطف اذا كان فظاً ، وبالهدوء اذا كان عصبي المزاج ، وبالمرح إذا كان كئيباً في اللقاءات القصيرة . اما في السفر فانه يظهر على حقيقته لا محالة سواء في الفندق او في المطعم او في النزهة او في السوق ، وبهذا تظهر سجاياه على حقيقتها ، دونما تكلُّف او اقنعة خداعة ... لهذا قلت اني سعدت بصحبة ميمنة وانسجمت معها في الحل والترحال

انسجاماً كلياً ، ثم ان خفة روحها ورقة طبعها جعلتا من تلك الرحلة ذكرى جميلة لم تستطع محوها السنون الطوال .

استقبلنا في مطار اسطنبول اخو ميمنة وقنصلنا فيها السيد عادل السباعي بعد رحلة مريحة جداً ، فتوجهنا تواً الى فندق هيلتون حيث كنا قد حجزنا غرفة لاقامتنا فيه . اخترنا هذا الفندق لجمال موقعه ولشدة ما سمعنا عنه وعن ادارته من المديح ، وهو بحق اجمل فنادق هيلتون في العالم لموقعه الفريد على البوسفور . ولم ننفق في الايام العشرة التي قضيناها فيه نصف ما ينفق اي سائح في فندق من الدرجة الثانية في بلدنا وذلك لرخص العملة التركية بالقياس الى عملتنا اذ كانت الليرة التركية تعادل ثلاث ليرات سورية تقريباً . كانت غرفتنا واسعة دافئة ، مطلة على منظر من اجمل مناظر العالم ، لها شرفة رحبة ، وفيها حمام كبير وجميع وسائل الرفاهية ، وهذا مما يشرح الصدر ، ويبهج نفس السائح بلا ريب . اقول غرفتنا لأن ميمنة تخاف ان تنام بمفردها في الدار ، فكيف يمكن ان تستقل بغرفة في فندق كبير ؟ فوافقت على مقاسمتها الغرفة شريطة الا تعترض اذا ما سهرت الى ساعة متأخرة وتركت النور مضاءًا للكتابة ، فوافقت لأنها مسايرة الى ابعد حدود المسايرة .

انطباعي الاول عن مدينة الامبراطور قسطنطين كان طيباً للغاية . فقد سحرتني مآذنها الرشيقة التي تشق عنان السماء بزهو واناقة ، وسحرني تكوينها على ضفتي المضيق البحري « البوسفور » الازرق الهادىء الذي تحيط بجانبيه الحدائق الغنّاء . والاشجار الباسقة ، وتجوبه ليل نهار البواخر الجميلة والاشرعة الناصعة البياض . اما في الليل فان المنظر يزداد جمالاً وبهاءًا لانتشار الأنوار المتلألئة على الضفتين ، وفي وسط المضيق . وكأنها أنجم مصطفة تشع لتبهر الابصار ، بعضها ساكن وبعضها متحرك ، واعني بالمتحرك منها انوار البواخر

والسفن والقوارب التي لا ينقطع سيرها فيه . كما اعجبتني حديقة الهيلتون المنسقة ابسط تنسيق واجمله وكأنها بساط من السجاد الاخضر النفيس ، غير ان شكل الفندق لم يعجبني لأنه مبني على طراز اميركي حديث ، يشبه علبة مربعة من الهشب لا خطوط زخرفية فيها ولا فنون هندسية كالتي ألفناها في شرقنا وفي بلاد الغرب . أما من الداخل فانه افضل من مظهره الخارجي لرحابة قاعاته وغرفه ، وفخامة اثاثه وجمال تزيينه ، حتى ان احدى قاعات الاستقبال مستوحاة من الطراز الشرقي في فرشها وتزيينها لتذكّر الزائر الغريب انه في عاصمة شرقية عريقة ، ولتغريه بالتعرف الى نفائسها . اما بهو الفندق الكبير فانه اشبه ما يكون باحدى محطات الانتظار الكبرى في مطارات الولايات المتحدة لكثرة الرواح والمجيء فيه ، ولكثرة الضجيج والعجيج ، والنماذج البشرية للسياح ، وجلهم من الاميركيين المسنين ... ولعل اجمل ما وفق المهندسون اليه لدى بناء هيلتون اسطنبول تلك الواجهات الزجاجية العريضة التي تفصل طابقه الأول باجمعه المعد للاستقبال وللطعام عن سطحة كبيرة مطلة على البوسفور بحيث تستطيع وانت جالس في داخل الفندق ان تشرف على منظر رائع حقاً يشمل الخضرة والماء والامواج والاحراج والابنية الحلوة ، مدى البصر ، دون ان تمل او تسأم . لقد ذكرني هذا المنظر بمنطقة البحيرات في شمال ايطاليا ، بمناظر مدينة كومو مثلاً حيث ترى بحيرة صافية اللون ، هادئة المياه تمتد على جوانبها تلال خضراء تنبت فيها الدور والقصور ، وحيث تنعكس على صفحة البحيرة أشعة الشمس الغابرة وألوان الأحراج أجمل انعكاس في النهار ، اما في المساء فان للانوار الكهربائية عرساً ليلياً لا تنقطع له بهجة ، غير ان البوسفور اقل عرضاً من بحيرة كومو وقد يضيق الممر في بعض المواقع فيحسب الناظر اليه عن بعيد انه مسدود ، ينتهي في تلك النقطة ، غير انه لا يضيق في مجراه الا ليتسع من جديد وينقلك الى آفاق جديدة ، ومناظر لا تقل فتنة عما شاهدته

من قبل . كل هذا ومدينة اسطنبول رابضة باعتزاز على طرفيه بشقيها الاوروبي والشرقي ، الا ان الجزء الاوروبي منها يمتاز بآثاره الجميلة الفنية ، من اهمها الجوامع والمدارس والقصور والقلاع والقبور ، ولا عجب في ان تحتوي مجموعة كبيرة من الآثار والمتاحف لأنها عاصمة مجد قديمة ، اسسها الاغريق وجعلها قسطنطين من عواصم الامبراطورية الرومانية ، ثم أصبحت قاعدة الامبراطورية البيزنطية الى ان فتحها الاتراك العثمانيون واستقر فيها سلاطينهم . وهكذا فقد تعاقبت عليها الحضارات ، وخلدت فيها الآثار النفيسة النادرة التي كانت وما زالت تجذب اليها العلماء والسياح من كل حدب وصوب .
كان اول ما فعلناه فيها ، رفيقتي وانا ، الطواف على ملامحها التاريخية ، فخصصنا لهذه الزيارات معظم اوقاتنا ، قبل الظهر وبعده ، وقد قمنا ببعضها مع شركة للسياحة وزرنا البعض الآخر إما بصحبة قنصلنا او بصحبة اقرباء ميمنـــة واصدقائها الكثيرين الذين احاطونا بغاية العناية ، واطلعونا على معالم اسطنبول الاثرية والطبيعية اطلاعاً سريعاً ووافياً ، ما كنا لنستطيع تحقيقه لولا رفقتهم وارشادهم وتجوالنا في سياراتهم الصغيرة . وقد تعرفت من خلالهم على وجه من وجوه الحياة الاجتماعية الحديثة في تركيا ، على شباب وشابات وكهول ومسنين ، غير ان الفارق الكبير بين ابناء الجيل المخضرم الذي نشأ بعد ثورة كمال اتاتورك ، محرّر تركيا ونابغتها ، وبين طبقة المسنين القدامى ، الذين حافظوا على تعصبهم الديني وتقاليدهم المتوارثة في المدن وفي القرى على السواء .
تعرفت بطبقة المثقفين وبينهم نساء متحررات فكرياً واجتماعياً ، واقفات على تطور العالم واخباره ، يسهمن في بناء الدولة بتعاطي الوظائف الحكومية ، ومن اولئك شابة تتخصص بالهندسة المعمارية وتعمل في اوقات فراغها دليلاً سياحياً لاتقانها اللغتين الفرنسية والانكليزية كما التقيت في سهرة دعتنا اليها احدى صديقات ميمنة في « نادي الشرق » بعدة اسر تركية تتناول طعامها فيه

ومن ثم تتفرق حلقات . وبين طبقة المثقفين تعرفت بقريب لميمنة هو الدكتور سامي الحلبوني ، وقد استرعى انتباهي ولعه بالموسيقى الكلاسيكية ثم علمت انه درس العزف على الكمان والموسيقى الغربية منذ طفولته ، وانه احد اعضاء الفرقة الموسيقية السمفونية في اسطنبول .

وعلى ذكر الفن احب ان اشير الى ما شاهدناه من الرقص التركي وما سمعناه من الغناء ابان اقامتنا في اسطنبول ، فقد دعينا للملهى «كرافان سيراي» وشاهدنا فيه رقصاً شرقياً متأدباً قدمته فتاتان تركيتان باللباس القومي الجميل ، على انغام شرقية ، فكان لوناً من الرقص لطيفاً ، لا خلاعة فيه ولا ميوعة . وكان اجمل ما سمعناه في هذا الملهى المأهول بالاجانب عزف فرقة موسيقية من اوروبا الشرقية ، مؤلفة من عشرين عازفاً على الكمان يدخلون سوية في آن واحدو يتجولون على الموائد المتفرقة وهم يعزفون الحاناً مشهورة من الموسيقى الغجرية الدافقة بالحياة ، والتي لا تخلو من مسحة حزن مؤثرة ورائعة . اما عن الغناء التركي فلقد استمعنا في مقهى عائلي في منطقة (بيبيك) « Bébec » الى مغنية مشهورة آنذاك تدعى (مزين سنار) . كانت المغنية (صفية هانم) هي نجمة الغناء التركي الاولى يومئذ غير انها لم تكن تغني الا في الصيف ، وقد شاهدناها في ذلك المقهى مع زوجها ولفيف من اصدقائها تتعشى وتستمع الى زميلتها مزين سنار . قلت ان صفية هانم كانت تتعشى وتستمع لزميلتها لان مما يدعو للاستغراب حقاً ان الاتراك الفوا ان تكون صالات الغناء مطاعم في آن واحد ، وتعودوا ان يأكلوا ويشربوا فيها وهم يصغون للمطربين ويشربون المرطبات ويتحدثون ... ولا ريب في ان جهل اللغة التركية اضاع علي اكثر من نصف المتعة لدى الاستماع الى المغنية سنار ، ومع ذلك وجدت في الموسيقى واللحن رتابة زائدة . فالفرقة كانت مؤلفة من خمسة اعضاء ،

وكانت تقدم لكل اغنية قصيرة مقدمة مختصرة ، على خلاف جوقاتنا الكبيرة وعنايتها بالمقدمات الموسيقية المتنوعة والتقاسيم المنفردة على مختلف الآلات . واما صوت المغنية فانه صوت جميل ومطرب بلا ريب ، كما انها كانت تؤدي اناشيدها بكل راحة وهدوء ، ولتلك المغنية قصة مثيرة عرفها الجمهور التركي وبهذا لم تكن سراً من الاسرار ، مفادها انه وقع في حبها قبل بضع سنوات سفير عربي مرموق في انقرة فتزوجها وقضى معها ثلاثة اعوام انصرفت خلالها عن فنها وحياتها القلقة الى الحياة العائلية وانضمت الى المجتمع الديبلوماسي حيث مثلت دورها ، زوجاً لسفير ، خير تمثيل . ولكن الحنين الى الفن والحرية عاودها بشدة فعزفت عن الوجاهة الاجتماعية والرفاهية والاستقرار وطلبت الطلاق ثم عادت إلى فنها بشوق كبير ، لكي تلتقي مع شخصيتها الاصلية التي لا تتبلور الا على اضواء المسرح ، ولا تسعد الا بالتجاوب مع الجمهور .

واذا عدت الى وصف معالم اسطنبول التي زرتها لا أجد أجمل من جامع (السليمانية) وجامع (آيا صوفيا) ، فان عيني لم تقع على اجمل من جامع السليمانية ولا على اروع ، للذوق الرفيع المترف الانيق الذي يتجلى في بنائه وتزيينه . جدرانه مغطاة بألواح القاشاني الازرق المنقوشة نقشاً هادئاً ، فان اللون الازرق والنقوش الهادئة توحي بالسكينة وتدعو للعبادة ، كما ان صحنه الكبير المرتكز على اربعة أعمدة فخمة لا يقلّ جمالاً عن داخله . واما قبته العظيمة فانها مزخرفة بمهارة . واهم ما فيها الآيات القرآنية المكتوبة بخطوط عربية هي آية في الدقة والانسجام والروعة . فأنت ترى فيه ، في جملة ما ترى . اسماء الخلفاء الراشدين الاربعة منقوشة على زوايا السقف . وتعجب لجمال الخط المتنوع في كل دائرة سوداء خُطّت عليها اسماء الله الحسنى واسماء الخلفاء بأحرف الذهب الخالص . يلقبون جامع السليمانية بالجامع الأزرق ،

وله خمس مآذن دقيقة ممشوقة ومنقوشة ببراعة لذا تجدها في غاية الاناقة . ثم ان له حديقة كبرى تشرف على سباق الخيل ، وتواجه بعض الآثار القديمة كالعمود الفرعوني والعمود الروماني وهيكل سبيل الماء الجميل ، ولعل اكثر ما تعجب له لدى زيارة مساجد تركيا ان تلتقي بالعديد من المتعبدين الورعين وتسمعهم يقرأون القرآن الكريم بينما قلة بينهم تعرف العربية وتفهمها . اما آيا صوفيا فانه في الاصل كنيسة بناها الملك قسطنطين في اوائل القرن الرابع الميلادي ثم تحولت بعد الفتح العثماني الى جامع عظيم . ومعنى اسمها باليونانية : « الحكمة المقدسة » . لذا ما زلت ترى على بعض الجدران بعد أن أصبحت متحفاً رسوماً تمثل المسيح والعذراء والملائكة . كما ان في قلب المسجد وضمن اروقته مجموعة نفيسة من الفسيفساء والموزاييك ، واعمدة بديعة ، وقبة عالية فخمة ترتفع خمسة وثلاثين متراً ، ونقوشاً وزخارف غنية للغاية . انه بناء رائع ، من اروع ما فيه ألواح المرمر التي تزين جدرانه وتعكس للعين صوراً واشكالاً متنوعة ، كانت وما زالت موضع اعجاب زواره جميعاً ، وآيا صوفيا في يومنا الحاضر متحف وطني يجذب لزيارته مئات السياح كل يوم .

الجوامع الاثرية في اسطنبول عديدة ، وكذلك المتاحف والقصور ، وخزانات الكتب التي تتضمن مخطوطات نادرة ، كما ان للمدينة ابوابها القديمة وحصونها على البوسفور . فقد تجولنا فيها وخصصنا اوقاتاً كافية للتعرف عليها . من هذه المتاحف والقصور اذكر (توبكابو) السراي القديمة (اي باب المدفع) وهي من اقدم قصور السلاطين العثمانيين اذ يعود بناؤها الى خمسة قرون خلت . ومن أهم المتاحف الوطنية لان المجوهرات الخيالية ، من احجار الزمرد التي يساوي حجم بعضها حجم البيضة الكبيرة ، الى اللؤلؤ الذي وشيت بحبّاته العروش والمفارش والاسرّة ، الى الياقوت والماس الذي رُصّعت به

السيوف واواني الاستعمال من أقداح ونراجيل وصناديق تعرض في أحد اقسامها ، كل هذا مما يبهر النظر وينقلك الى جوّ الترف الذي عاش فيه ملوك بني عثمان والى جميع اشكال البـذخ التي عرفوهـا ومن المتاحف التي زرتها كذلك متحف اسطنبول الاثري الذي تشاهد فيه نماذج فنية من الآثار القديمة المصنوعة في مختلف العصور الرومانية والبيزنطية والمسيحية ، حتى انك تشاهد مومياء وتوابيت مصرية وايقونات وتماثيل واصناماً نقل العثمانيون بعضها الى بلدهم من بلاد الشرق العربي ومصر ابان احتلالهم الطويل لها . اما القصور التي زرناها ففي طليعتها ومن اهمها قصر « يلدز » اي « النجمة » ، وحدائقه الغنّاء ومكتبته العظيمة ، واذا تذكرنا ان عدد سكانه قد بلغ ايام السلطان عبد الحميد اثني عشر ألفاً ، استطعنا ان نتصور اتساع المساحة التي شيدت عليها سائر ابنيته ، ونسّقت فيها حدائقه ، وان نتصور كذلك ان الزائر له ، وقد اصبح متحفاً عظيماً ومكتبة اثرية غنية بالمخطوطات ، يتطلب اياماً بطولها للإلمام به ، او لزيارة بنائه الرئيسي وبعض اجنحته . وحدائقه الغنّاء. والحدائق اصبحت اليوم حدائق عامة ، كما ان جزءاً منها قد تحول الى مقهى جميل. مشرف على اجمل منظر في اسطنبول ، وقد كان هذا القصر في عهد السلطان عبد الحميد مملكة خاصة ضمن المملكة !

إن لحياة سلاطين بني عثمان احاديث عجيبة كتب عنها المؤرخون والادباء حقائق مذهلة وطرائف مثيرة ، فالسلطان عبد الحميد تعرّض يوماً الى محاولة للاعتداء عليه ، فاشتد خوفه على حياته وامر ببناء اجنحة جديدة للحراسة بجانب قصر يلدز الاصلي وبتوسيع حدائقه وتسويرها جميعاً ، ثم انشأ فيها بحيرات للسباحة ، كما بنى جسراً كبيراً يصل القصر بضفة البوسفور ، وعاش خمسة وثلاثين عاماً ضمن مملكته هذه التي تضمنت جميع وسائل التسلية

والرياضة ، وعدداً ضخماً من الجواري والمغنيات والموسيقيين والخيول . حتّى ان افراد حاشيته كانوا ينقلون الى بحيرات الحدائق سمكاً حياً من البحر لكي يستمتع السلطان بالصيد من وقت الى آخر ، واما الدور الصغيرة المفروشة هنا وهناك ضمن الحدائق فقد اعدها السلطان لسكن الجواري والقيان ، وتعوّد ان يقضي في دارةٍ منها مطلة على بركة للسباحة الساعات الطوال ليشاهد الفتيات يسبحن فيها فينتقي منهن من تروقـــه ... حتّى اذا ملّ منها عاد الى الاختيار من جديد ، وغالباً ماكان يرمي للغانيات هدايا ثمينة من النافذة فيتسابقن لالتقاطها شبه عاريات ويضحك « السلطان الاحمر » ويضحك حتّى يشعر بالراحة والهناء ، كل هذا والشعب يتضور من الجوع ويموت من المرض والفقر ، او يعيش عيش الأموات بل عيشاً ذليلاً هو ارهب من الموت والظلم وأمرّ في غمـــرة الظلم والاستعباد . وزرنا قصراً آخر من قصور العثمانيين هو (دولمة بغجة) الذي بناه السلطان عبد الحميد قبل مائة عام ونيف ومعناه « الحديقة الممتلئة » ، انه قصر منيف ، طول واجهته ستمائة وخمسون متراً ، يقع على البوسفور بين حدائق رائعة ، ويحتوي على مجموعة نفيسة من قطع الاثاث والتحف ، واغلبها مستورد من عواصم اوروبا ومصانع التحف المشهورة فيها ، فقد سكنه السلطانان عبد العزيز ، وابنه عبد الحميد الاول ، كما اقام فيه الزعيم الرئيس مصطفى كمال اتاتورك أي (أبو الاتراك) مدة ، وتوفي فيه سنة ١٩٣٤ ، وهو اليوم متحف وطني من المتاحف التركية في اسطنبول الجميلة .

وفي آخر ايام زيارتنا لاسطنبول خصصنا يوماً لزيارة الجزر القريبة منها ، المشهورة بجمالها ، ويوماً للتجول في الاسواق بغية شراء الهدايا . قطعنا تذكرتين في باخرة تطوف على تلك الجزر المنفردة الحالمة في عرض البحر فاجتزنا خليج البوسفور ونحن واقفتان على سطح الباخرة لإمتاع العين من منظر اسطنبول ،

المدينة الساحرة التي يشطرها المضيق الى شطرين . ان منظر ضفتها الاوروبية ونحن نبتعد عنها بينما كانت الباخرة التي تقلنا تمخر عباب البحر من اروع مناظر العالم ، كانت مآذنها الرشيقة الباسقة وقبابها وابنيتها تصغر تدريجياً وتزداد رهبة وجمالاً ، كما ان جزأها الآسيوي الذي كنا ندنو منه بابتعادنا عن الاوروبي قـــد بدا لنا اوسع امتداداً على البوسفور من الشطر الغربي . وبعد حوالي نصف ساعة توقفت باخرتنا التجارية الصغيرة امام جزيرة صغيرة اسمها (كينالي) « Kinali » حيث انزلت بعض الركاب واستضافت غيرهم ، ومن ثم توقفنا امام جزر اخرى فاتنة ، لكل واحدة منها طابعها الذاتي ، وهي (بورغاز) « Burgaz » و (هيبلي) « Heybeli » ، قبل ان نصل الى جزيرة (بويوكأضا) « Bûyûkada » التي عزمنا ان نقضي يومنا فيها . لقد أدهشتنا هذه الجزيرة لا بجمال تكوينها ، او بهندسة بنيانها وشوارعها ، او بروعة احراجها، وجلها من الصنوبر والشربين العتيق، او بتنوع شواطئها فحسب، انما بالهدوء الساحر الذي يسيطر عليها ، على كل زاوية من زواياها ، وكل بقعة من بقاعها ، حتى ليخيل اليك انك في الجنان لا على الارض . وسر هذا الهدوء الذي يغري بالتأمل ويريح الاعصاب هو خلو بويوكأضا من السيارات بجميع اشكالها ، فقد منعت الحكومة التركية ادخالها الى جميع جزر الاصطياف حرصاً على راحة المصطافين والسياح وسلامتهم ، وحفاظاً على جمالها الطبيعي ونقاوة هوائها ، لهذا انحصرت وسائل النقل والتنزه في هذه البقاع الحالمة الوادعة بعربات الخيل او ظهور الحمير او السير على الاقدام ، مما يجلو جمال الطبيعة بوضوح ويحبب بالتريض ويدعو الى السرور . فقد استأجرنا عربة ساعة وصولنا وتعرفنا بواسطتها على وسط الجزيرة ومرتفعاتها حيث تنتشر الدور الجميلة ضمن الاحراج . كما تعرفنا على شواطئها حيث تربض القصور الفخمة والدور الانيقة . وتكثر المسابح والمطاعم والمقاهي . فترى الاشجار متاخمة للبحر

في بعض المواقع مما يزيد في فتنة المنظر . تغدينا في مطعم صغير وكان الجو بارداً فتناولنا حساءً تركياً شهياً ولحماً مشوياً ، وقبيل المساء كنا في فندقنا نحاول استعادة مشاهداتنا الرائعة ، وبمناسبة ذكر نوع الغداء الذي تناولناه في بويوك أضا لا بد من الاشارة الى جودة المآكل التركية فهي مشهورة بأنها نفيسة ومعروفة في بلادنا وفي دول البلقان ، اصنافها خفيفة الهضم ولذيذة وتتناسب مع ذوقنا نحن العرب بصورة خاصة .

تزودنا من اسواق اسطنبول بسلع جميلة من صنع تركيا فاشترينا لنا ولأولادنا واخوتنا وكل فرد من افراد الاسرة ما يسر ، واسواق اسطنبول القديمة اسواق شرقية بكل معنى الكلمة اي انها محشوة بالبضائع بلا تنظيم ، واسعارها غير محدودة ، وعلى المشتري ان يقضي وقتاً طويلاً بل ان يضيع الساعات الطوال للعثور على ما يريد اولاً ثم للاتفاق مع الباعة على السعر . وتركيا مشهورة بصناعة الفضة والجلود ، كما ان فيها انواعاً عديدة من التحف كأواني الكريستال والأوبالين وغيرها ، لذا قضينا يومين نتجول مع اقرباء رفيقة السفر في الاسواق فاشترينا منها ما وجدناه مناسباً وجميلاً وخفيف الوزن . وقد وجدت فارقاً كبيراً بين اسعار المحلات التجارية الموجودة في فندق هيلتون التي تبيع للسياح مختلف السلع التركية والتذكارات وبين اسعار المدينة ، ولا غرابة في ذلك لان الفنادق الكبيرة في العالم تعرض للسياح عادة نماذج من الصناعات المحلية وتبيعها بأسعار مرتفعة اذ تستغل وجودهم وضيق اوقاتهم على الاغلب فتربح ارباحاً طائلة . واذكر اني اشتريت كتباً عديدة بالفرنسية منها ما يتعلق بتاريخ تركيا وفنونها ، ومنها في مواضيع ادبية ، ووجدت اسعارها رخيصة بالقياس الى اسعار امثالها في مكتبات دمشق وبيروت ، كما اذكر اني رأيت في احد المخازن بواخر مصغرة ، ذات اشرعة بيضاء جميلة

جداً ، مصنوعة من الخشب الجيد بدقة وفنّ يتضمنها ضوء كهربائي صغير ، فانتقيت احداها لتزيين الدار بها لكونها تحفة غريبة يندر مثلها في بلدنا ، ولكني صرفت النظر عن شرائها لسببين : اولاً لحجمها اذ لم يعد يوجد محل لمثلها بين امتعتي ، وثانياً لغلاء سعرها حسب ميزانيتي ... وهل يستطيع الانسان ان يقتني كل جميل يشتهيه او ان يحصل على كل نفيس تقع عليه عيناه ؟ ومع ذلك بقيت افكر في الباخرة الصغيرة نادمة على اضاعة فرصة شرائها ، الى ان سافرت يوماً الى هولندا واتيح لي ان اشتري مثلها تقريباً . اني من المولعين بالاشياء التزيينية البديعة الصنع ، وكثيراً ما رغبت بأنواع منها ابان رحلاتي وطوافي في الاسواق ولكني قلما أتهور واضايق نفسي بما يتجاوز حدود ميزانيتي وامكانات النقل ، ولهذا كثيراً ما تهرّبت من هذا الطواف خشية التعلق بشيء والاضطرار الى تركه ...

* * *

في مهد الحكمة

قضينا رفيقتي وانا في اليونان بل في عاصمتها أثينا خمسة أيام كانت من اجمل ايام رحلتنا وذلك بفضل وجود وزير مفوض لنا فيها من اعز أصدقاء اسرتي استقبلنا وزوجه في المطار واصرّا على استضافتنا في دارهما. كنت قد خابرت الاستاذ ثابت العريس من اسطنبول فأعلمته بموعد وصولنا ورجوته ان يحجز لنا غرفة في احد الفنادق، غير انه أبى ان يدعنا نقيم في الفندق، وغمرنا ابان تلك الاقامة هو وزوجه الفاضلة السيدة ليديا رحمها الله بأجمل انواع العناية والتكريم، ولا ريب في ان صحبتهما الحلوة، وعناية السيد حيدر البرازي سكرتير السفارة حينذاك بنا جعلت اقامتنا هانئة، وخلفت في نفوسنا اطيب الاثر والذكرى، وجعلتنا نرى افضل واجمل واهم ما يمكن ان يَراه زائر لأثينا في خلال خمسة ايام.

لاحظت، عندما غادرنا مطار اسطنبول في الصباح الباكر، اضطراب رفيقة السفر، وعندما سألتها عن سببه تهرّبت من الاجابة ثم اعلمتني بعد إلحاحي بأنها لم تنم جيداً ليلة البارحة توهماً من ركوب الطائرة من جديد، ومن ازدياد البعد عن دمشق... اما انا فكنت مرتاحة الأعصاب والنفس، سعيدة بالمرحلة الجديدة والاخيرة وباقتراب يوم العودة الى بلدي وبيتي، فلم يساورني القلق، ولم تستول عليّ الاوهام. وما هي الا دقائق حتى اصبحنا نطير بكل راحة فوق بحر مرمرا وبحر ايجه ومن ثم شاهدنا بوضوح الجزر اليونانية والبحار

والخلجان والجبال لسطوع الشمس ونقاوة الجو يومئذ ، فألهت صديقيّ المشاهد الرائعة عن مخاوفها واوهامها ، ولم يضايقنا شيء في تلك الرحلة الّتي استغرقت ساعة ونصف الساعة سوى الضغط الشديد الذي عانيناه ساعة هبوط الطائرة الكبيرة في عاصمة الاغريق . ربما كانت ميمنة محقة في تخوفها لان الطائرة هي وسيلة للتنقل فريدة من نوعها فإما ان توصلك الى غايتك في غضون ساعات وثوبك في كامل نضارته لم يتجعّد او انها لا توصلك أبداً ... انها لا تعرف الامر الوسط لدى حدوث الكوارث كما لو واجهتها وانت على ظهر الجمل او في سيارة او باخرة حيث تتعرض لكسر تعالجه او لجروح تداويها او لغرق تنجو منه ، لهذا كله يتطلب ركوب الطائرة تسليماً كلياً لمشيئة الله ، وقلباً قوياً بلا ريب .

كان اول ما طلبنا زيارته بعد تناول الغداء مع اصدقائنا في اثينا « الأكروبول » أي القلعة القديمة الشهيرة بأبنيتها الأثرية من معابد وهياكل ، ومن لا يعرف الأكروبول ؟ انه يقع على رابية في قلب اثينا مطلة على البحر المتوسط من جهة ، وعلى جبال اليونان الداخلية من جهة ثانية ، في مكان بارز يجعلك تراه ان كنت قادماً الى اثينا من البحر او البرّ . تجاوره تلال بعضها اخضر وبعضها قاحل ، وتمتد ابنية على سفح كبير في قمة الهضبة ، ومن اجملها « البرثينون » وهو معبد مينرفا معبودة اليونان الاقدمين ، وإلاهة الفنون والعلوم. يكمن سر جمال البرثينون في انتصابه بكبرياء حتّى اليوم على اعمدة ضخمة ، وفي التماثيل الرائعة المنحوتة في اعاليه بيد « فيدياس » الفنان العظيم ، وفيدياس من ابناء اثينا الذين عاشوا في القرن الخامس قبل الميلاد ، وخلدوا آثاراً فنية خالدة من اهمها تماثيل البرثينون ، وتمثال جوبيتر الأولومبي ، وتمثال مينرفا البرونزي ، فقد كان فذاً في فنه ، ينحت الحجر والمرمر والبرونز بمهارة ودقة ما زالتا تشهدان

بنبوغه العظيم . وقد ارشدنا مرافقونا الى صخرة بالقرب من الأكروبول توجد فيها الزنزانة التاريخية التي سجن فيها سقراط الحكيم من قِبَل خصومه ومعارضيه . ولا بد لمن يزور الأكروبول من ان يتذكر ما قرأه عن تاريخ العالم القديم ، عن تاريخ الاغريق بل تاريخ الفكر الانساني ، وهو يواجه آثار مصدر اشعاعه ، غير انه قلما يتمكن من الاعراب عن المشاعر التي تتنازعه في تلك الساعة ، ان كل ما يتحقق منه ان لا شيء يضيع في هذا الوجود ، وان ما يبنيه الفكر وما تشيده العبقرية خالد ما خلدت الحياة ، وان الذين أناروا الطريق امام الاجيال قبل الوف السنين هم رواد الحضارة الانسانية وحضارة القرن العشرين ، فاليهم يعود الفضل في تفتيح ابصار البشر نحو الحق والخير والجمال ، ونحو قدرة العقل البشري على التنظيم والابداع . فكرت بتدمر وبعلبك بينما كنت اواجه الأكروبول واطوف على ما تبقى من آثاره ، غير اني وجدت ان المقارنة بين هذه الآثار امر مستحيل ، فلكل منها طابعه الخاص وفنه العمراني وجماله وعظمته ، فالأكروبول اثر اغريقي صرف لا وجود فيه للزخارف الرومانية والبيزنطية ، بينما كل من تدمر وبعلبك من الآثار الرومانية في هندسة خطوطها وأُسلوب نحت قواعدها وسقوفها ومعابدها . بقينا نتجول بين الاطلال حتّى مغيب الشمس ، فان لألوان الغسق في الأماكن التاريخية سحراً عجيباً ، ولكم تمنيت لو صادفت ليلة البدر يوم زيارتنا لأثينا لأن اشعة القمر الفضية تضفي على الآثار روعة لا تقارن بأية روعة ، وكثيراً ما نعمت بالاستمتاع بها في بعلبك وتدمر ، وفي الاندلس العربية في كل من قرطبة وغرناطة واشبيلية .

بعد زيارة الأكروبول كان لا بد من زيارة متاحف اثينا ، فزرت المتحف البيزنطي ومتحف (بيناكي) ، ففي الاول شاهدت آثاراً بيزنطية صرفة ، منها كنيستان جمعت بقايا هيكليهما وعُرضت في قاعتين كبيرتين بينما عرضت

في سائر غرف المتحف قطع بيزنطية ثمينة ونادرة من أهمها مجموعة نفيسة من الأيقونات . واما متحف بيناكي التاريخي فانه يتضمن في طابقه الأول الألبسة اليونانية القديمة التي تمثل تقاليد مقاطعات اليونان جميعاً ، وهي معروضة ضمن خزائن من الزجاج كبيرة جداً على اجسام اصطناعية للرجال والنسوة . أما سائر معروضاته الموزعة على العديد من الغرف والقاعات فان الانسان يتمنى ان يقضي فيه اياماً متتالية اذا كان مولعاً بالتحف لكي يحيط بها جميعاً ويستجلي جمال كل قطعة منها على حدة وهي تشمل المجوهرات القديمة والاسلحة والسجاد والادوات النحاسية والخزفية والاشغال اليدوية الخ ... الخ ...

ومع ان اقامتنا في أثينا كانت قصيرة تمكنّا بفضل آل العريس ان نتعرف على ضواحي العاصمة الجميلة فزرنا بحيرة ماراتون ، ومركزين جبليين للاصطياف هما (كيفيسيا) و (ايكالي) ذكراني ببعض مصايف لبنان لكثافة اشجار الصنوبر فيهما ، وكثرة الدور الجميلة والفنادق ، ولرطوبة جوهما نظراً لقربهما من البحر .

بدت لي اليونان سنة ١٩٥٥ بلداً شرقياً اكثر مما هو غربي لعدة اسباب ، منها الفوضى المتفشية في شوارع العاصمة وطرقاتها ، وفقدان التنظيم في المحلات التجارية والاسواق ، والضجيج الذي ينبعث من حناجر الناس في كل مكان ، في المقهى وفي المتجر على حد سواء . فقد تجولنا في المدينة وجلسنا في مقاهيها وسهرنا في احد ملاهيها الشعبية للاستماع الى الغناء البلدي اليوناني ، وهكذا اتيح لنا ان نستعرض وجوه اليونانيين وحركاتهم وانفعالاتهم وان نتعرف الى بعضهم . وما زلت اذكر تأثير الغناء فيهم واعرابهم عن طربهم ليلة اصغينا الى مغنية مشهورة ، الى فنانة شابة صوتها ساحر وأداؤها للغناء لا يقل عنه سحراً . فقد ألهبت مشاعر الناس بأغانيها الحلوة وغنائها المعبّر فأخذوا يرددون

الأناشيد معها ، ويهتزون طرباً ، نساء ورجالاً دون استثناء . ولا ريب في ان معاني اغنيتها كانت جميلة ومؤثرة ، ولو اتيح لي ان افهمها لما توانيت عن مشاركتهم بالطرب والحماسة لأن الالحان كانت رائعة والصوت كذلك ، كما ان اللغة اليونانية من اجمل اللغات جرساً ، من حناجر النساء خاصة ، لما فيها من عذوبة في اللفظ وموسيقى في النطق . ولكن من يزور اليونان اليوم يشعر اكثر من ذي قبل انه في القارة الأوروبية للتطورات الاقتصادية والاجتماعية والعمرانية والسياحية التي حدثت فيها ، وقد لمست بنفسي مدى هذه التطورات الهامة التي شملت جميع مظاهر الحياة فيها لدى زيارتي الثانية لها اي بعد عشر سنوات من تاريخ الزيارة الاولى التي اتحدث عنها الآن .

اشتد حنيننا الى اولادنا ، ميمنة وانا ، ونحن في اليونان اذ عشنا في جو عائلي ممتع مع آل العريس ، فأخذت صديقتي تتحدث عن اولادها في السهرة ، وتذكرت صاحبة البيت أولادها الثلاثة الموجودين يومذاك في حلب لتعلم اللغة العربية ، فعددت مساوىء السلك الدبلوماسي وتضحية افراده بالابتعاد عن اولادهم ابان مرحلة الدراسة مما هاج حنيننا جميعاً ، وجعل الدموع تغرورق في المآقي . ولكني وجدت في نفسي الشجاعة لتأنيبهما على مجاراة العواطف حرصاً على انقاذ جو السهرة من حزن وحنين لا يجديان فتيلاً ، ثم أعلمت آل العريس بأن لميمنة صوتاً رخيماً وانها تجيد الغناء باللغة التركية ، فنزلت عند الحاحنا عليها واسمعتنا أغاني جميلة ومشجية ... واذا بالاغنيات العاطفية العذبة تزيد في إثارة الشوق وتستدرّ العبرات ، لذا كان لا بد من توجيه الحديث وجهة مختلفة للترفيه عن النفوس . رويت لاصدقائي قصة طريفة سمعتها من الأديبة السورية السيدة نازك العابد بيهم ، وصفت فيها اولى رحلاتها الى اوروبا بصحبة ابيها في اوائل هذا القرن ، كان والدها (مصطفى باشا العابد) رجلاً

وجيهاً ومتطوراً بالقياس الى رجال عصره، غير انه كان من المتمسكين بتقاليد الشرق وآدابه الاجتماعية، فوجد نفسه يوم اصطحبها الى باريس مضطراً لتقديمها عليه في المطاعم والحفلات الرسمية مما اغاظه كثيراً وجعله يعرب عن سخطه في كل مناسبة من هذا النوع . كان ينظر اليها شزراً وهما جالسان إلى مائدة الطعام في الفندق مثلاً ساعة كان يتقدم الخادم بالطبق منها اولاً ويقول :

– تفضلي يا ستي ... لا بأس ان تأكلي قبلي هنا فحسب، لعن الله الغرب ...

فكانت المسكينة تشعر بالحرج وتتناول الطعام قبله حائرة ، وقد فقدت كل شاهية ، ولكنه كان يسارع الى مرضاتها بكلمة رقيقة او بابتسامة ، ثم لا يلبث ان يحنق عندما كان يجد نفسه مرغماً على تقديمها عليه في السير مجاراةً للمحيط ، فيقول :

– تفضلي وامشي قبلي ... ولكن إياك ان تكسري رجلك ...

فكانت تذوق المرّ في كل مناسبة وتتمنى لو بقيت في الشام لتجنّب هذا التنغيص وهذا التوبيخ ... كانت الاديبة نازك العابد ، رحمها الله ، مثالاً صادقاً للمرأة العربية المثقفة المهذبة ، غير انها سردت وقائع تلك الرحلة لتبرهن ان عادات بلادنا متأصلة فينا ، ولا سيما في جيل آبائنا ، لدرجة كان يصعب معها كل تطوير . اما انا في تلك الليلة فقد مازحت ميمنة التي تتقبل المزاح اللطيف ، وأنذرتها بأني سأكتب ذات يوم عن مغالاتها في الاسترسال مع عواطفها التي تنفي عنها كل أثر للتطوّر والتحضّر ... واضفت ان اصدقاءها في اسطنبول كانوا مخطئين عندما حسبوا انها صورة صادقة عن المرأة السورية الناهضة التي اصبحت تسافر بمفردها الى الغرب ، وظنوا اننا نقضي اجازة سعيدة نُحسد عليها ، فلقد أعجبوا بنا وبزوجينا اللذين سمحا لنا بالسفر من

دونهما . ذكّرت ميمنة بالثناء الكبير على خطوتنا هذه الذي سمعناه من (المسز ب.) ذات الشخصية المتحررة المعروفة لدى الكثيرين في الشرق والغرب ، فأجابتني ميمنة وهي تبتسم :

– يا لهم من مخدوعين بنا ! مظاهرنا تغش يا سلمى ولكن حقيقتنا تدل على تخلفنا اذا شئت ... وليست لنا حيلة لان التّربية التّي نشأنا عليها ، (وقد نعتتها بالتّربية السيئة) والعواطف المتأججة في صدورنا نحو بيوتنا وذوينا تمنعنا من الاستمتاع بكل اجازة نقوم فيها بمفردنا . أما قريبتّي المسز ب. فانها نسيج وحدها لا احد يشبهها في مجتمعنا ، فقد كسرت الطوق منذ حداثتها ، وخرجت على التقاليد ، وتطبعت بطباع الغربيين ، وتزوجت منهم وعاشت في بلادهم .

وقد فاتني ان اذكر لقاءنا بهذه السيدة في الطائرة التّي أقلّتنا الى اسطنبول ، ثم في اسطنبول نفسها يوم تفضلت بزيارتنا في الفندق ودعتنا إلى الغداء مع اصدقاء لها في مطعم عبد الله . كنت قد سمعت عنها وعن قوة شخصيتها وذكائها وعن تصرفاتّها في حياتّها أحاديث غريبة شوقتني الى التعرف اليها . فكان لقاؤنا الاول في مطار بيروت حيث لمحتها ميمنة فدنت مني وقالت لي :

– انظري الى يسارك تري المسز ب. فقد علمت امس انها مسافرة الى اسطنبول على طائرتنا .

فتطلعت الى يساري ورأيت سيدة جميلة انيقة ، تشبه الغربيات في لباسها وقبعتها وحركاتّها السريعة ، وقد بدت لي شابة في مطلع العقد الرابع لما في وجهها من نضارة وفي جسمها من رشاقة . وكنت اعلم ان رابطة قربى تصلها بميمنة عن بعد ، لذا دنت منا عندما شاهدتّها وحيّتنا اجمل تحية ثم جلسنا نتبادل اطراف الحديث مما جعلني ازداد اعجاباً بها وبشخصيتها الفذة . كانت

تتكلم العربية بطلاقة. والفرنسية بلهجة باريسية متقنة كل الاتقان ، والتركية مع ميمنة ، كما انها تجيد الانكليزية (وهي متزوجة من نبيل انكليزي) والالمانية والايطالية . ثم فرقتنا الطائرة للاسف لان تلك السيدة كانت من ركاب الدرجة الاولى بينما كنا نحن مع ركاب الدرجة السياحية ، غير انها غمرتنا بلطفها اذ تركت حجرتها الهادئة الوثيرة ونحن نحلق فوق جبال طوروس قبيل الوصول ، واتت للجلوس معنا فترة من الوقت ، استهلت حديثها تقول باشّةً :

— اهنئكما على القيام بهذه الرحلة ، وانه ليسرني كثيراً ان اكتشف عند السوريات جرأة وادراكاً !

وعندما سألتها اذا ما مكثت في دمشق طويلاً قالت لي :

— أنا لا أطيق البقاء في دمشق اكثر من ايام معدودة لذا قضيت فيها اربعاً وعشرين ساعة لانجاز بعض المعاملات الضرورية ، اني لم أطق يوماً الحياة فيها مع انها مدينة جميلة لان اهلي زوجوني قسراً وانا بنت ستة عشر عاماً ! لقد زوجني ابي من ابن عم لي فسُجنت في دار الزوجية بعدما عشت طفولتي وحداثتي الاولى بين اسطنبول والقاهرة وفرنسا ، كما اني احسست بضغط شديد ارهق اعصابي الفتية وعرفت العذاب وكرهت الحياة اثر ذلك الزواج . ولكن تمرّدي القوي وجرأتي قد خلصاني من الشقاء فهربت من دمشق الى باريس حيث التحقت باقرباء لي ، وهكذا نجوت ولم اكن ضحية الحياء الغبيّ ، والعرف البالي ، والطاعة العمياء ...

وعندما باشرت الطائرة الهبوط غادرتنا السيدة لمعة متمنية لنا اقامة طيبة في بلد ولادتها ومهد طفولتها ، ثم رجعت الى مكانها في الحجرة الخاصة ،

فقلت لميمنة :

– ان هذه السيدة مدهشة حقاً ! حيويتها وجمالها وحديثها العذب وثقافتها مما يدعو للاعجاب ، اعتقد انها من النوع الذي لا يشيخ لأنها شابة تعتني بنفسها عناية فائقة على ما يبدو .

فقالت لي ميمنة :

– كل ما تقولينه صحيح ، ولكن تخمينك لسنّها غير صحيح ، فكم تعطينها من العمر ؟

– اربعين عاماً على الأكثر ...

فابتسمت رفيقة السفر وقالت :

– لقد تجاوزت الخمسين يا عزيزتي ولكنها أجمل من نساء الثلاثين ، وسرّ هذا الجمال في ظني انها فعلت في حياتها ما تريد ، دائماً ابداً ! ولا تنسي انها منعمة ، مرفهة ، تعيش مع زوج انكليزي يحبها كثيراً ويحترمها ، وهو زوجها الثالث ، اما الثاني فقد كان اميركياً من كبار الاثرياء ، التقى بها في باريس بعد طلاقها من ابن عمها وكانت في الخامسة والعشرين أو اقل ، فعشقها عشقاً جنونياً وطلبها للزواج ، وبعد دلّ وتيه قبلت به زوجاً ووعدته بـأن تعيش معه في نيويورك حيث تضطره اعماله الهامة للإقامة فيها . سبقها صاحبنا الى نيويورك وظلّ يرسل البرقية اثر البرقية للسؤال عنها ورجائها بالسفر اليه ، وبعد ان تجهزت بما يلزم حجزت جناحاً على ظهر الباخرة العظيمة « كوين ماري » وابحرت فيها قاصدة الولايات المتحدة حيث أعد لها زوجها استقبالاً فخماً . ولم يخطر لاحد في بال ان تلك الشابة الثرية الجميلة التي تتدفق ذكاء

وطموحاً رسمت خطة لإثارة الضجة حولها تكاد تكون من الاساطير ! لقد أعلمت قبطان السفينة بعد انقضاء بضع ساعات على ابحارها من الشاطىء الأوروبي بانها نسيت مجوهراتها في فندقها في باريس ، وطلبت اليه ان يعود في الحال الى مرفإ (لوهافر) (Le Havre) على نفقتها الخاصة ، والا فانها تحمله مسؤولية ضياع مجوهراتها . صعق طاقم الباخرة لهذا الطلب الغريب الذي لم يسبق له مثيل ، وحاول القبطان ومعاونوه اقناع السيدة الشابة باستحالة عودة السفينة لأن في عودتها خرقاً للأنظمة المتعارف عليها ، عدا مسؤولية كبرى تجاه ركابها جميعاً ، وجلهم من الشخصيات الهامة المرتبطة بمواعيد محددة في نيويورك . فكشفت لهم عن شخصيتها وشخصية زوجها المقبل الذاهبة اليه ، فأثارت حولها ضجة من الاهتمام ، ثم هددت واوعدت وهي متمسكة بتنفيذ طلبها على ان تتحمل جميع نفقات تلك العودة وما ينجم عنها من أضرار مادية للركاب ، مما زاد في دهشة طاقم السفينة والمسافرين وجعلهم يرضخون لمشيئتها في النهاية ويقررون العودة الى مرفإ الانطلاق ... وهكذا كان لها ما أرادت اذ رجعت الباخرة الى اوروبا ، وكانت السيدة الجريئة قد أبرقت الى وكيل أعمالها في باريس وكلفته باحضار مجوهراتها الى (لو هافر) فتسلمتها منه وتوجهت في الكوين ماري من جديد الى نيويورك ... وبديهي ان تكون انباء هذه الحادثة الفريدة قد سبقتها الى الولايات المتحدة ، وان تكون وكالات الأنباء الأوروبية والأميركية قد تحدثت عنها ملياً ، فعندما رست الباخرة في نيويورك أقبل المصورون والصحفيون والمعجبون على السيدة لتصويرها والتحدث اليها . ولكن زوجها كان قد اتخذ احتياطات الأمن اللازمة لانقاذها من جيش الفضوليين . كما انه نفّذ تعهّدها الذي كبّده نفقات باهظة . فلمع اسمها في مجتمع العالم الجديد ، واتجهت الأنظار اليها ابان اقامتها فيه لتقصّي أخبارها . واصبحت نجمة من النجوم البارزة فيه ...

فقلت لميمنة وأنا أصغي الى تلك الرواية المثيرة

– ولماذا لم تعش مع زوجها الأميركي الثري بعد ذلك ، هل انتهى العشق بينهما ؟

فأجابتني رفيقة السفر بكل هدوء وبلهجة لا تخلو من التهكم :

– لأنها يا عزيزتي لم تطق الحياة في نيويورك ! لقد طلبت الطلاق وحصلت عليه وعلى مبلغ كبير من المال يُعتبر ثروة محترمة وذلك استناداً الى القوانين المرعية في الولايات المتحدة ... أوَلَم تقل لك ان في العالم ثلاث مدن جديرة بالسكنى لا غير هي باريس ولندن وجنيف ؟؟؟

هذا ما قالته لي حقاً عندما كنا في الطائرة على أهبة الوصول الى اسطنبول في المرحلة الأولى لسفرتنا ، وعندما أتيت على ذكر المسز ب. ونحن نقضي آخر ليلة في أثينا مع آل العريس تواردت الخواطر على فكر ميمنة وأخذت تروي لنا طرفاً وفصولاً ممتعة استلهمتها من حياة تلك السيدة بأسلوبها العذب في الحديث ، وكان لها الفضل في جلاء جو الحزن الذي سيطر علينا في مطلع تلك الليلة . اما يومنا الاخير في أثينا فقد كان ماطراً ، عاصفاً ، ومع ذلك قمنا بجولة في الاسواق ، واسترحنا قليلاً بعد الغداء قبل ان نتوجه الى المطار.

كنا قد تركنا في اسطنبول حقيبتين ممتلئتين بالثياب والهدايا التي ابتعناها لاهلنا من تركيا لكي لا نثقل على انفسنا ابان زيارة اليونان ، وفي حوالي السادسة مساء ودعنا اصدقاءنا وصعدنا الى الطائرة تحت المطر الشديد ، وما ان حلقت بنا في الجو حتى اذاعت المضيفة ان الاجواء مشحونة بسلسلة من العواصف الصاخبة مما سيضطرنا الى الارتفاع كثيراً . وطلبت من المسافرين ان يربطوا الاحزمة ويطمئنوا .. فاخذت الطائرة الضخمة تميد بنا ذات اليمين وذات

اليسار ، وترتج بعنف بين حين وآخر ، وتدخل في الصواعق لتخرج منها ونحن نرى من النوافذ جبال الغيوم الدكناء ، ووميض البرق الخاطف ، وكأنه شعلة سحرية تشعّ لتبهر الابصار ، ثم تنطفيء لترعب القلوب . كانت طائرتنا تشق السماء المظلمة وتهبط في جيوب هوائية كبيرة مما يروّع حقاً ويدعو الى القلق لا الى الاطمئنان ... فأصيب بعض الركاب بالدوار ، وبدا بعضهم الآخر بين خائف على حياته ومتشائم يتوقع ابشع نهاية مثل ميمنة ، وبين مسلّـــم مستسلم يتمتم ما يحفظ من الادعية والصلوات مثلي ... وقد طال حقاً وقت الاعصار ، وازداد ارتجاج الطائرة بنا حتى ان المضيفة التي كانت تطوف علينا بالقهوة والحبوب المهدئة للمعدة فقدت توازنها وارتمت على احد المقاعد مع ما تحمل . واذكر جيداً كيف تحوّل عندئذ غناء طفل من الركاب الى بكاء مذعور ، وكيف نظرت الي رفيقة السفر نظرة الواجم الذي فقد اعصابه وقالت :

ــ ارى اننا على موعد مع الموت، الا ترين ان الطائرة ستحترق بنا قريباً او تصطدم بالجبال المحجوبة ؟ اسف علينا يا سلمى ... ما زلنا شباباً ، وما زال اطفالنا صغاراً ...

ولا ادري لماذا ابتسمت وانا اقول لها :

ــ اتكلي على الله يا شيخة واقرأي آية الكرسي كما أفعل ... دعي الرثاء جانباً وكوني مؤمنة ، هادئة ...

فأصابتها عدوى الهدوء ، وأحسّت بشيء من الاطمئنان ، وقالت لي وقد آنست في نظرتها بعض الارتياح

ــ اهنئك على تفاؤلك ولكني كنت افكر في اهل دمشق ... في اهلنـــا

ساعة وصول النبإ المفجع بفقداننا لا سمح الله ...

واذا بالمضيفة تذيع اننا خرجنا من المناطق العاصفة بسلام ، وانه اصبح بوسعنا ان نفكّ الأحزمة ، فانتعش الركاب جميعاً وابتهجت ميمنة وضحكت وهي تقول لي :

– تخيلت يا سلمى ماذا كان سيحدث في دمشق لو قضي علينا .. تزاحمت الرؤى في رأسي وتصورت حزن اهلنا الكبير علينا ، وكيف كان سيتجدّد يوم وصول الحقائب التي تركناها في اسطنبول ، بل حين يفتحونها ويرون الهدايا الجميلة التي اشتريناها لكل فرد منهم !

استرسلت ميمنة في افتراضاتها وتخيلاتها الى ان بلغنا مطار اسطنبول في ساعة متأخرة ، إنها شخصية ظريفة حتى في احرج الساعات ، وقد رافقتنا موجة التعليقات الضاحكة حتى بعد وصولنا الى الفندق في منتصف الليـــل تقريباً ، ولا ريب في ان الضحك هو احد ردود الفعل الانسانية الطبيعية بعد الخروج من الأزمات الصعبة . كانت اسطنبول غارقة في السيول لدى وصولنا اليها في العاشرة ليلاً ، وقد تعطلت سيارات شركات النقل جميعاً لذا كان لا بد من الانتظار ساعة ريثما تصل الى المطار وسائل نقل للقادمين . وفي الحادية عشرة وصلت سيارة غريبة عجيبة لتقلّنا الى المدينة التي تبعد نصف ساعة عن المطار ، فدعينا للركوب فيها مع امتعتنا واذا بها من نوع شاحنات القطيع ، لا منافذ لها ولا مقاعد فيها ، بـــل هي غرفة مستطيلة ركّزت في طرفيها الواح من الخشب ، فصعدنا اليها مع رفقاء الرحلة الأجانب وكأننا اغنام في طريقها الى المسلخ ... كان يوجد معنا رجل نمساوي طويل القامة ، ضخم الجثة ، متهدج الوجه وقد تضايق كثيراً من الحرّ ضمن ذلك السجن المؤقت فبدا عليه انفعال شديد واخذ يعرب عن سخطه واشمئزازه من الشركة ومعاملتها

السيئة للمسافرين بلغة فرنسية مفخّمة مما اثار فينا من جديد موجة الضحك التي أصابتنا قبيل الهبوط . كانت شتائمه الجارحة تشفي الغليل ، ولكن الصور التي كان يرسلها لحاله وحالنا بعباراته المستاءة كانت محكمة ، خفيفة الظل ، تثير الضحك حقاً ! فقد وجد تلك الشاحنة تصلح لنقل الخنازير من الارياف الى المدن في البلاد الراقية ... ثم اضاف يقول انهـا تليق بموتى الخنازير لا الاحياء منها ... عندئذ تقدم أحد الركاب من السائق ورجاه من خلال الحاجز الزجاجي الذي كان يفصلنا عنه ان يسمح بفتحه وبفتح نافذته علنا ننتعش بدفقة من الهواء النظيف ، فقبل السائق الرجاء ولكن المطر كان يتدفق بغزارة غير مألوفة مما جعله يبلّل وجهه والمقعد فأغلق النافذة بسرعة ، وكان علينا ان نصبر على الجوّ الخانق الى ان وصلنا الى مكتب شركة الطيران ! وهنالك ترجّل المسافرون من الشاحنة الرائعة وهم يتنفسون الصعداء ، وبقينا نحن الاثنتين فيها لكي توصلنا الى فندقنا لأننا تهيّبنا الوصول اليه بسيارة تكسي بعد منتصف الليل ، ولا تسلوا عن دهشة بواب الهيلتون حينما توقفت تلك الناقلة العجيبة الغريبة ، بل شاحنة القطيع العتيقة ، أمام بابه الرئيسي وشاهدنا ننزل منها قفزاً مع أمتعتنا ... ولن أنسى ما حييت تلك الليلة المرهقة اذ ان رفيقتي سهرت حتى ساعة متأخرة بعد منتصفها وسهّرتني معها لشدة مـا كانت متوترة الأعصاب ، وما استرسلت في الحديث والضحك وفي تقليد السائح النمساوي وغيره من الذين رافقونا وميمنة بارعة حقاً في التقليد والتفكّه ، انها من الذين خُلقوا لكي يغنوا ويضحكوا ، ويقصوا أجمل النوادر ، فلقد زوّدتها تلك الرحلة برصيد كبير منها فأخذت تعطر مجالسنا العائلية بها اثر عودتنا الى دمشق . واجتماعاتنا الودّية كلما أحيينا ذكرى رحلتنا الحلوة الى تركيا ومهد الحكمة .

• • •

الفهرس

صفحة

٢٠١٧.

للمؤلفـــة

يوميات هالة	١٩٥٠	دار العلم للملايين
حرمان (قصص)	١٩٥٢	دار المعارف
زوايا (قصص)	١٩٥٥	دار المعارف
الوردة المنفردة (اشعار بالفرنسية)	١٩٥٨	طبع في الأرجنتين
نساء متفوقات	١٩٦١	دار العلم للملايين
عينان من إشبيلية (رواية)	١٩٦٥	دار الكاتب العربي
نفحات ريح الأمس (ديوان شعر بالفرنسية)	١٩٦٦	مقطوعات باريس الأدبية
الغريبة (قصص)	١٩٦٦	دمشق - مكتبة أطلس
عنبر ورماد	١٩٧٠	دار بيروت

الناشر
دار بيروت للطباعة والنشر
بيروت ــ لبنان